AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01580 8896

٤١٥٠٤
٦١١

هدية الوخلوص والولو والمحبة والو
الى رب القلبية حضرة الفاضل الاد
صاحب السعادة احمد شفيق باشا
من المخلص
محمد لبيب
البتنوني

D
919
B37x
1901

# رحلة الصيف

## في اوروبا

بقلم

محمد البنبوني

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى

( طبعت بمطبعة اللواء عام ١٩٠١ )

## إهداء الكتاب

### الى ولىّ النعم الأكرم خديو مصر المعظم

سيدي ومولاى

لما كانت رحلة صيفى الماضى أثراً من آلاء جنابك الفخيم . ونهلة من فيض كرمك العميم . رأيت قياماً بواجب هذه النعمة أن أمثل صورتها فى هذا السفر الذى أتشرف اليوم برفعه بيد الشكران والامتنان الى مقام عظمتكم السامى عساه يسعد معى بنعمة القبول .

وانى لأضرع الى الله تعالى بحفظ هذه الذات العالية الفخيمة والانجال الكرام ذخراً للبلاد والعباد آمين فكا

العبد الخاضع

محمد لبيب البتنونى

## المقدمة

# بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أسرى بعبده . والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير من قام بشكره وحمده . وعلى آله وصحبه . وحزبه وجنده

﴿وبعد﴾ فقد نالتنى عناية سيدى ومولاي خديو مصر الافخم أفندينا ﴿عباس حلمى الثانى﴾ حفظه الله بصدور نطقه السامى بتشريفى وإسعادى بالسفر الى الاقطار الاوروبية ضمن رجال حاشيته الكرام فى آخر صيف القرن التاسع عشر وهى أقصى مايتفضل به المولى على المخلصين من عبيده لسدته العلية . فيممنا صوبها وقد كانت طالما تتوق اليها نفسى للوقوف على أحوال تلك الامم الحية التى كثرما كان ذكرى أعمالها وأحوالها يتشنف بها سمعى ويشتاق الى مشاهدة أعيانها بصرى . فزرت فى معيته السنية كثيراً من عواصمها وبلدانها وأقطارها وأمصارها واستمحت الاذن الكريم . فى مشاهدتى بعض الجهات التى لم يقصدها جنابه الفخيم . فى هذه السنة مما درسته حق دراسته على ماسمح لى به ضعفى وزمنى القليل .

وأردت قياما بواجب هذه النعمة العظمى أن لاأحرم قومى من أثرها حتى تكون الفائدة عامة والمنفعة شاملة وحررت بقلمى العاجز رسالاتى التى

كنت أبعث اليهم بها من أقطارها مما ذكر فى جريدة «الموسوعات» الغراء فى حينه. ورأيت من كمال الفائدة أنى لا أقتصر فيها على شرح ماشاهدته من الماديات بل سموت الى البحث فيما مكنتني فيه فرصتى القصيرة عن تلك المعانى التى صعدت بالقوم الى مراتبهم القصوى مما استنبطته من خلالهم وأحوالهم وعوائدهم وطبائعهم وأعمالهم وقارنت بين ما كنت أنظره من كمال فيهم ونقص عندنا مراعيا فى ذلك التحقيق والتدقيق حتى اذا عرفنا الصفتين. ووقفنا على الطرفين. وتحققنا من نهايتى الطريقين. نزعنا عما نحن فيه الى الطريقة المثلى التى انما بها تتم الصالحات وتكون من ورائها السعادة الابدية. والحياة الحقيقية.

ثم أردت جمعها بعد ما أضفت عليها مالم أبعث به اليهم من رسالتى الاخيرة وطبعها فى هذه الورقات واهداء نسخها الى الجمعية الخيرية الاسلامية راجياً بها المنفعة العامة وعلى الله القبول

## الرسالة الأولى

### على ظهر البحر من الاسكندرية الى تريستا

بارحنا الاسكندرية مساء يوم السبت ( الموافق ٢ يونيو سنة ١٩٠٠ ) وسارت بنا المركب نحو الشمال الغربى باسم الله مجراها ونحن وهى بين صفحتي الماء والهواء. وان شئت فقل السماء. وكان الوقت صافياً . والجو هادئاً . وما أصبح الصباح حتى رأينا البحر كأنه المرآة فى صفائه . أو الصاحب الامين فى ولائه ووفائه . لا يمكن للواصف أن يقول عنه سوى انه سهل من زجاج تبعث اليه الشمس بأشعتها فتنعكس على الفضاء بأنوارها الزاهية الباهرة وكأنما نحن جلوس على بساط فرش عليه لاتهزنا غير ذكري الوطن العزيز . ولا يستوقف نظرنا فى هذه الصحراء البلورية الا هذا الأفق الذى يحد أبصارنا بدائرة من ألوان الطيف تجعل النظر فى دهشة من منظرها اللطيف الذي انما رسمته يد الطبيعة القادرة . وكأنما نحن مركز لهذه الدائرة . كلما سرنا . وحيث اقمنا . لاتربطنا بها سوى أشعة أبصارنا التى اذا وصلت اليها وأرادت أن تجاوز حدودها انقلبت على أعقابها كأنما تجد هناك من يقول لها : الى هنا حدك . ومنتهى جهدك . فارجعى بسلام فانك لن تبلغى ماوراء الطبيعة

ومازال بنا المسير حتى مررنا غرب جزيرة « جريد » وهى تبعد عن الاسكندرية بنحو مائتى ميل وهذه الجهة منها عبارة عن سلسلة جبال شاهقة طولها نحو ١٢٥ ميلا وفى مساء يوم الاثنين اقتربنا من « نافارين » وهى قرية فى الجنوب الغربى من جزيرة « موره » فهاج علينا البحر وأرسلت الينا

الامواج من جهة البر تتلوها الامواج وقد نثرت عليها ثريات من اللآلئ فتخيل لى انما هى عبرات اخواننا المصريين بل العثمانيين الذين قضوا بمينا ها بيد الظلم والعدوان(١) بعد ما أبلوا بها بلاء حسنا فى حرب موره سنة ١٢٤٢ هجريه وتصورت أن سبب هياج البحر هى تلكم الزفرات التى تصاعدت من أنفاسهم عند رؤيتهم لنا فاضطرب منها الماء . وانطبعت صورته فى مرآة الجو فتغير لها وجه السماء . وأرسلوا الامواج سفراء بيننا وبينهم ليشكوا الينا أمرهم من جهة ولكيلا يسمعوا عن الوطن حديثا بما ترتاح له ضمائرهم وتنتعش به أرواحهم .

(١) قامت ثورة فى موره فارسل السلطان محمود رسالة الى العزيز جنتمكان محمد على باشا والي مصر يستنجده فيها بتخليص أسطوله الذى كان أنفذه اليها حيث حوصر على حدود البانيا فارسل الوالي صهره محرم بك محافظ الاسكندرية فى ٢٤ رمضان سنة ١٢٣٦ مع ١٤ سفينة حربية فلما وصل الي جريد تلاقي بسبع عشرة سفينة رومية تطارد سفينة عثمانية تجارية فهجم عليها وأسر منها ثلاث سفن وهرب الباقي ثم اتبعه محمد على باشا باسطول آخر مؤلف من ١٨ سفينة تحت قيادة طبوز اوغلى محمد أغا وأمره بالانضمام هو ومحرم بك الي الاسطول العثماني الذى كان تحت قيادة مختار بك فكان ذلك وساروا جميعاً وخلصوا الدونما العثمانية المحصورة ثم رجعت الدونما المصرية الي الاسكندرية لتصليح ما تلف منها سنة ٣٨ وفى سنة ٣٩ صدر فرمان سلطاني بتعيين ابراهيم باشا ابن محمد على والياعلي جريد وموره وطلب السلطان من محمد على باشا والها نجدة مصرية للمساعدة علي حرب اليونان وقام الاسطول العثماني الى الاسكندرية وانضم الى الدونما المصرية وكان عدد مراكبها ٩٩ سفينة بين حربية ونقلية وكان عليها ١٧٠٠ عسكرى بيادة و٧٠٠ سواري وأربع بطاريات طوبجية وأقلعت منها جميعاً فوصلت موره سنة ١٢٤٠ وأخضع ابراهيم باشا الثورة فى سنة ٤٢ ثم ذهب الاسطول وكان فيه ٥٣ مركبا حربية بين عثمانية ومصرية عليها ١٥٨٨ مدفعا الي مينا نافارين فتبعته الدونما الانكليزية والفرنساوية والروسية وكانت تتركب من ٢٦ سفينة حربية تحمل ١٢٦٦ مدفعاً ودخلت خليج نافارين بدون اظهار عداء للدونما العثمانية وأخذتها علي غرة ودمرتها تدميرا وكان ذلك باتفاق فيما بين دولهم خلد لها نقطة سوداء فى التاريخ

فانعطفنا الى هذا المكان بحكم العاطفة الجنسية والجاذبة القومية لنقضى بها ليلة استئناسا بهذا العظم الرميم . بل بذلك العظم المقيم . بل استذكارا لما كان لمصر والدولة . من المجد والقوة والصولة .

وبينما أنا غارق فى فكرة ما كان لنا من عز قديم وملك فخيم باحثا عن سبب هذا الانقلاب الذى يدهش أولى الالباب اذ تخيل لى أنى بين أولئك الغرقى من مصريين وعثمانيين ورأيت من بينهم رجلا ذا أبهة وجلال تلوح على هيئته المهابة وعلى سيماه الوقار وقد أحنى برأسه الى ما كاد يلصقها بالارض خجلا . فقلت فى نفسى لعله رئيسهم فابتدرته بقولى السلام عليك أيها الشهيد . فرفع الى بصره وسلم وقال لا تقل الشهيد بل البليد . فقلت ولماذا وقد عملت كل مايمكن عمله فى الذود عن الدولة والملة وكيف وقد حاربت حرب الابطال . واستشهدت بيد الغدر لا بميدان النزال . حتى كان يقال انك مغلوب وذاك غالب . فقال نعم ولكنا معشر الشرقيين ترانا بين نقطتى التفريط والافراط لا نترك النقطة الاولى الا لنأخذ بأطراف الثانية واليك البرهان :

فرطنا أولا فى البعد عن الغربيين حتى صرنا لا ندري ماذا يصنعون . وفى أى طريق من التقدم هم سائرون . فانتهزوا فرصة نومنا عنهم وجهلنا بشؤنهم فجدوا واجتهدوا وتعلموا وعلموا وتفننوا واخترعوا حتى ترقت علومهم وصناعاتهم وتقدموا ونحن نحن على ما كنا عليه من الدعة والسكون .

ارتكنا على قوانا العقلية والمادية ففرطنا فيما تنمو به فكان من وراء ذلك هذا التأخر بل التقهقر . وبعد أن كانوا يأخذون عنا علومنا وصنائعنا أصبحنا نأخذها عنهم بأموالنا مع الكد والعناء . وقد عرفوا منا موضع الضعف فقصدوه بيد العداء حيث لا قوة ولا حول . لانا تحاسدنا فتباغضنا وتنازعنا فتقاطعنا

وأصبحنا وليس لنا ثقة بأنفسنا وأفرطنا فى وضع ثقتنا بالاجنبى ولولا حسن ظننا بأولئك الذين غدرونا كما تقول لما كانوا وصلوا الى الايقاع بنا . وهذا ولا شك غاية فى البلادة والجبن وضعف فى العزيمة .

فوخزنى هذا الكلام . بسهام الآلام . وانتبهت وكأنى كنت فى منام .

## ﴿ وصف نافارين ﴾

هذه القرية على الشاطئ الجنوبى من جزيرة موره وكانت وقتها شبه جزيرة فلما قطع برزخ كورنت واتصل بحر اليونان وهو الارخبيل بمياه البحر الادرياتيكى صارت جزيرة (ويسمى الآن قنال كورنت وطوله خمسة أميال بحرية وعرضه ثلاثون متراً تقريباً)

وهذه القرية على منحدر جبل عددت بها بواسطة المنظار ١٢٠ بيتا بعضها ذو دورين والاغلب بدور واحد أرضى . وكلها صغيرة الحجم ليس بأكبرها غير صالون وأربع أود . ووجهة أبنيتها على البحر وهى من الحجر وموشاة كلها بالجير وهيئتها تقرب من الطراز الشرقي لو لا أن سقوفها منحدرة من جوانبها الاربعة وبكل أودة منها شباك أشبه شئ بالشبابيك الشمسية ومنازلها فى الغالب يحيط بها غياض صغيرة بها بعض شجر الفاكهة والسرو والجازارونيا ولها مينا ورصيف ترسو عليه المراكب الصغيرة يبلغ طوله نحو مائة متر ومن ورائه دار للحاكم وهى عبارة عن بعض أود صغيرة أمامها بواك يرتفع عليها الدور الثانى . وبها قلعة صغيرة داخل سورها نحو ثمانية مساكن تتخللها الاشجار وهى واقعة شرق البلدة . تبعد عنها قليلا وبوسط القرية كنيسة صغيرة وقد شاهدنا فلوكة واحدة فى ميناها التى تبعد بمسافة ٤٥ ساعة من الاسكندرية

على سير متوسطه ١١ ميلا ونصفاً فى كل ساعة

وهذه الميناير سم عليها الجبل من جهة الجنوب قوساً منه بمحيطه فوجتان الاولى بجوار الشاطئ وهى محل مرور المراكب والثانية صغيرة وقد أكلتها أفواه الامواج ولما تركناها الى سفاح البحر حجب هذا اللسان عنا منظر القرية ولكنا شاهدنا به مغارات نقرتها يد المياه لتأوى اليها الامواج من شر الامواج

## ﴿ جزيرة زنتا ﴾

ثم اتبعنا سيرنا حتى وصلنا الى جزيرة « زنتا » وهى فى الشمال الغربى من جزيرة « موره » وتبعد عنها بمسافة ١٢ ميلا فسرنا شرقيها ولم نر منها غير هذه الجبال الشاهقة التى تكسوها الطبيعة بهذا الرداء السندسى العجيب الذي يقف عنده البصر حائراً ويرجع عنه وهو أكثر حيرة . فقطعنا طولها الذى يبلغ نحو ٢٠ ميلا فى ساعتين تقريباً وأنا فى غاية الدهشة وليعذرنى القارئ فانه أول منظر طبيعى وقع عليه بصرى من أمثاله . ووسط جبال هذه الجزيرة قمة عالية خيم عليها الضباب حتى وصلها بالسحاب الذى هو سماؤنا منذ تركنا « جريد » . وعلى منحدرات هذه الجبال أشجار الفاكهة وكروم العنب وعنبها من أجود شئ فى نوعه وله شهرة فائقة وتتصدر منها الفواكه والخضراوات الى أوروبا . ومن معادنها غاز البترول والكبريت وعدد سكان هذه الجزيرة يبلغ ٤٦ ألف نفس وهى تابعة لبلاد اليونان وكانت أولاً للانكليز فأهدتها اليها بعد استقلالها وعاصمة هذه الجزيرة هى مدينة زنت وعدد سكانها ١٨ ألف نفس

## ﴿ جزيرة كفالونيا ﴾

ثم وصلنا الى جزيرة كفالونيا فى الساعة الاولى بعد الظهر وسرنا شرقيها وهى جزيرة عظيمة يونانية يحيط بها جبال شاهقة تكسوها الطبيعة حلة خضراء ذات منظر بهيج وهى أكبر من جزيرة زنتا بمثلها تقريباً ولقد رأينا على منحدرات جبالها مزارع وغابات من أشجار الفاكهة والسرو والزيتون وترتفع من أعلى جبالها قمة تمتد الى السماء على شكل هرمى تقريباً قد أحاط بها ضباب كثيف حتى يتخيل للرائى انه دخان يخرج من فوهة بركان ( جبل النار ) وهذه الجزيرة على مسافة ثمانية أميال من شمال «زنتا» وبينها وبين رأس «بتراس» الذي هو فى الشمال الغربى من جزيرة موره ثلاثون ميلا وطولها ٢٨ ميلا وبالقرب من منتصفها ترى الجبل قد انشق الى الارض فيكون مدخلا الى واد كبير كائن أسفل منحدرات جبال تحيط به. وترى بهذا الوادى عدة بيوت على الطراز المتقدم تقرب من بعضها وأخرى بعيدة عنها تكتنفها الاشجار ومن وراء ذلك غابات من شجر الفاكهة تصعد مع منحدرات هذه الجبال الى أعلاها وبين هذى وتلك مزارع القوم قد جهزت فوق منحدر هذي الصخور وهى محدودة بفواصل من جسم الجبل تشير الى نصيب كل منها . وهي اكبر الجزائر اليونانية وعدد اهلها فوق الثمانين الفاً وأرضها خصبة الا انها مهملة وعنبها من احسن عنب الدنيا وكذلك تفاحها وهو مايسمونه بالعنب والتفاح المسكات

## ﴿ جزيرة أثاكا ﴾

وفى الساعة الثانية بعد الظهر وصلنا الى جزيرة أثاكا وطولها ١٣ ميلا وعدد أهلها

٢٠ الفاً وتبتدئ عند منتصف جزيرة كفالونيا شمالا وهما لليونان أهديتا اليها من الانكليز أيضاً مع سابقتهما ويفصلها عن بعضها قنال يسمى بقنال أثاكا عرضه ثلاثة أميال فمررنا به ورأينا ان الجزيرة الاخيرة كأنما هى جبل أشبه شئ بقبة هائلة تكسوها الاعشاب رداً أخضر نضيراً ويتخللها أشرطة غائرة فى الصخور قد فرشت بالرمال الصفراء وهى من أثر السيول وعلى هذه القبة نباتات لها زهر أبيض كعيون النرجس وكأنى بها « وهى تشرف علينا وقد ابتسم ثغرها » تحيينا بروائحها العطرية . ولقد رأينا فيها على سفح الجبل مما يقرب من البحر قريتين تبعد الواحدة عن الاخرى بنحو كيلو مترين . الاولى مكونة من ثلاثة عشر منزلا والثانية من نحو ثلاثين بيتا تحيط بها الاشجار من كل جوانبها وبينهما طاحونة هواء كائنة على المقطم وهنالك رأينا زورقا يشق عباب البحر من شاطئ الى الآخر وبه روميان يشبهان الجان ذوا هيئة وحشية كأنهما أبعد الناس عن أوروبا المتمدنة بل وربما لم يسمعا بها على قربهما منها .

ولم نزل سائرين حتى وصلنا الى أرض القارة الاوروبية من شمال بوغاز « كورنت » وهى من بلاد اليونان فوجدنا جبلا هائلا من الصخر كأنه قطع بمستو عمودى على ماء البحر يخيم عليه الضباب الكثيف وفى أعلاه فنار لطيف يرشد السفن الى بوغازى « أثاكا وكورنت » المار ذكرهما ومازلنا بجوار الشاطئ حتى بلغنا جبال البانيا وهى جبال شاهقة جداً تتصل بالتى قبلها وقد منعنا الضباب الذى أحاط بها من رؤية ما عليها من المناظر ولكنها بحكم الطبيعة لا تنقص عما سبقها فى الرونق . وبلاد البانيا (أو الارناؤود) مشهورة بخصوبة أرضها . وعدد سكانها مليون ونصف وهى تحت حكم الدولة العلية حرسها الله من سنة ١٤٦٧ م . وشهرة أهلها بالقوة والانفة أشهر من أن تذكر ولذلك

فانهم مشهورون بعمل الاسلحة على اختلاف أنواعها وتنزيلهم عليها الاسلاك الفضية والذهبية وما شاكلها. وفى جنوبها الغربى مدينة بريفيزا وقد مررنا بها على بعد خمسة عشر ميلا منها وهى التى حصر الاتراك بخليجها دونمة اليونان طول مدة الحرب اليونانية الاخيرة مع الدولة العلية.

## ﴿ جزيرة كورفو ﴾

وعلى تجاه نحو الثلث الاول من طول البانيا بدت جزيرة كورفو ويبعد رأسها الجنوبى عن بريفيزا بمسافة ٣٧ ميلا فمررنا شرقيها وبيننا وبين البر ثلاثة أميال تقريباً وطولها ٣١ ميلا وفى مياهها رأينا تيار ماء شديداً فرمينا مرساتنا بالقرب منها ثم سرنا حذاءها فوجدناها كسابقاتها عبارة عن سلسلة جبال عالية ذات منظر جميل . ونحو الشمال الشرقى منها انحدر الجبل واتصل بسهل يصل الى البحر قامت عليه مدينة كبيرة من حيث كثرة وضخامة البنيان ولها مينا لطيفة وفى هذه الجزيرة كثير من الاشجار المختلفة التى مرّ بك ذكرها

وبعد قليل يدخل البحر فى أرض الجزيرة حتى يتخيل للناظر أنها انتهت ولكنك لم تلبث ان تراها وقد ظهرت لك ثانيا بأحسن زينة وأبهج رونق بما اكتست من ردائها السندسى وقامت الاشجار تظلل مافيها من البنيان . وفى هذا المكان كان مصيف ملكة النمسا . وتنتهى هذه الجزيرة بلسان رفيع يدخل فى الماء وفى منتهى هذا اللسان ترى صخرة على البحر لونها بين البياض والصفرة قد نحتتها أيدى الامواج على شكل مغارة من العاج وفى مدخلها شبه أعمدة تصل الى سقفها تمثل لك بعض هياكل الفراعنة فى بلادنا. وفى الجهة الشرقية قطعة

هائلة من الصخر الابيض قد ألقيت فى البحر لتكون كعبة أو لعبة الامواج فى مدها وجزرها المستمرين عليها وفى رأسها فنار عظيم يرشد الى البحر الادرياتيكى الذى بمجرد ما دخلنا فى مياهه رأينا على بعد منا من جهة الغرب المراكب تمخر فى عباب البحر من والى أوروبا على طريق برنديزي (وهي مينا ايطالية) كانت تبعد عنا نحو ٤٠ ميلا .

وبعد قليل من سيرنا فى هذا البحر رأيت وسط مياهه من جهة البانيا قطعة من جبل لها ثلاث قمم على شكل هرمى منتظم وأكبرها مقطوع الرأس فمثلت لي اهرام الجيزة تماما لولا ان الاولى صنعت بيد الطبيعة خلال الماء والثانية بيد الصناعة وسط الصحراء.

وكأنى بجميع هذه الجبال الشاهقة والاطواد الشامخة التى مررنا عليها ماوضعتها يد الطبيعة على محيط تلك الاراضى والجزر من جهة البحر الا لتكون أوتادا تثبتها وسط عجاج الماء وتجعلها فى حصن منيع من عدوان الاعداء . فهى قلاع مكينة حصينة متينة ولكن لا كالقلاع التى تقيمها يد الانسان . فان هذه تبلى وتلك تدوم مادامت الطبيعة لا يفتك بها ساعد الامواج ولا تؤثر عليها قنابل المدافع .

## ﴿ بحر الادرياتيك ﴾

يبلغ طول البحر الادرياتيكى من الجنوب الى الشمال الغربى ٤٥٠ ميلا وهو كائن بين بلاد ايطاليا من الغرب وبين البانيا والجبل الاسود وأملاك النمسا من الشرق ويدخل اليه من بوغازه الذى تبلغ سعته ٢٠ ميلا وأكبر عرض له ١٢٠ ميلا وأقله ٨٠ ميلا وعلى الشمال الشرقى منه مدينة تريستا وهى

أكبر مينا نمساوية وامامها على الشمال الغربى مدينة فنيسيا الايطالية المشهورة بشوارعها التى هى عبارة عن ترع دخلت اليها مياه البحر وتخللت المدينة فى جميع أجزائها ونواحيها ومركبات القوم فيها الفلايك لاغيرها وبينها وبين تريستا ٦٦ ميلا . وكان سيرنا على الشاطئ الشرقى منه ولم نر فيه شيأ يستوجب الذكر لان القارة كانت بعيدة عنا

## ﴿ سراب البحر ﴾

وما قرب المساء حتى لاحت منى التفاتة الى جهة الغرب، فشاهدت امامى جبلا عظيما غربت من ورائه شمس يوم الاربعاء وعليه أشجار هائلة تقرب من بعضها وتكوّن غابة عظيمة جداً تكاد تعانق السماء بفروعها المرتفعة . فتطاولت لها الاعناق وقلت فى نفسى ياسبحان الله كلما تركت منظراً وجدت أحسن منه . وكنت أرجو لو كان لى أجنحة أطير بها حتى أسبق المركب اليها ببعض دقائق لامتع النظر بجمالها وأروى من روائها صدي هذه النفس العطشى الى مثل هذه المناظر البهيجة . وكلما اقتربنا منها ما كنت أرى الا بعدها عنى وكأنى بها وقد شاهدت منى شدة انعطافى عليها وميلى اليها وشغفى بها ورغبة اقترابى منها لما لبسته من كمال الجلال والجمال . فتمشت مشية الدلال . وقالت لن تنال . ثم نفرت نفور الغزال . وتركتنى فى حال . منشغل البال . متهيج البلبال . فصرت أردد الطرف فى جوانبها وأنا فى دهشة من بهاء رونقها راجياً الوصول اليها قبل الظلام لامتع الطرف منها على ما يتمناه ثم أحمد الله على ما أولاه من كبير نعماه وما زلنا نقفو أثرها حتى اذا ما قربنا منها أو كدنا تنسم الهواء، فانقسمت الى جملة أجزاء . وانتثرت فى الفضاء، ثم تلونت تلون الحرباء،

وانسابت ولا انسياب العنقاء. وما عتمت حتى صارت كأن لم تكن . فعلمت حينئذ انه السحاب. وقنعت من هذه الغنيمة بالاياب. ولكنى مسرور القلب مرتاح الضمير لانى عثرت فى طريقى اليها على سراب الماء. وان سبقنى غيرى بسراب الصحراء.

وما زلنا سائرين على شاطئ استريا حتى اذا قربنا من مياه تريستا بعد ظهر يوم الخميس رأينا على البر أرضاً فسيحة الجوانب بين نجود وهضاب قد خلا جوها من السحاب والضباب وكستها الاعشاب بساطاً سندسياً كأنما صيغ من زمردة خضراء على شكل جميل لايمل منه البصر وقد أقيمت عليه البلدان من شامخ البنيان بين غياض زاهرة ورياض باهرة ودوحات وجنان بها من كل فاكهة زوجان فتبارك الرحمن . وكنا أينما وجهنا نظرنا لانري سوي بساتين ومروج . بين هبوط وعروج . وغابات من الجوز والبندق والتين والزيتون تقر العيون بنضارتها وتسر القلوب بحسن بهجتها . وأول مدينة مررنا بها على هذا الشاطئ من مدن النمسا هى مدينة « فيوما » وفيها يجهز الخشب على شكل الالواح المعروفة عندنا بالورقة ووراء هذه المدينة جبال شاهقة تنمو بها غابات الاشجار الكبيرة ثم مدينة « بولا » وبها الترسانة العمومية للمراكب النمساوية ثم رافينا . وماجا . وبيران . وكلها مدن ريفية وهنالك رأينا الصيادين بفلوكاتهم يروحون ويغدون فى البحر طلباً للصيد . ويخرج كل يوم من تريستا وابوران بحريان الى أقصى هذه البلاد الريفية التى يقصدها الناس للفسحة والنزهة . وتلك الجهة مشهورة بعمل النبيذ والسردين وزيت الزيتون وتزرع بها الحبوب من قمح وشعير وأذرة . وفيما وراء هذا الريف جبال شاهقة تكسوها الطبيعة حلة خضراء فى غاية من النضارة وعلى بعد

ستة أميال من تريستا قبل الغروب شاهدت عليها قطعة من قوس قزح ألوانها زاهية باهيـة فكانت كانها منارة من بلور رفعت رأسها الى السماء وأرسلت الينا بأشعتها الملونة محمولة الينا على أشعة الشمس الذهبية لتخبرنا بقرب المزار وسلامة الوصول الى تلك الديار . وما لبثت أن انصرفت وأرسلت الينا المطر ليطهر أمامنا الطرقات ويغسل ما يقع عليه بصرنا من النباتات .

وعلى نحو خمسة أميال من تريستا بصرت بمروج من القمح يبلغ ارتفاعه قدما . ولونه بين الخضرة والصفرة فذكرنى ذلك مروج مصر فهيجت أشجانى واضطربت أفكارى وأمسيت بين لوعتين لوعـة حنينى الى ذكرى وطنى ولوعة ميلى الى رؤية منظر تريستا التى تطاولت الاعناق الى مشاهدتها ولكنى ملت الى الثانى لانه فرصة تمر مرور الرياح أما الاول فهو ثابت فى القلوب والارواح .

وماغربت الشمس حتى وصلنا الى محل يقال له سوتيل على أربع أميال من تريستا التى كان منظرها أشبه شئ بمنظر الاسكندرية من طريق البحر فرمينابه مرسانا لانه محل القورنتينا . وهو عبارة عن رأس عال يدخل فى البحر وقد فرشت أرضه ببساط من الزبرجد والزمرد . وفى صباح الجمعة نظرت فاذا هذا المكان فوق مايصف الواصفون فى جماله وجلاله . وروائه وبهائه . فأردت وصفه لمواطنى الاعزاء فتحير الجنان . وقصر البيان . وصغر اللسان . ووقف البنان عند جماله الفتان . ولولا ان يسكنه الشيطان لقلت انه جنة من الجنان . فرّت من رضوان وأتت الى هذا المكان لتكون محل غرابة الانسان على ممر الازمان

## الرسالة الثانية

### تريستا (١)

وبعد أن قضينا يوماً بالمكان الذى مرّ بك ذكره دخلنا مدينة تريستا وهى مدينة نمساوية لطيفة يبلغ عدد سكانها مع مايتبعها من الضواحى ١٧٠ الفا قامت فيها على البحر أبنية فخيمة وميناها من اكبر مين الدنيا حركة وتجارة وهى مشهورة بصناعة ورق اللعب والآلات الموسيقية والدنتيلا والشمع والحرير. وأشهر مبانيها البوسطة ويقال أنها أجمل بوسطة فى العالم بأسره وهى بناء شامخ جداً مكوّن من ست طبقات سقف كل طبقة من البلور حتى ان الذي فى احداها يري كل موجود فوقه من الطبقات العليا أو تحته من السفلى. وفيها مصلحة التلغراف وجميع مستخدميها من الجنس اللطيف وهذه المدينة مشهورة أيضاً بسراى ميرامارا التى على البحر غربى المدينة وهى سراى الدوق مكسيمليان الاخ الاكبر لامبراطور النمسا الحالى التى أبحر منها الى بلاد المكسيك حيث عين ملكا عليها وقتله بها أهلوها سنة ١٨٦٧ فى ثورتهم ضد حكومتها فاستغاث فى أثنائها بكثير من الدول ومن جملتهم مصر فأرسلوا اليه بعض الجند ومصر أرسلت عدة أورط بين مصرية وسودانية نالوا فى حربهم فيها شهرة عظيمة ولكن كان وصولهم اليها بعد قتله. وهذه السراى لايسكنها الآن أحد الا من بها من الخدم والحشم وهى من الآثار التاريخية المحترمة

(١) كانت هذه المدينة تابعة للرومانيين ثم استولى عليها الفينيقيون وآل أمرها الي حكومة النمسا سنة ١٥٨٢ م وكان عدد سكانها فى منتصف القرن الثامن عشر ٦٠٠٠ نفس ومن ثم جعلت ميناها حرة للتجارة فأخذت فى عمرانها واهميتها حتى وصلت الي ماهي عليه الآن على أنها آخذة علي الدوام فى التقدم بسرعة محسوسة لاهمية وضعها الجغرافى.

فى النمسا ويقصدها النمساويون لزيارتها أحياناً . ولما كانت تذكارا محزنا لم يستطع الامبراطور الحالى ان يذهب الي تريستا أبدا بعد سفر أخيه الآن .

وأبنية هذه المدينة شاهقة يحيط بها الجبل من غربها وشمالها وشرقها والبحر من جنوبها وقد أقيمت على البحر المساكن التجارية الكبيرة وبينها مساكن القوم وعلى الجبل منازلهم الخلوية ومنتزهاتهم على شكل جميل ويظهر لى ان اكبر محل بهذه المدينة هى تلك العمارة الهائلة التى بنتها شركة الملاحة المسماة « اللويد » وهى شركة الوابورات النمساوية وبها محل ادارتها وان كانت لاتزيد كثيرا عن ماجاورها من الابنية التى على البحر .

والطبقة السفلى من أهل هذه المدينة تلوح عليهم سيما البهيمية والوحشية وليس فيهم من الدعة مايجعلك تطمئن اليهم مع ماهم عليه من هدو اخلاقهم وسكونهم الطبيعى .

وكان وصولنا الى تريستا مع وابور المحروسة المخصص لركوب الجناب العالى الخديوى الذي بمجرد ماوصل الى مياهها صدر أمر الحكومة النمساوية لمحافظ هذه المدينة بعدم الحجر الصحى على حضرته الفخيمة هو ومن بمعيته السنية وأظن أن خرق سياج المعاهدات الدولية مع شخص جنابه العالى يسمح لك بتصور مالسدته العلية من سامى المقام وعظيم الاحترام لدى حكومة النمسا ولكن جنابه الرفيع أبى الاان يمضى مدة الحجر القانونية التى كان فى أثنائها جميع مستخدمى هذا الثغر ورفاصاتها وفلائكها فى خدمة ركابه العالى منتظرة أدنى اشارة منه ليقوموا بتأديتها . ولما انتهت هذه المدة ما كنت ترى الا رؤساء المدينة ومظاهر القوم وقناصل الدول وفى مقدمتهم قنصل الدولة العلية يغدون ويروحون بملابسهم الرسمية الى مركبه الفاخر لتأدية واجب السلام والاحترام وفى المساء

قصد حفظه الله السفر الى فينا فنزل الى البر وهنالك كنت ترى أهل المدينة كلها وقد هرعوا الى جانبي الطريق حتى محطة السكة الحديدية والبوليس قد وقف على جانبيه اجلالا لمقامه السامى واكابر القوم قد تسابقوا الى لثم يده الشريفة بين مسلمين ومودعين .

## ﴿ الطريق من تريستا الى فينا ﴾

ركبنا اكسبريس السكة الحديدية من تريستا فى الساعة الثامنة وربع مساء متجهين الى الشمال الغربى قليلا ثم الى الشرق حتى وصلنا فينا الساعة العاشرة ونصف صباحا ومسافة مابينهما ٥٥٠ كيلو مترا .

وكانت الليلة مقمرة بل من ليالى القمر بمصر فى مبدأ الثلث الثانى من الشهر العربى فسار بنا القطار صاعداً بميل خفيف على الجبل مما يحاذي البحر وهنالك تري المحاجر التى يستخرجون منها الحجر المشهور عندنا باسم «حجر تريستا» وكان الجو معتدلا والهواء عليلا وقد وقف بنا الوابور على عشر محطات فى طريقه وكان فى سيره بين ارتفاع على جبل وانحدار الى واد وعلى جانبي الطريق فى كل هذه المسافة غابات كثيفة غاية فى الانتظام ترتفع الاشجار عليها مع انحدار الجبل من أسفله الى عاليه وكأنها قطعت من أعلاها بمستو مائل مواز لسطحه الذى غرست فوقه . وقد فرشته يد الطبيعة طوراً والصناعة احياناً تحت ظل هذه الاشجار بساطاً اخضر مما يجعل منظره يستهوى الافئدة ويأخذ بالابصار . وماذا عسانى أصف لك منظراً قد جمع كل قوى احساسى الى حاسة بصرى وجذبها اليه بحسن روائه وبديع رونقه حتى اذا مانظرت اليه ارتسمت صورته فى خيالى وغطت على كل مابه من الصور الكامنة فيه حتى

كأنى انتقلت بجسمى وروحى الى عالم غير الذى ربيت فى كنفه تاركا بهذا محفوظاتى ومعلوماتى القديمة . فكنت ترانى لاأستطيع أرى غير منظره الفاخر . ولا أسمع الاحديثه الباهر . ولا أشم عدا عرفه العاطر . ولاأحس بغير جماله الزاهر . ولاأذوق سوي معناه الفاخر . وكيف وهو منظر جمع بين نزهة القوم وثروتهم فلم يصيغوه عبثاً لمجرد الزينة التى لم تلبث ان تذهب نضرتها وليس من ينتفع بثمرتها . وكأنى به هو ذلك الفرأ الذى يقولون عنه ان كل الصيد فى جوفه . فاذا قطع القوم ماطاب من هذه الغابات بالتدريج غرسوا محله شيئا منه حتى اذا ماانتهوا الى الصف الاخير رجعوا الى الاول وقد بدا صلاحه وحان وقت الانتفاع به وهكذا فتكون من ذلك سلسلة ثروتهم التى تماسكت حلقاتها ببعضها حتى اذا أتوا على واحدة منها بدأوا فى الاخرى ولانهاية . فهى لهم نعيم مقيم وخير مستديم . وقد كانت هذه الغابات من زمن قديم طبيعية فقطعها الفينيقيون واستعملوا أخشابها فى صناعاتهم وتجارتهم فلما انتهوا منها أصبحت أرضها بلقعاً لايسكنها وحش ولا بوم . حتى اذا أخذت أوربا بأطراف المدنية وكانت تلك الجهة من نصيب حكومة النمسا اهتمت بها كل الاهتمام الى أن صيرتها على ماهى عليه الآن ولم تقف عند هذا الحد بل تراها كل سنة تصرف الملايين من الجنيهات على حفظها وترقيتها حتى وضعت بقانونها عقابا صارماً لكل من يقطع شجرة لغير أوان قطعها وهكذا شأن الحكومات الساهرة على مصلحة الاهالى التى هى عين مصلحتها .

## ﴿ السمرنج ﴾

ومازال القطار يصعدبنا من جبل الى آخر صعوداً محسوساً قاصداً مدينة

فينا حتى وصل الى محطة « مدتس نوش لاك » وهى على بعد ساعتين ونصف من فينا وهى مبدأ السمرنج . وهنالك رأينا جبالا شاهقة جداً كان لابد من قطعها للوصول الى عاصمة البلاد فوجدنا الوابور يصعد أحياناً يميناً ثم يعرج شمالا ثم يرسم قوساً ثم يصعد الى قمة جبل فترى أمامك جبلا آخر وقد حال بينك وبينه واد عميق ومنخفض سحيق ترى عليه تلك الأشجار الضخمة كالاعشاب أو الحشائش الصغيرة فيهبط القطار الى هذا الوادى حتى اذا ما وصلت الي أسفله ورفعت رأسك الي القمة التى كنت عليها لوقتك تكاد لا تصدق انك كنت عليها لولا ماتراه من قطار آخر قد مر بك صاعداً اليها. ومازلنا على هذا المنوال بين هبوط وصعود هائلين (كأنا فى بورصة الاسكندرية) الي أن وصلنا الي قمة الجبل الاعلى وبه محطة السمرنج وحولها مساكن لمصيف القوم ولوكندات وغيرها وهنالك استلفت نظري صاحب لى نمساوي الى ثلوج على قمة ليست ببعيدة عنا فنظرت فرأيت شيئاً أبيض كانه قطعة هائلة من لبن تجمد قد فرش على سطح هذه القمة وفوقه أشبه شئ بدخان كثيف ضارب الى البياض فلاحظت انما هو طبقة من هذه الكتلة الثلجية أرادت ان تحللها درجة حرارة النهار الشديدة فاحتاطت بها قوة البرودة هذه تريد تجميدها وتلك تود ان تذيبها وكانت القوتان متكافئتين فوقفت بينهما موقف الحيران الا انها وفقت بين رغبتيهما وأقامت فى نقطة الوسط بينهما .

ثم أخذ القطار فى الهبوط بسرعة عظيمة فتراه ينحدر آونة يميناً وأخري شمالا وطوراً يرسم قوساً على نفسه وقد قطع الجبل فى طريقه بحال منتظمة وعليه أيضاً شريط للقطار الصاعد وهو يسير بك أحياناً على قناطر قامت على قناطر أخرى لتصل ما بين جبلين وأحياناً تراه يمرّ بك فى نفق بعد آخر قد

نقبت فى بطن الجبل وهكذا مما يدهش العقل ويذهل الفكر حتى وصل الى محطة بيرنج وهى مبدأ الطريق الى السمرنج من العاصمة. وهذا الخط الحديدى صنع من مدة خمسين سنة وهو أول ماصنع فى أوروبا على شكله وان شئت فقل فى العالم كله .

وبينما كنا نسير على طول طريقنا هذا كنا نرى على يميننا وشمالنا فوريقات الاخشاب والحديد منتشرة وسط المزارع التى تتخللها جداول مياه منتظمة يختلف عرضها بين أربعة وسبعة أمتار . وهذه الجداول تخرج من الجبل تارة من عيون محاذية للارض وأخري تنزل منه على شكل شلالات وتياراتها تختلف فى الصيف بين الشدة والضعف وقد وضع القوم فيها حواجز من الخشب من شاطئ الى آخر ليحفظوا بها موازنة المياه التى يرفعونها خلفها حسب ماتقتضيه حالة رى أراضيهم .

ولما اقتربنا من العاصمة كثرت فوريقات الطوب المعد للبناء فيها وهو على شكل الطوب الافرنكى عندنا . وقبل وصولنا الى فينا بربع ساعة استلفت صاحبى النمساوي نظرى الى جبل بجوارنا وقد أقيم عليه أثر من الحجر قائلا هذا هو الحد الذى وصلت اليه فتوحات الاسلام .

## ﴿ نبذة تاريخية ﴾

ولايمكننى أن أصف لك مقدار مااعترانى من الدهشة عند ماشاهدت ذلك الاثر الذى اقيم على أبواب « فينا » تذكاراً لمحاصرة الاتراك لهذه المدينة وكيف لاأعجب وقد دلنى هذا الاثر على ان الاتراك حاربوا هذه البلاد سنة ١٥٢٩ ميلادية حتى وصل جيشهم الظافر الى جدران هذه المدينة تحت قيادة

السلطان سليمان الثانى . وكان عدده مائة وعشرون ألف جندى ثم تركها بعدان ضايقها مضايقة كادت تقضى على حياتها . وفى سنة ١٦٧١ قامت حرب أخري بين تركيا ومملكة النمسا فقتكت الاتراك بجيوشها الكثيفة وهزموهم شر هزيمة ومزقوهم كل ممزق ومازالوا سائرين وراءهم حتى وصلوا الى عاصمة الديار وضربوا عليها الحصار لعدم قدرتهم الدخول اليها لمنعتها الطبيعية لانها يحيط بها من الشمال والشرق نهر الطونه (الدانوب) ومن الجنوب والغرب جبال شاهقة وكان الجيش التركى فى هذه المرة تحت قيادة ذلك البطل الشجاع قره مصطفى الذى بعد ان أتى من انتصاراته وظفره بما أدهش العالم بأسره دس أعداؤه عليه عند السلطان فأمر به فقطع رأسه ومن ثم اجتمعت جيوش حكومات المجر وبولونيا والنمسا والبافيير وفرنكونى وحاربوا الجيش التركى وقد ضعفت إرادته وعزيمته حتى ألزموه برفع الحصار والرجوع الى حيث أتى .

وهذا المكان يسمى عند النمساويين ( كالمبير ) وهو الآن من منتزهاتهم بل من آثار بلادهم التى يقصدونها لزيارتها بواسطة سكة حديد تصعد الى سطح الجبل على قضبان وعجلات مضرسة تمسك القطار من الانزلاق الى الوراء .

## ﴿ الوصول الى محطة فينا ﴾

وما وصلنا الى محطة فينا حتى رأينا المحطة غاصة بالناس وأكثرهم من الذين علموا بمقدم سمو أميرنا المحبوب وبعد أن أدوا واجب السلام على جنابه العالى ركبنا عرباتنا الى حيث نزلنا وتصادف انه كان يوم احتفال بوضع أساس كنيسة تذكارا للبرنس مكسيميليان ملك المكسيك الذي سبق الكلام عليه

حتى اذا ماوصلنا الى مكان الرنج وكان قريباً منا وجدنا امبراطور النمسا قد مر بين هذه الجموع العديدة الى حيث مقر الاحتفال . وقد جمع هذا الميدان خلقا لايحصى عددهم واصطفت على جانبيه الناس من جميع الطبقات وأمامهم صفوف الجنود على اختلاف مراتبهم وأسلحتهم وملابسهم فلما مر الجناب العالى بمركبته من بينهم انتقلوا من احتفالهم بملكهم الى الاحتفاء بضيفهم العزيز فكان حفظه الله أينما سارت مركبته محل اجلال القوم واحترامهم ولا شك فانهم أكثر الناس معرفة بشمائله العالية وعلما بجمال خلاله وكمال خصاله وكبير نبله وعظيم فضله وواسع علمه وعقله وأكبرهم أعجابا بسمو مقاصده وشريف رغباته . لذلك ترى احترامهم لمقامه السامى مشفوعا بمحبتهم الصادقة لذاته العلية . حتى ان حضرته الفخيمة كانت مدة اقامتها بهذه العاصمة مكان حفاوة واعظام زائريه من سفراء الدول ووزراء الحكومة وأكابر القوم فكان حفظه الله طول مدته بها بين زائر ومزور متعنا الله تعالى بحياته وبلغنا به آمالنا التى وضعناها بين يديه الشريفتين .

ولقد شاهدت وقت الانصراف من هذا الاحتفال شيئاً جديراً بالذكر وهو مرور فرق العساكر المتقاعدة كل فرقة بموسيقاها وضباطها وملابسها الرسمية ونياشينها هذا يمشى على ساق من خشب وذلك يحرك يدا صناعية وآخر قد تهشم وجهه من أثر السيوف أو غيرها من مهلكات الحرب وهم بين كهول قد أضناهم الكبر ورجال قد فقدوا بعض الاعضاء يسيرون بانتظام تام على نغمة الموسيقى وهذه الفرق لاعلاقة لها بالحكومة الآن ولكنى أقول لك ما كان من أمرهم وقت خدمتهم . الامر الذي حفظوا به لانفسهم عيشة راضية وراحة مستديمة : كان لكل فرقة منهم صندوق توفير مدة اشتغالهم

بالخدمة وكان كل واحد منهم يدفع فى الشهر جانباً من مرتبه الضعيف فكبر هذا المبلغ بحسن استعماله فى التجارة حتى اذا تقاعد الجندي رتب له منه شى يقوم بحياته ويستمر بصفة معاش لاولاده القصر وهذا أكبر دليل لك على ماللقوم من حسن النظر فى المستقبل على مافيه من حفظ ماء الوجه الذى هو اكبر فضيلة من فضائل الشهامة والمروءة

## ﴿ مدينة فينا وستة أيام بها ﴾

تنقسم هذه المدينة الى قسمين المدينة القديمة والابنية الحديثة التى توجد حول الميدان المسمي بالرنج ( الدائره ) وكان هذا المكان للحكومة وكان به قشلاقاتها وبعض مبانيها من قلاع وحصون وغيرها فلما ضاقت المدينة بأهلها هدمت الحكومة هذه المبانى وخططتها أحسن تخطيط وباعتها الى سراة الناس بعد ان حجزت منها مايلزمها واشترطت على المشترين البناء على أحسن شكل واكبر أبهة وأعفتهم فى نظير ذلك من عوائد أملاكها نحو عشر سنين وماجمعته من أثمان هذه الاراضى ابتنت به محلاتها الفخيمة مثل سراى الملك الرسمية والبرلمان والانتكخانات ومدرسة الطب والمدارس العالية والاوبرا وسراى البلدية وغيرها .

وجميع المبانى فى هذه الجهة على شكل واحد تقريباً ونظام واحد ولون واحد فى الغالب وارتفاع واحد حتى يكاد يتخيل للانسان أن المهندس الذى وضع رسومها واحد . فأينما نظرت لاترى الا بنياناً باذخاً مشيداً بين خمس أو ست طبقات وكثيراً ماترى المنزل الواحد أو بعبارة أخرى العمارة الواحدة على شارعين ان لم تكن على أربعة . وشبابيكها كبيرة وكل منها من لوح زجاج

واحد ووراءها ستارة من القماش السميك وعليها من الخارج أخري من الخشب اذا فردتها وجدتها على شكل الشبابيك الشمسية عندنا والدور الارضى منها غالباً من الحجر والباقية من الطوب .

أما الابنية القديمة فهى بين دورين وأربعة فقط وطبقاتها واطية وشبابيكها صغيرة لاتزيد عن متر ونصف طولا ومتر عرضاً وهي مع ذلك جميلة المنظر وان كانت بسيطة العمل . وترى المنازل التى فيها العمارة قد أحاطت بها سقالة طويلة عريضة محكمة الوضع ولها حاجز على طولها ارتفاعه نحو متر ونصف من ألواح الخشب حتى لايمكن لاحد من الشغالين اذا زلقت رجله أن يذهب ضحية اهمال أو شح القائمين بعملية البناء كما يحصل كثيراً فى بلادنا ولايمكن ان ينال السائر تحتها شئ منها يشج رأسه أويخمد أنفاسه أو يلوث ملبوسه . أما شوارعها فليست بالضيقة ويسير فى كثير منها الترمواي الكهربائى وسط المدينة لاباسلاك ممدودة فوق طريقه كالتى بمصر والاسكندرية ولكن بواسطة تيار كهربائى كامن فى الارض بين الاشرطة التى يمر عليها ولايخفى مافى ذلك من عدم الخطر أو على الاقل من عدم المضايقة . والترامواي الذى تجره الخيل هو أشبه شئ بعربات الاومنيبوس عندنا لولا انه أحسن وأمتن وأنظف ويسير على قضبان من حديد . والنور الكهربائى كثير فى المدينة ونور الغاز يكاد أن يكون عمومياً فى جميع الشوارع والمساكن .

وتقدم المدينة فى هذه المدنية انما حصل بسرعة هائلة خصوصاً فى حكم أمبراطورها الحالى فرنسوا جوزيف فانه أولا أصدر أمراً عالياً سنة ١٨٥٧ بقطع غابات الاشجار التى كانت تحيط بها وتضايقها وفى سنة ١٨٦١ أمر بالابنية الحديثة على الرنج كما مر بك ذكره وفى سنة ١٨٧٠ أمر بحفر ترعة من

جبال الالب الى المدينة توصل اليها الماء النقى على طول محيطها وطول هذه الترعة ١٣ ميلا ومياهها تمر فى طريقها تحت كثير من الانفاق والقناطر والكبارى التى أقيمت عليها وضفافها من أحسن منتزهات القوم . ثم أمر بعمل سكة حديد تحيط بالمدينة أيضا فترى قطاراتها تسير بك تحت الارض أحياناً ثم تصعد الى سطحها ثم ترتفع الى مايوازي الطبقة الثالثة من المساكن على كبار أقيمت فوق الارض لمرور الناس من تحتها ويقوم عليها كل دقيقتين وابوران يقطع أحدهما محيطها من جهة اليمين والآخر من الجهة المقابلة لها .

وفى هذه المدينة نيف وأربعون الف بيت وعدد أهلها بضواحيها يبلغ مليونين تقريبا وقد اشتهر أهلها برقة أخلاقهم ووداعتهم وطيبة قلوبهم كما اشتهروا بعلومهم الرياضية والموسيقية والطبية وغيرها وكلما مررت بجهة من جهاتها ترى تماثيل قد أقيمت تذكارا للنابغين من رجالها مثل سمير وهشون واشمتس ورال وغيرهم فاذا حققت نظرك فى هذه الآثار رأيت عليها سيما الوقار والاحترام والاعتبار ولاحظت وداعة فى أخلاقها مع تفكر فى عمل من غير ان تشاهد منهم حركة أو تسمع منهم كلمة . ويوجد فى هذه المدينة معامل كثيرة للخشب والحديد والجلود والادوات المعدنية والاقمشة الصوفية والقطنية وفوريقات لاستخراج السكر من البنجر وغير ذلك .

ومن أجمل بل من أجل ماشاهدت بها معامل قد أقيمت على شاطئ الدانوب يتلو بعضها بعضاً ويديرها تيار مائه ليس الا . وكل منها عبارة عن مركبين من الخشب وضعتا فى النهر قبالة بعضهما على بعد يسير من الشاطئ وقد بعدت أحداهما عن الآخرى بقدر دولاب من الخشب يشبه رفاص وابورات البحر ومر بوسط هذا الدولاب محور ثبت طرفه على المركب التى من جهة النهر وطرفه الثانى

على التى من جهة الشاطئ وفى هذا الطرف ترس تسلط على ستة اتراس يدير بعضها الآخر والاخير منها مسلط على طارة عليها سير يدير طارة فيما يقابلها على الشاطئ وهذه تحرك اتراساً تدير حجارة لطحين الغلال. فينزلق تيار الماء بين المركبين فيدور الدولاب فتحدث الحركة فى جميع الاتراس والحجارة فيطحن القوم الى ماشاء الله وهم لم يخسروا فحماً ولا شحماً من غير ماتعب ولا نصب الا اذا كلفوا خاطرهم ووضعوا الحب فى مكان ليأخذوه دقيقاً من مكان آخر ويا ليت حكومتنا السنية تسمح للاهالى بمثل هذا العمل على نيلنا الذى كثرت بركته وقلت فائدته .

وللقوم تمسك وان شئت فقل تعصب فى لغتهم فاينما سرت أو قعدت لاترى غير اللغة النمساوية حتى تخيل لى انه لاأثر البتة لما كنت اسمعه من ان اللغة الفرنساوية كثيرة الانتشار فى جميع المسكونة واظن انه لالزوم للقول بان تعليمهم فى مدارسهم مبنى على لغتهم ولا يخفاك ان هذا أول باعث على تقدم القوم فى المعارف وهذه هى الدرجة الاولى التى يصعدون بها اليها الان الطفل يذهب الى المدرسة وقد عرف من لغته مايسمح له بالتفاهم بواسطته فاذا القى عليه الدرس فانه لاينظر منه الا الى المعانى التى ترتسم فى عالم خياله حتى اذا كثرت عنده مادتها تربت فيه ملكة ولا حد لها تمكنه من التصرف بفكره وعقله فى طريق معلوماته ومن ذلك ترى عندهم هذا التقدم المستمر فى الاختراعات التى يتلو بعضها الآخر منتقلين بالطبع من حسن الى أحسن وقد انتفعوا بها ونفعوا العالم كله بفوائدها التى لاتحصى ولا تحصر .

أما عندنا فترى الطفل اذا ذهب الى المدرسة وجد الدروس باللغة الاجنبية فلا يفهم منها شيئاً وهى اما تملى عليه فيكتبها فى كراسة أو يدرسها من كتاب وضع بين يديه فاذا حدد له المعلم درسه فيها أمضى هذا المسكين يومه وليلته

فى الاشتغال بحل رموز الفاظه كلها أوبعضها بواسطة القاموس واذا ساعدته المقادير وكانت حافظته قوية حفظ منه مبانيه كلها أوبعضها ولم تلبث كثيراً فى ذهنه حتى تنهدم أركانها وتصبح أثراً هشيماتذروه الرياح التى تتولدمن ضغط درس ثان عليه ولا شك انه باستمراره على هذه الخطة تضعف عنده قوة الزكاء وتحدد قوى ملكاته فلا يقع نظره الاّ على مابين يديه وقليلا اذا بصر به ولعل فى ذلك حكمة لايعلمها الا حكومتنا السنية .

## ﴿ رياضة فى إحدي منتزهات فينا ﴾

كنت أستيقظ من نومى فى الساعة السادسة صباحاً فأرى فى الشوارع نساء ورجالا وأطفالا بين غادين ورائحين بنشاط فى مشيتهم ولكن مع الرزانة والوقار فحركاتهم سريعة الاانهاهادية والكل سائر فى طريقه لايستوقفه عارض ولا يستميل نظره شئ وليس أمامه الاالسبيل الى عمله حتى اذاماوافت الساعة العاشرة وجدت الطرقات تقريباً وقد خلت من الناس الا من كانت له حاجة يخرج لقضائها وأغلبهم من الكهول أو الشيالين فترى هذا قد حمل شيئاً على كتفه وذاك يجر عربة صغيرة بيده وقد وضع عليها حملهالثقيل وذلك يجرها له كلبه أو هما معا .

ولقد ذهبت مساء يوم الى مكان يقال له البراتا وهو يبعد عن وسط المدينة بنصف ساعة تقريباً وهومعد لفسحة القوم كالجزيرة مثلابالقاهرة أو ضفاف المحمودية بالاسكندرية على أن لاوجه للشبه وهنالك رأيت الطرقات غاصة بالعربات والناس زرافات ووحداناً مشاة أو ركباناً بين غادين ورائحين وقد ملأوا الطرقات والمحلات العمومية التى على جانبيها هذا به تشخيص

وذلك موسيقى وآخر غيرها من نوع ثان وقد غصت كلها بجماهير المتنزهين من نساء ورجال وبنين وبنات ومشروبهم العمومى هو صنف البيره وهى عندهم كالقهوة عندنا وفى جانب هذا المكان أقيمت مدينة صغيرة على شكل ومبانى مدينة فينسيا ( البندقية ) الايطالية

## ﴿ فينسيا فى فينا ﴾

لقد تفنن القوم فى كل شئ مفيد حتى فى منتزهاتهم فهى كلها أشبه بمتاحف تاريخية أوجغرافية تشخص لك ما كان وما هو كائن بشكل لطيف يرتاح له الانسان ويتروح به الفكر ولاتسأم منه النفس . ولقد أقاموا فى شمال البراتا شبه مدينة صغيرة على شكل مدينة فينسيا المشهورة بجلال وضعها وجمال منظرها من حيث شكل البنيان وتخللها بالترع التى انما هى بدل الطرق والشوارع فيها فتري بها الابنية لاتزيد عن طبقتين أوثلاث على الاكثر وقد جمعت بين البساطة واتقان الصناعة وجمال المنظر وحسن الشكل وكل هذه المبانى عبارة عن لوكندات وتياترات وقهاو أوبيرات مختلفة الاشكال والاوضاع هذه بها موسيقى وتلك بها أخري على شكل مخالف للاولى ونغماتها والحانها متغايرة نوعاً وموضوعاً حتى يرتاح كل الى مايميل اليه ذوقه وسمعه . والتياترات أيضاً متباينة فهذا للتمثيل وذلك للتشخيص بالغناء ( أوبرا ) وغيره للعب الحيوانات بين أسدضاريه ونمور كاسره ودباب وكلاب وضباع وسباع من جميع الانواع . وكل هذه المحال وقد جمعت بين كمال . وجمال . يفدها الجم من الرجال . وربات العقال . والاطفال وقت خلوهم من الاشغال بما لا يمكن ان أصفه لك بحال من الاحوال . وقد وضع هذا المكان فى بستان

عظيم وكله ينار بالكهرباء حتى انك ترى فى كل ورقة من شجره (تقريبا) مصباحا كهربائيا وفى وسط المكان ميدانان بوسط أكبرهما كشك تصدح به موسيقى الحكومة وقد وضع فوقه مصباح كهربائى عظيم جداً يجعل الليل نهاراً. والظلمات أنواراً. وقد أحاطت بهما القهاوي والنوادى والمطاعم على اختلاف أشكالها. ومن ألطف مارأيت منها لوكندة ليس فيها من الخدم أو العمال سوى حيطانها التى داخل مكانها. وهى عبارة عن محل فسيح قامت حوله دواليب كثيرة مقسمة أقساماً صغيرة وفى كل قسم منها ثقب كتب تحته اسم مافيه وثمنه فتري هذه للحلوى على اختلاف أنواعها وتلك للبسكويت على تغاير صنوفه وغيرها للحم المدبر أو الزبدة الموضوعة بين دفتين من الخبز وبجوارها دواليب أخرى وضعت فيها حنفيات وبها مشروبات مختلفة فمن أراد شيئاً منها وضع ثمنها فى فوهتها من غير زيادة أو نقص (كما يفعل فى الآلة التى تزن الناس فى مصر) فما يشعر الا وقد القى هذا الشئ ملفوفا فى ورقة نظيفة الى درج أسفل دولابه أو نزل المشروب على قدر معلوم من نفسه فى كوبات وضعت تحته.

وبالجملة فانى شاهدت بهذا المكان مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مثلى ممن لم يسبق له التوجه الى أوروبا.

ثم شاهدت بهذا البستان عجلة كبيرة جدا من الحديد قطرها أربعة وسبعون مترا وقد ارتفعت عن الارض بنحو عشرة أمتار عليها شبه تونس الساقية عندنا وقد تثبت فيه شبه أود طول الواحدة ثلاثة أمتار ونصف فى عرض أكثر من مترين وارتفاع مثلهما وقد أحاط بها قضبان الحديد ومن ورائها شبابيك من الزجاج وهى على شكل أراجيح الصناديق (مراجيح) التى تراها فى الموالد والمواسم عندنا (استغفر الله) فصعدت بها ورفيق لى

فلما انتهت بنا الى أعلاها وقفت نحو خمس دقائق فلما وقع بصرى على تلك المصابيح الكهربائية التى كانت تحتها من جميع الجهات وكانما هى الكواكب ضياء ورواء رفعت بصرى الى السماء وكان الوقت صحوا فتخيل لى انى بين سمائين لولا إن هذه بها قمر واحد وتلك بها من الشموس والاقمار . مايدهش الابصار . ولكنى لم أتردد فى أيتهما أحسن. لانى اذا رأيت بالتى فوق النجوم وضياها . والقمر وقد جلاها . شاهدت بالثانية الكواكب وسناها. والشموس وحلاها . والبدور وصفاها . والجمال وقد كساها . والكمال وقد حلاّها . والنفوس وقد لباها شقاؤها أو تقواها . وقد أفلح من زكاها .

## ﴿ الموسيقى والتياترات والتمثيل بفينا ﴾

لولا ان الانسان كلما وجد كمالا أوروبيا وحكم عليه بأنه منتهى حده فى بابه لم يلبث ان يرى أكمل منه لكثرة اشتغال الناس فيها بترقية المدنية والحضارة وعدم رغبتهم فى الوقوف عند أي حد يصلون اليه منها لحكم بضرورة وقوفهم عند هذا الحد الكمالى ولكنى لاأشك فى ترقيهم أكثر من الحالة التى هم عليها الآن . تلك الحالة التى كل من شاهدها منا وصل به منتهى اعجابه بها الى الحكم بأنهم بلغوا غاية ماتتعلق به قدرة الانسان ولكن شدة رغبة القوم وقوة الارادة عندهم يلزمنى بان اتخذ مافات منهم للحكم على ما هو آت وأقول أنهم ماداموا على هذا الاجتهاد فلا نهاية لتقدمهم الى مايشاء أوشاء الله .

وقدوصل النمساويون فى علم الموسيقى الى حد لم يصل اليه غيرهم من مبدأ الخليقة الى الآن ولهم مدارس على غاية من النظام يدرسون بها هذا العلم أو

الفن فى خمس عشرة سنة تقريباً ولهم به اهتمام عظيم جداً ولاشك بأن ذلك أكبر دليل على مافى القوم من عظيم الذوق وقوة الاحساس ولاغرو فان من يميز بين تلك النغمات الدقيقة جداً وهى تمر على سمعه مرور البرق على العين أمكنه ان يميز المعانى التى يجد سعة من الزمن فى عرضها على فكره فضلا عن المبانى التى يشغل بها حسه با كمله وحسبك أن تتربى من ذلك فى الانسان هذه الملكات الصحيحة عدا مايكسبه من قوة الفكر وشدة الذكاء وسرعة الخاطر فاذا علمت ذلك فلا تستغرب من اهتمامهم بعلم الموسيقى هذا العلم الذى بلغ مبلغاً عظيما عند العرب وأهملناه نحن كل الاهمال حتى صار الاشتغال به فى نظرنا من المهن الحقيرة

وقد رأوا أن فن التمثيل وهو عبارة عن تشخيص الحوادث التاريخية حقيقية كانت أو وضعية التى انما تأمر بمعروف وتنهى عن منكر بحسن مبانيها وكمال معانيها حتى كأن المتفرج يشاهدها عياناً فتكون أقوى فى التأثير عليه لابد وأن يلحق بالموسيقى حتى اذا خلبت هذه العقول واستهوت القلوب بنغماتها وألحانها وجردت الفكر عن كل مايشغله عنها وتفرغ الذهن لها بعوامل الطرب بدأ التمثيل يشخص الحقائق المؤثرة فيعمل بالانسان مالا يعمله الوعظ والوعاظ لانه يدخل ذهنه ويرتسم فى خياله وليس به غيره فيبارح التياترو وقد تنبه من غفلته ونشط من عقاله . وتحرك من سكونه . وجد بعد كسله . وتشجع بعد جبنه . وتمسك بالفضائل . وارعوي عن الرذائل . لانه رأى بعينه . وسمع بأذنه . مصير هذه ومآل تلك

﴿ تياترو الأوبرا بفينا ﴾

لقد أسعدنى الحظ فدخلت الاوبرا بهذه العاصمة لاول مرة وقد هرع

اليها القصاد من رجال وربات حجال . حتى اذا ماأتت الساعة المحددة للعمل أغلقت أبوابها فى وجه كل من أراد الدخول اليهاولو كان بيده تذكرته التى تخول له هذا الحق كأن ذلك عقاب له على اهماله الحضور فى الوقت المضروب لكيلايشوش على الناس بصوت قدميه ويشغلهم بحركة مشيه عماهم فيه . فابتدأت جوقة الموسيقى وعددها ستون شخصاً تقريباً . هنالك افتكرت فيما يقولون عنه بالمثالث والمثانى وأضفت عليهامن عندياتى المخامس والمرابع وتصحفت قاموس فكرى فلم أجد مايمكننى به وصف مجموع تلك الالحان المنتظمة والنغمات السليمة من كل مايشوبها أو يزعج احساس سامعيها ( كمانشاهده أحياناً فى . . . ) وكيف وقد تخيل لى أن احساسى قد انقسم على نفسه أجزاء متساوية وأخذ كل موسيقى فى الجوقة نصيباً منه فلما اجتمعت أصوات آلاتهم لم يكن فى قدرة كل جزء من أجزاء هذا الاحساس أن يحفظ مجموع تلك النغمات كلهافلم يوصلها الى العقل من بابه حتى كان يحكم عليها بشئ يقربها الى فهمك وادراكك

أما مرسح التمثيل فقد بلغت كثرة المناظر فيه وتمام اتقانها . وجمال أشكالها . وكمال مايلزمها من الاستعداد وتأثيرها على النظر الى حد يأخذ بالالباب . ولا يبلغه الاعراب . وحسبك أنى مع شدة شغفى برؤيته وتعلقى بمشاهدته مع عدم معرفتى بلغة المشخصين والمشخصات التى هى من أكبر المؤثرات كنت أفرح لفرحهم . وأبكى لبكائهم . وأضحك لضحكهم . وأنام مع من يتناوم منهم . وأستيقظ اذا استيقظ وقد شاهدت من أحلامهم ماشاهدوا . وهذا أظنه يكفيك فى الحكم بنفسك على اتقانه ولست بمبالغ فيه . أما آداب القوم فى الاوبرا أثناء العمل فلا أقول لك عنها سوى انى كنت افتكر

انى موجود وحدى فى التياترو لولا ما كنت أراه من تحرك بعض الايدى بالنظارات الى عيون أربابها وهذا هو الامر الوحيد الذي يمكنني به ان أحكم على الموجودين حولى أنهم ذوو حياة وحركة وما ذلك الا لسلطان التمثيل عليهم . وبعضهم يبالغ فى السكون حتى يذهب بك الفكر الى أنه لاحركة له بالمرة وربما أخرجته فى هذا الوقت على مقتضى التعريف المنطقى من طور الانسان ولكن الى ما هو أعلى منه طبعاً . ثم هم لا يصفقون استحساناً الا بعد انتهاء كل فصل حتى لايحدثوا خللا فى سير العمل . وقد بالغوا فى احترام التياترو حتى أن من أراد فى الفترة التى بين الفصول وبعضها ان يشرب دخاناً أو قهوة أو خلافهما خرج الى خارج التياترو بالمرة . ثم انك ترى القوم وقت دخولهم وخروجهم مرة واحدة من غير غوغاء ولا شحناء فلا تكاتف ولا تزاحم ولا تخاصم والحق انما هو للاول فالاول

## ﴿ أستبداد أم استبعاد فى أوروبا ﴾

توجهت ذات ليلة الى أحد تياترات هذه العاصمة فى بستان فنيدك ( فينسيا ) فشاهدت به ألعابا جميلة جدا بين تشخيصية وجمبازية ولقد كان بين القائمين بهذه الاخيرة أربع بنات شقيقات فدهشت لسرعة خفتهن واتقان ألعابهن حتى تخيلت ان أجسامهن ليست كأجسامنا وان سرعة البرق أو الكهربائية انما أخذت عن حركاتهن لانها كانت أسرع الى العين من الخاطر الى الذهن فراقنى ذلك جداً منهن وشاقنى الى التزود منه مرة أخرى فقصدت هذا المكان فى الليلة الثانية وما هو الا ان أتى دورهن الذي كنت أنتظره بفروغ صبر حتى ظهرن بوجوه كئيبة وعيون ملؤها الدموع وأخذن

يؤدين مأموريتهن بحركات ثقيلة يلوح من خلالها التكلف والتأفف فقلت ياسبحان الله أهكذا ينقلب الحال بين طرفى نهار واحد ؟ فلما انصرفت جلست بأحد النوادي العمومية للاستراحة قليلا فوجدت رجلا يقرأ جريدة هذه الليلة وهو بين متألم ومحوقل فسأله رفيق لى له معرفة به فقال ان فى تياترو كذا أربع بنات قد ماتت أمهن التى هى سندهن الوحيد وحصنهن الفريد عصر هذا النهار فأرسلن الى مدير التياترو اعتذاراً عن عدم قدرتهن على الحضور اليه فى هذه الليلة فقصد من فوره باب المحكمة وأرسل اليهن بانذار يهددهن فيه بأنهن ان لم يحضرن حسب عهدهن الممضى منهن كن ملزمات بدفع مبلغ عظيم يفوق أجرتهن طول السنة غرامة له ولما لم يجدن من حيلة ولا وسيلة تركن بالمنزل جثة أمهن وأغلقن عليها الباب وأتين الى التياترو ليقمن بما عهد اليهن على ان ألعابه غير متوقفة عليهن لان به غيرهن بضع مئات من اللاعبين واللاعبات .

فانظر رحمنى الله واياك الى هذه القسوة البربرية والمعاملة الوحشية واحكم بفكرك هل الاستبداد والاستعباد موجودان بأواسط أفريقيا أو بين ظهرانى أوروبا التى تدعى حصر الانسانية فى أفرادها وتقول بأن الشفقة والمرحمة من عواطف المدنية التى وصلوا منها الى مالم يصل ولن يصل اليه غيرهم ! !

## ﴿ الانتقخانة فى فينا وآخر أيامى الستة بها ﴾

لم يكن عندى من الوقت للتفرج على متاحف هذه المدينة غير أربع ساعات فقسمتها على ثلاث منها وهى

## ﴿ متحف الصنائع والفنون الجميلة ﴾

هذا المكان . شاهق البنيان . مشيد الاركان . جمع بين جمال الصناعة . وكمال الصياغة . وفخامة المنظر من الخارج . وجلال الهيئة من الداخل . حتى اذا خطوت من بابه شعرت فى نفسك بواجب احترامك اياه فتمشى الى قاعاته الفخيمة وأرضها من الابنوس وكأنك بين يدي ملك من الملوك أو قيصر من القياصرة والزائرون من حلولك كأنهم حاشية لهم وقد وقف اللسان عن الكلام . حتى لا تكاد ترى غير تحرك الاقدام . بكل أدب واحتشام

فبدأت بالدور الارضى وفي كل قاعة منه خادم لها بلباس خاص وفيها دروع وزروخ ملوك البلاد التى كانوا يلبسونها فى حروبهم وهى على أشكال وأصناف فمنها غطاء للرأس فقط وله وللصدر ثم للجسم كله بمفصلات تسمح بتحريك الاعضاء بما فى ذلك قفازات (جونتى) ذات سلاميات متحركة وكل ذلك من نحاس او حديد ومنها ماهو على شكل شبكة من حديد او فضة على مثال القنلا المقفلة من صدرها مما يسمونه بالزرد . وبين هذه الدروع انواع البنادق القديمة وكلها من ذوات الشطف وكرانيفها من خشب أو فضة او عاج أو ذهب او صدف وركابات مثل ركابات العرب المعروفة بالركابات التركية بين طويل وقصير وقد صيغت من النحاس أو الحديد أو الفضة أو الذهب . ورماح على أشكال وألوان وطبول صغيرة للحرب كالتى تسمى عندنا بالنقرزان أو النقاريات . وكذلك دروع للخيل منها ماهو لبعض الاعضاء أو للجسم كله بحيث لا يظهر من الحصان الا عيناه وهى من الحديد أو النحاس . وترى بقاعات أخرى لوحات عليها صور وقائع حربية بارزة في غاية الاتقان وقد صنعت من النحاس أو الذهب أو العاج .

ثم آلات للطرب بين عود وقانون وناى وكمان وغيرها . ومن ألطف ماشاهدت بها دولاب صغير من الخشب لا يزيد ارتفاعه عن ٧٥ سنتيمترا وهو مستطيل الشكل عرض كل جهة منه ٤٥ سنتيا وفيها ٤٨ درجا اعنى ان مجموع مافي هذا الدولاب الصغير ١٩٢ درجا وهو من خشب الابنوس . وفيها اطباق كبيرة من صدفة واحدة وأخرى من العاج أو العقيق أو الذهب وعلى الجميع نقوش غريبة جدا يطول بنا شرحها وبها كاسات وأكواب وأوان وتماثيل من معادن مختلفة وصناعات متغايرة ونقوش متشاكلة أو متباينة . وهناك قاعة أخرى بها من أنواع النجارة القديمة والحديثة مايدهش العين كدواليب وموائد وكراسى وكلها من الخشب الثمين وقد نزلت عليها أسلاك الذهب والفضة والعاج والصدف باشكال توقع رائيها فى إشكال اذا ما أراد المقارنة بينها . وبين ذلك اطباق من الصينى رسمت عليها الوقائع الحربية . وغيرها من البلور المرصع بالاحجار الكريمة وبجوارها هيكل عظيم قامت عليه منارة صاغتها يد صانع متفنن وعلى المنارة تمثال من ذهب يأخذ سناه بالابصار . ثم خريطة البلاد من نحاس وقد وضعت عليها المدن والجبال والانهار بالرسم البارز وهى من الاشياء الجديرة بالذكر ثم تري بقاعة أخرى تمثالا يشبه أبا الهول المصرى ( الذي هو رأس انسان على جسم أسد رابض ) الا أن الاول رأس انسان على جسم حصان يجرى .

فاستلفت نظري هذا الشكل الغريب وهنالك قارنت بين الرمزين فرأيت ان الاول وقف بل قعد مرتكنا على ما كان لآبائه من سابق المجد وميت العظمة أما الثانى فانما يجرى الى الامام لاشئ يرده ولامانع يحول بينه وبين غرضه كما لاغاية أمامه يقف عندها لان كل غاية يسعى اليها ليست الا

عبارة عن مبدإ لغاية أخرى يجدّ فى الوصول الى نهايتها لينتقل منها الى غيرها وهكذا مرددا فى عالم بحثه واجتهاده هـذا المثل الذى انما نردده على ألسنتنا عندمانشاهد أمرا من عمل الغير يعجبنا (مامن كمال الاوعند الله أكمل منه)

وكأنى بأسلافنا الاقدمين تنبؤا بما سيؤل اليه حال بنيهم بعدهم من الدعة والسكون فرمزوا لنا بهـذا التمثال (أبى الهول) ليقول لنا ان أصغر حيوان حركه الامل . خير من أسد قعد عن العمل . وليظهروا الى المصري أنه وان قعد به كسـله حتى سبقه غيره اذا نهض بحكم طبيعته فانما ينهض بقوة الآساد التى لاتقف فى طريقها الموانع وتهرب من لقائها الصعوبات .

ومنها تماثيل من البرونز والحجر تشخص لك الانسان بكل أعضائه حتى . . . قائلة لك بلسان حالها الاحياء فى العلم . وفى قاعة أخرى وجدت بعض آثار مصرية مثل موميات وأدوات منزلية بينها مسارج كالتى عندنا (لعلك تعـرف المسرجة) وهى أداة صـغيرة من الفخار لاتزال فى كثير من احياء فلاحى بلادنا الفقراء أما المتوسطون منهم فقد تركوها الى أقبح منها وهى هذه اللمبات الصفيح التى لازجاج لهـا حيث لايخفاك ماينجم عنها من الخطر على الصحة والحياة .

أرجوك ان تقف معى قليلا عند هذا الحد الاخير وتحكم حكما عادلا علينا وعلى القوم الذين أنا بين ظهرانيهم الآن فهل ترى مادة بأي قانون تضع لك الفرق بيننا وبينهم ؟ كلا ثم كلا . وكيف وقد انتقلوا من المسارج التى بدون شك كانوا استمدوها منا وقت ما كانت الشمس مصباحهم النهاري والقمر والنجوم مصابيحهم الليلية الى الشموع ثم الى لمبات البترول على أشكال كثيرة ثم الى غاز الاستصباح ثم الى البنزين ثم الى الـكهربائية التى هى من الغرابة بمكان عظيم . وربما وصلوا

الى غيرها مما يكون أرقى منها . . فالى أى طريق هم سائرون، والى أي هاوية نحن نازلون ؟ فاللهم اهدنا صراطك المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم بهذا النشاط . والجد والاجتهاد . التى من ورائها الخير والثروة والسعادة انك على ماتشاء قدير . اللهم أرشدنا الى خيرنا ولا تكلنا فى ذلك الى أنفسنا فانها شغوفة بحب الماضى والفخر بالعظم الرميم لاهية عن الحال غير ناظرة فى المستقبل . اللهم انى وقومى وثقنا كل الوثوق بكرمك حتى وقر فى نفوسنا انا نجوع لتطعمنا وننام لتغطينا راضين ظاهراً بهذا القليل من دنيانا لننال ذلك الكثير ( الذي وعدت به المتقين ) فى آخرتنا . اللهم انا قد ذهب بنا الخبط فى ثقتنا بنعيم الدار الآخرة الى الحد الذى تخيلناه معه وهو بين أيدينا واكتفينا بذلك مهملين دار المعاش التى أمرتنا بالسعى فى مناكبها وانما خلقتنا للعمل بها لالهذا الكسل الذي اتخذناه آلة للتوكل عليك حتى ذهب البعض الى انه من ضروريات الدين وهو براء منه . اللهم انه ينفعنا كما لاينقصك أن تبث فينا حب العمل لنكون سعداء فى الدارين واعف عن تقصيرنا فى أوامرك التى ضمنت لنا باتباعها هاتين السعادتين لانه أوشك أن يكون قصوراً عن ادراكنا ثمراتهما . انك على ماتشاء قدير وبالاجابة جدير .

## ﴿ الدور الثانى ﴾

أما الدور الثانى فكل قاعاته على جوانبها لوحات من الرسوم الغريبة التى تدهش رؤيتها الناظرين لالقربها من الحقيقة ولكن لكونها هى اياها ويظهر لى أن القوم لما اجتهدوا فى علم الموسيقى الذي رقى فيهم حاسة السمع الى معرفة كل دقيقة من معانى الاصوات اشتغلوا أيضا بفن الرسم الذي به

ترقت حاسة أبصارهم الى الدرجة التى بلغتها أسماعهم حتى اذا أبصر احدهم شيئاً ووقع نظره منه على دقائقه فانه يعرف كنه مافيه من المعانى واحتوى عليه من المبانى. ثم يجيل فيه حاسة ذوقه التى تربت عنده بالتبعية للحاستين السابقتين فيقبل الحق وينبذ الباطل . وهذه الرسوم التى يتخيل لك أنها ذوات روح تشاهد حركاتك وسكناتك وتسمع صوت ضميرك الذى يخرج من بين شفتى إعجابك المضطربتين لدي مايقوم بها من هذا الجمال والجلال وقد منعها من كلامى تلك العظمة وهذه الكبرياء حتى اذا ماخطوت عنها خطوة التفتت عنى وكأن لسان حالها يقول لى « نحن نترفع أيها المصرى الكسلان عن مخاطبة مثلك فاذا سلكت سبيل الجد والاجتهاد شكرتك ورفعت منزلتك عندى فى مكان احترام يجدر بنظرى اليك والتفاتى نحوك »

ومن أعجب مارأيته بين تلك الرسوم صورة أناس من قدماء القوم وقد قطعوا رأس رجل من عنقه وكانما الدم يسيل من أوداجه والرأس ملطخة به ثم أخذها رجل منهم ووضعها فى اناء بين يدي امرأة معهم وهى هاشة باشة كأنما عثرت على ضالتها التى كانت تنشدها . فاذا عرفت ان هذه المرأة انما هى جدة هذا الجنس الذى يعبرون عنه الآن بالجنس اللطيف وقارنت بين ماأتته تلك الضارية وما وصل اليه اليوم احساس بناتها من الرفاهية التى رققت من قلوبهن وجلت من صدئها عرفت مقدار ماانتقلت اليه الاخلاق والعوائد عندهم من تلك الوحشية والهمجية والفظاعة الى هذه الرقة واللطافة والوداعة .

ثم لوحة عليها فرسان من أهل البلاد الاقدمين ( من خمسة قرون على الاكثر ) وقد أغاروا على آخرين منهم وهم يقتلون أبناءهم ويسبون نساءهم

ويستعبدون رجالهم لا يعطفهم عليهم عامل شفقة ولا مرحمة فأذكرنى ذلك مايشاكله من أحوال العرب فى الجاهلية مما يذكره الافرنج عنهم ويتهمون به الموجود منهم الآن بقلم التحامل الذي يصفهم بأقصى ماوصلت أو تصل اليه الوحشية وقد نسوا ما كان لآبائهم من هذه الفظاعة التى تثبتها آثارهم التى بين ظهرانيهم وقد عموا عنها والغرض يعمى ويصم.

ثم تري لوحة أخرى والملك فيها راكب وحده عربة مثل عربات الصندوق (الكرو) الطويلة والعربجى جالس على عريشها وقد أحاط به خيله ورجاله وأغاروا على قوم فسبوا وقتلوا وسلبوا. فانظر بالله عليك الى هذه العربة القديمة ثم انظر الى عربة الاتوموبيل التى تمشى وحدها بالكهربائية الآن فتشاهد بعينك أى تقدم وصل اليه القوم. ثم اسمح بنظرة الى هذا المحراث الذى رسمه قدماء المصريين على آثارهم مما يبعد عنا بأربعة آلاف سنة والذى نستعمله الآن وهو بعينه واحكم بما شئت لنا أو لهم وعلينا أو عليهم والسلام.

## ﴿ انتكخانة التاريخ الطبيعى ﴾

هى فى بنائها مثل الاولى رسما وشكلا يفصلها عنها بستان لطيف جداً قامت على جوانبه الاربعة فسقيات من الرخام على أشكال مختلفة وعليها تماثيل عجيبة وفى وسط البستان تمثال الامبراطورة مارى تيريزه احدى ملكات النمسا وهو فى غاية الجمال والجلال وهذه الملكة حكمت البلاد فى وسط القرن الثامن عشر بعقل وحزم مدة أربعين سنة وقد وضع أساس هذا المتحف والذى قبله فى سنة ١٨٧٢ وأول مايرى الداخل في هذه قاعات كبيرة بها

دواليب حوت جميع أصناف المعادن من أحجار مختلفة وذهب وفضة ونيكل ونحاس وماس وزمرذ وياقوت وزبرجد وفيروز ( هذه التى أمكننى معرفة أسمائها ) وهكذا من كل ماانطوى تحت باطن الارض ثم تري بغيرها أشجارا ومعادن وأوراق أشجار متحجرة ثم الاسماك والاصداف والقواقع على جميع أشكالها وأنواعها ثم هياكل حيوانات متباينة استلفت نظري منها هيكل عظيم جدا على شكل الضفدعة تماماً وجسمه أكبر من الفيل ثم هيكل حيوان بحرى هائل الخلقة وله ثمانية عشر ضلعاً كل ضلع منها بقدر ضلع الجمل خمس أو ست مرات ثم فك حيوان فى طوله أربع أسنان كل واحدة طولها نحو عشرين سنتيمترا وعرضها نحو خمسة عشر وارتفاعها خمسة أو ستة سنتمترات . وغير ذلك من الهياكل الهائلة والاسماك المتحجرة . ثم رأيت هيكل تيتل بقدر الجمل وقرونه يبلغ طول الواحد منها نحو مترين وعرض مابين شعبها نحو متر ونصف . ثم تري ملابس الامم على اختلاف أجناسهم بين شرقية وغربية وهيئة منازلهم وخصوصاً الشرقية بين صينية ويابانية وقد صيغت من الخشب والخوص . وهنالك لاحت مني التفاتة فوجدت مصحفاً شريفاً مفتوحاً بين آثار هذه الامم الشرقية فنظرت فيه فوقع بصرى على هذه الآية الكريمة ( لو أنفقت مافى الارض جميعاً ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ) فوقع في ذهنى للحال أن أول الضميرين المظهرين الاخيرين عائد الى أصحاب الآثار الشرقية وثانيهما راجع لجامعيها ( وان كان على غير مراده تعالى ) فأسفت وحوقلت واستمريت فى طريقى وقد تمثل أمامى الشرقى وكسله وان كان هذا ليس محله ولم أجد وقتاً أستثنى فيه من الشرقيين أمة اليابان لان الاستثناء حاصل من طبيعته حيث قد أبى النظام

الالهي الا أن يكون لكل قاعدة منه نصيب . وهم ولا شك نصيبه من الشرقيين. وربما يذهب بك جهلك بتقدمهم أو حسدك لهم على ماوصلوا اليه من التقدم الحقيقي أن تردفهم بالغربيين ولكنك اذا علمت ان اشتغالهم بالمدنية وسيرهم في طريقها لا يبعد عن خمس وعشرين سنة من يومك هذا فلا شك انك تجعلهم في مقدمة الجميع اذا علمت ماوصلوا اليه من التقدم السريع في هذا الزمن اليسير خصوصا اذا عملت النسبة بينهم وبين الغربيين في الزمن الذي قطعوه في طريق مدنيتهم وان كان الفضل للسابق على كل حال

ثم انتقلت الى قاعة أخرى فرأيت بها أصناف الحيوانات على اختلاف أنواعها بين سبع وفيل وزراف ونعام ونمور وقرود مختلفة الاشكال وغزلان وضباع وذئاب وتياتل وو الخ وقد بدت لك وهي مصبرة كانها ذات روح لايمنعها من الايقاع بك سوى مايلقيه عليها جلال هذا المكان من السكون الذي ألقاه عليك كما لايمنعك من الخوف والانزعاج منها سوى شدة رغبتك في التفرج عليها والوقوف على حقائقها . ثم دخلت الى قاعة فوجدت بها أشكال الطيور على اختلاف أنواعها ورأيت من ضمنها هيكل طائر اكبر من الفيل. وبجوارها قاعة أخرى بها أجناس العصافير والبلابل والعنادل وغيرها مصبرة وقد لبست حللا مختلفة بين خضراء وحمراء وبيضاء وزرقاء غاية في الجمال والرواء. ومنها مالبس حلته وقد جمعت بين جميع الالوان بشكل جميل فاستمالت الى مرآها بصري بكليته حتى أنها لم تجعل للاذن من سماع أصواتها وأغانيها نصيبا . وبعدها قاعة فيها هيا كل حيوانات بحرية وفيها هيكل يبلغ طوله خمسة وعشرين مترا ورأسه اكبر من رأس الفيل وفي ظهره تسع وخمسون فقرة حجمها على نسبة طولها . وبالجملة فهذا المتحف قد حوى كل نوع مما في باطن

الارض وما هو على ظهرها من خلق الله تعالى بين حيوان ونبات ومعدن مما لايسع الكاتب حصره فى مجلدات ضخمة .

## ﴿ الانتكخانة التجارية ﴾

هذا المكان عبارة عن معرض لكثير من أصناف الصناعات الشرقية والغربية وعلى الاخص الاولى منها . فترى به الصياغة المصرية والصناعة اليابانية والصينية والهندية والشامية والتركية والمغربية من حلى وحلل وأوان مختلفة جعلت لتكون نموذجا يدرس عليه أهل الصناعات من أبناء هذه البلاد . فهى أستاذ لهم اذا أرادوا فيأخذون عنها مايدخلونه فى صناعاتهم ويزيدون عليها مايشاؤن مما يسمح لهم به جدهم وتفننهم اللذان لانهاية لهما .

وأغرب ماشاهدت بها قاعة أثرية تمثل لك ديانة البوذيين من الهنود والصينيين وفي صدرها هيكل متقن الصنع فى أعلاه تمثال بوذا ( اله السواد الاعظم من الهنود ) وفي يده قضيب وعلى رأسه تاج وقد تربع على قاعدة مربعة . وكل ذلك من نحاس أصفر وحوله أوان بها أشجار وأزهار وبجانبيه مما يلى القاعدة التى يجلس عليها تمثالان صغيران ( ولداه أو وزيراه ) وأمامه مما يلى رجليه تمثال آخر وكأنه وقف بين يديه لتنفيذ أوامره . وحول الجميع مباخر وزهريات وشمعدانات على هيئة شجرة تنتهى فروعها الى الشموع وهى من البرونز ومن غريب الصناعة بمكان . أما المباخر والزهريات فبعضها من البرونز وبعضها من الصينى وهى من أفخر مايرى الراؤن . وأرض القاعة مفروشة من الحصير الصينى وقد وضع على طول السقف وعرضه مثال طائر هائل الخلقة صنع من الخشب على شكل خاص به لاأدرى ان كانت صورته خرافية

أو لها حقيقة في عالم طيورهم . ولقد رأيت بهذا المتحف سريرا صينيا غاية في حسن الصناعة وهو عبارة عن أودة صغيرة من الخشب مربعة الشكل طول كل ضلع منها ثلاثة أمتار وفى مدخلها كرسيان أحدهما بذات اليمين والآخر بذات الشمال ( على شبه المكاسل التى على أبواب المساجد ) . يليهما محل الفراش وقد ضربت على الجميع قبة من أحسن ما يمكن أن يشاهده الانسان وكل ذلك من الخشب . وبها منافذ ليدخل النور منها اليها وقدغطيت بشئ حسبته أولا من الزجاج المصنفر قامت عليه الرسوم من جميع الاشكال البديعة لولا أنى لامسته فوجدته من الحرير ولكنى عذرت عينى في انخداعها الى هذا الحد لما فيه من كمال اتقان الصناعة النادرة المثال في بابها . ثم وجدت فلوكة يابانية صغيرة من البرونز طولها نحو سبعين سنتمترا وعرضها نحو خمسة عشر فيها خمسون رجلا كل واحد بيده مجذاف وفى وسطها كشك من محاسن الصناعة وهذا دليل على تقدم القوم في بحريتهم قبل اليوم . وفي هذا المكان غير ذلك من أعمال النجارة العربية القديمة وخلافها مما يطول بنا شرحه .

## ﴿ الغرض من وضع الانتكخانات ﴾

من يشك في أن لنا أنتكخانة من أحسن متاحف الدنيا ان لم تكن أحسنها . الا أنها بكل أسف بعيدة عن افادتنا بالمرة بل (أستغفر الله) نحن بعيدون عن الاستفادة منها فان المصرى اذا غلط وتجشم الصعوبة لزيارتها فهو كأنه ذهب ليتفرج على سرك ( تياترو تلعب فيه خيل وكلاب ) ان لم أقل ان هذا يستميل نظره ويستدعى التفاته أكثر لانه يخرج منه وهو يقص على من لم يشاهده من جميع اخوانه كل ما رآه فيه من الالعاب التى حركت من إعجابه

وغرابته . وان كان هذا الزائر ممن يحبون البحث أخبرك عن عموميتها من حيث أبهة محلها . وإحكام نظامها . هذاهو الحاصل عندنا وربما كان لنا العذر في ذلك لبعد المكان عن السكان حتى اذا وصل الزائر اليه يكون قد حل التعب منه محل ارادته ورغبته في مشاهدة مافيه من الغرائب فيدخلها وقد خارت قواه وضعفت عزيمته وصار غير مفتكر الا في الدقيقة التى يبارحها فيها ليستريح من مشقة بعد الشقة . أماوقد وضعت هنا ( بفينا ) وسط المدينة وفى جانب من الانتكخانة الاولى مدرسة الفنون والصنائع ومن الثانية مدرسة الچيولوجية والتاريخ الطبيعى والثالثة قد وضعت بين يدى التجار والصناع فقد شاهدت أثناء زيارتى لها خلقاً كثيراً هذا يرسم لوحة مما فيها وذلك يدرس أثراً وغيره يبحث عن تركيب معدن وخلافه يشتغل بطبيعة حيوان أو نبات وسواه يجدّ فى الوقوف على صناعة من الصناعات ولايخفاك مافى وضعها بمقربة منهم من التسهيل على الباحثين وعدم ضياع وقتهم الثمين فى ذهاب وايابٍ منها واليها عدا مايتجشمونه فى ذلك من المصاريف التى ربما تعدت حد استطاعتهم . ومن ذلك ترى القوم فى تقدم مستمر لانهم يبحثون عن حقيقة الاثر الذى تركه لهم الاولون فاذا عرفوه لم يقفوا عند حده بل يعملون على ترقيته كأنهم يقولون فى أنفسهم اذا ترك لنا الآباء هذا وانتفعنا بما حصلناه منه فلم لانعمل لابنائنا نحن أيضا فنتركه لهم أثرا بعدنا كما فعل آباؤنا معنا وكأنما أدركوا أن هذا دين عليهم لخلفهم فيقول كل منهم هذا دانني به أبى فأرده الى ابنى بفائدته نظير انتفاعى به . وبالجملة فليست هذه الانتكخانات الا بنكا أهليا أدبياً فتح في البلاد ورأس ماله قليل فلم يلبث ان أصبح أهله وذووه من الثروة والسعادة بما أكل الى ذكائك تقديره .

## ﴿ المعرض المصرى فى فينا ﴾

دعانى صديق لى من أهل البلاد للتفرج على هذا المعرض فلبيت طلبه مفتكراً أنه شئ يستوجب الاهتمام فتوجهنا الى جهة البراتا ودخلنا بستانا للحيوانات بجوارها وأول ماوقع بصرى على بنات من الاعراب على هيآتهن البدوية وفى أيديهن صور عرب على جمال وخيل مختلفة الشكل يبعنها على المتفرجين وبعضهن يتسولن فى طرقات الحديقة ولم نلبث أن مررنا على شاب مصري فى عشة من الحصير وهو مشتغل بقلى الحمص والفول السودانى ثم على آخر بجواره يعمل القلل وبينهما قهوة حقيرة من قطع قماش قديم كئيبة المنظر كالتى تراها فى الموالد الصغيرة وفيها بعض دكك من الخشب وسخة وفى مقدمتها نصبة عليها السلاحى والكنك والفناجين وبجانبها شيشتان من الزجاج أو من الطين للتراب الذى تراكم عليهما . وفى صدر المكان دكتان قد ضمتا الى بعضهما جلس عليهما رجل بيده عود صوته أشبه شئ بصوت وتر قوس المنجد وآخر بيده رقّ قد صيغ من جلد ثور مثله وآخر معه دربكة لها دربكة تشبه الرعد وأمام الجميع امرأة شوهاء عرجاء بتراء وربما كانت عوراء أو عمياء وهى آونة تغنى بصوت أنكر من صوتها وحينا ترقص أو بعبارة أخرى ترفص بحال تضحك الثكلى أو بالاحرى تبكى العقلاء والناس من حولهم يتغامزون ويقهقهون قائلين لبعضهم هذا هو الرقص المصرى وذلك هو ناديهم الذى يجتمعون اليه فانقبض صدري وامتلأ قلبى بالحزن وقلت في نفسى اللهم لاحول ولاقوة الا بالله . هلا كان في بلادنا شئ يستميل الاوروبى غير هذا الذي يشمئز منه المصرى أكثر من غيره . ثم سرت قليلا فوجدت دائرة واسعة

أحاطت بها الكراسى وجلس القوم عليها من نساء ورجال وأطفال على اختلاف طبقاتهم وما جلسنا بها حتى دخل اليها جماعة من البدو من نساء ورجال وقد امتطى الرجال خيلهم وهى كالكلاب الضئيلة وركب النساء جمالا كالمعز بعد ما أردفن خلفهن أطفالهن وأخذ الكل يصيحون ويصرخون كمن به جنة ثم ترجل الرجال . وأناخوا الجمال . وابتدؤا يصفقون للنساء فيرقصن محركات هذه الاجسام الثقيلة الرذيلة وهن فى ذلك يمثلن للقوم رقص الاعراب بل الدباب وكأن الواحدة منهن قد صيغ جسمها من صخر . أو تمساح خرج من بحر ( ولا فخر ) ثم انصرفوا بعد هذا الفصل البارد الى أبرد منه فدخلوا ثانيا في هذا المرسح على شبه قافلة وبينما هم يسيرون باغتتهم لصوص منهم فأوثقوا الرجال الكتاف وسبوا النساء وأخذوا الكل مع المال الى حيث ألقت . ثم ظهر بعدهم مشايخ قد لبسوا العمائم وأرخوا العذبات وصاروا يمثلون الاذكار ويحرقون أجسامهم بالنار . ويأكلون الزاحفات . ويشخصون الصلوات . مظهرين للقوم أنهم من رؤساء الدين . وأهل اليقين . وأئمة المسلمين . بل وخلفاء سيد المرسلين . ثم انصرفوا بلعنة الله والناس اجمعين . وكنت فى أثناء ذلك اكاد أتميز من الغيظ وقد لاحت على وجهى علامات الكآبة والحزن فقال لى صاحبي مالى أراك قد انقبض صدرك . وتغير لونك . ألم يسرك أن تنظر الى أثر بلادك وترى شيئاً يذكرك بدينك ؟ فقلت رويدك ان كل بلاد فيها الكمال والنقص وهذه كلها نقائص يمجها الذوق السليم عندنا ولا يعمل بها الا السفلاء وهم كثيرون فينا وفيكم . وأغلب ماشاهدت الآن لا حقيقة له بديارنا ولكنهم يعملونه على شكل بنطوميم ليضحكوكم أو يضحكوا منكم به . أما هؤلاء الذين يمثلون الدين على ماتقول فهم خارجون عنه وهو بريء منهم . لان الدين الحنيفى خلو من ذلك كله وانما هم من السفلة العطلة

الذين لم يتيسر لهم العثور على مهنة يكسبون بها قوتهم فيعملون ماشاهدت ويتخذونه حرفة تقوم بعيشهم وهم فى ذلك كاللصوص أو قطاع الطريق وغيرهم من المشتغلين بما يضر ولا يعود بخير على النوع الانسانى . ثم ظهر أمامنا فى المرسح صبيان وشبان يابانيون بملابس قصبية لطيفة المنظر جميلة الشكل وأخذوا يلعبون ألعاباً جمبازية مما يدهش الفكر ويحير العقل فقطعت كلامى واستلفتت نظرنا اليها وشخص لها جميع الحاضرين وأنا أمسح ماء الخجل عن وجهى قائلا فى نفسى ليت هؤلاء كانوا قومى حتى كنت أفتخر بهم أو على الاقل كنت أكتفى مؤنة هذا الحزن وذلك الخجل . فالى متى أيها النبى من المصريين تكون آلة صماء بيد الاجنبي الذى يضحك منك ويضحك الخلق عليك بأجر زهيد يشترى به منك دينك وشرفك ووطنك ويبتاع منك أهليك وذويك وأنت فيما بين ذلك الطائع المختار أيها الحمار . اللهم هب السفلة منا أبصاراً ينظرون بها وآذانا يسمعون بها . وقلوباً يعقلون بها . وعقولا يدركون بها مايريده الاجنبي منهم . انهو الا يريد أن يظهرهم أمام الاوروبى الذى هو لاغيره فى مثال السائمة ويسقطهم فى عينه فلا تقوم لهم بعدها قائمة فيرجعون على أنفسهم باللائمة والندم ولات ساعة مندم .

## ﴿ سراى شونبرون وهى سراى الملك الصيفية ﴾

توجهت لزيارة هذه السراي الملوكية وهى فى ضواحى المدينة من الجهة القبلية ويصل اليها الترامواى من جميع جهاتها فوجدتها من حيث بناؤها ليست أحسن من مماثلاتها عندنا ولكنما بها بستان فى غاية من العظم فانك بمجرد دخولك اليه ترى فناء عظيما على شكل مستطيل يبلغ مسطحه خمسة أو ستة

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

أفدنة قد زرع بوسطه حديقة على الطراز الانكليزي أى زهرية فقط .وعلى الجانبين فى طول الزهرية ترى أشجارا قد أدخلت فروعها فى بعضها وقد قطعت كلها مما يحاذى الزهرية بمستوى عمودى على الارض على طول المستطيل من الجهتين وقد تداخلت أوراقها ببعضها حتى تراها كأنها حائط خضراء ذات ارتفاع هائل يبلغ نحو خمسة عشر مترا وقد فتح فى هذا الحائط بوابات كثيرة في نفس فروع الشجر غاية فى الانتظام موصلة الى دهاليز قامت حيطانها على الشكل المذكور وهذه توصل الى الجنينة الحقيقية التى تنتهى الى أورمانات كبيرة وفى أثناء اندهاشى من هذا العمل وهذا النظام كنت ألتفت يميناً وشمالا فلا أجد ورقة من الحوائط خارجة أو داخلة عن أختها . وبعد أن انتهينا الى آخر المستطيل وجدنا فى ضلعه المقابل للسراى فسقية هائلة جدا تصل طرفيه ببعضهما وفى جانبها طريقان مصعدان الى جبل عليه كشك بديع قام على أعمدة من المرمر على طول هذه الفسقية وبينه وبينها بركة لطيفة على طولهما فيها ماشاء الله من الاسماك اللطيفة المختلفة الالوان بين أحمر وأخضر وأزرق وأبيض وذهبي وفضى وهكذا وقد قامت على هذا الجبل زهريات على جوانب الكشك . وفى منحدره من الجهة الاخرى بحيرة عظيمة بها أشكال الطيور المائية وفيما وراءها محلات الحيوانات من جميع الاشكال والانواع وهذا البستان هائل جدا وفيه كثير من الجبلايات التى ينزل منها الماء على هيئة الشلالات وقد أقيم على احداها سنة ١٧٧٧ مسلة مصرية يبلغ ارتفاعها نحو عشرين متراً وعليها نقوش هيروغليفية . وبالجملة فهذا البستان من الابهة والعظمة بمكان . وهو جدير بمشاهدة الزائرين اياه وقد فتحت أبوابه لنزهة العموم حتى لايحرم أحد من مناظره الجميلة وأجملها تربية الاشجار

وقطعها على النسق الذى عرضت صورته على عينك وان كنت أود أنك ترى عينه بنظرك حتى تحكم بأن الوصف مهما كان . لا يبلغ حقيقة هذا المكان

## ﴿ الاخلاق فى فينا ﴾

قد اشتهر النمساويون بحسن الخلق . وجمال الخلق . وكمال الخصال . ولطافة الخلال . وكثرة الادب . ولين الجانب . ورقة الطبع . حتي تراهم وقد جمعوا ماحسن من أخلاق المصرى وأضافوا اليها انكبابهم على العمل وعدم اشتغالهم الا بما يفيدهم ويعود بالخير على النوع الانسانى معهم . ولقد اشتهر نساؤهم بالجمال الباهر . والوجه الناضر . الذي يزيد في بهجته عدم تشويه زهرته الطبيعية بتلك المجملات وان شئت فقل المشوهات الصناعية مع مايلقيه عليه بساطة الملبس ونظام الخطوات ورزانة العقل وتمام الادب والتؤدة فى السير الى العمل من حلى الكمالات التى هن في غنى بها عن الحلل الفاخرة والجواهر الثمينة والجمال المستعار . وأغلب القوم فقراء من كثرة ماعانوه من كروب الحروب وشدة الخطوب وعدم اشتغالهم بالمدنية الا من عهد قريب . ومع ذلك فان لحكومتهم الفضل فى تهذيب أخلاقهم الى حيث تكون ثروتهم ورفاهيتهم . ومن ذلك أنها سنت قانونا لايسمح بفتح محل عمومى الا الى الساعة العاشرة مساء ماعدا ليالى الآحاد والاعياد فانها الى نصف الليل . وقانونا آخر يحتم على من يسهر فى الخارج بعد الساعة المذكورة أن يدفع الى بواب منزله غرامة قدرها نصف فرنك عن كل مرة يتأخر فيها عن الميعاد وفى ذلك جبر معنوي للقوم على عدم الاسترسال فى لهوهم حتى يأتى زمن ( وقد أتى ) يكون لهم فيه من أنفسهم وازع عما يشينها أو يضربها وبالجملة فاخلاق النمساويين كلها

غايات كمالات تضمن لهم كل خير فى حياتهم

## ﴿ الفلاح النمساوى في فينا ﴾

ان أرض الحكومة النمساوية في غاية من الخصوبة . فالجهات المنحطة ترويها مياه الانهار . والجهات العالية تسقيها الامطار . والرجل الفلاح وامرأته يشتغلان بها على الدوام بين حرث وعزيق وزرع وقلع وغير ذلك والعمل بينهما على السواء . وفى الجهات التى بها فوريقات تشتغل المرأة فى الحقول والرجل فى هذه المعامل . والفرق بين عمل المرأتين عندنا وعندهم فى المزارع أن الفلاحة المصرية تشتغل بارادة زوجها لا بارادتها الخصوصية وهى تقلده فى بعض مايصنع على غير علم مما تعمل وهى في الغالب مسخرة لحمل الاثقال ولافرق بينها وبين حمارها سوى أن الرجل يستعملهما معا فى حمل مايريد وهى تستعمل أحيانا هذا الاخير فيما يجب أن تنقله على ظهره من دارها الى غيطها أو بالعكس وهي تتحمل المشقة والعناء أكثر من الفلاحة النمساوية . وأما هذه فانها تعمل بعلم وعقل وترتيب ونظام وارادة عارفة مع ذلك بالاقتصاد الزراعى وهو المحور الذى تدور عليه الفائدة من الزراعة .

والفلاح النمساوى محترم في بلاده ويضع على قبعته ريشة خضراء فى الغالب لتميزه عن غيره . ولقد رأيت كثيراً منهم فى العاصمة ملحوظين من القوم بعين الاعتبار بل بالعين التى ينظر بها الانسان الى من يعمل بما يقوم بحياته . أما عندنا فالفلاح مسكين أىّ مسكين ويكفى فى بلادنا ذكر هذا اللفظ لاشنع سبة وأكبر اهانة أو للدلالة على ان الشخص الموجه اليه هذه الكلمة فى الحضيض الاسفل من الدرك الاقل ولاذنب له غير انه يشتغل

بأولى أمهات الحرف التى تتولد عنها كل هذه الصناعات التى نعجب منها ونندهش لرؤيتها على ان هذه كماليات يستغنى عنها في سبيل الحياة وتلك أولى الضروريات التى لا يقوم الانسان بل ولا الحيوان بسواها.

## الرسالة الثالثة

### من فينا الى كولونيا

ركبنا قطار الاكسبريس فى الساعة العاشرة صباحاً ووصلنا الى كولونيا فى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى وكنا فى أثناء سيرنا فى القطار نري الغابات والمروج النضرة على يميننا وشمالنا والفلاحين والفلاحات يشتغلون فيها هذا بمحراثه وتلك بفأسها حتى اذا وصلنا المحطة التى فى الحدود الفاصلة بين أملاك النمسا والمانيا أتى عمال الجمرك وفتشوا أمتعة المسافرين فى هذا القطار وأخذوا عوائد الجمرك ممن معه أشياء تستدعى ذلك . وبعد ان أدوا عملهم فى نحو ربع ساعة أخذ القطار فى طريقه حتى وصلنا الى كولونيا

### لطيفة

كنا نتناول غذاءنا وشرابنا فى القطار منذ بارحنا فينا وكان شرابنا الماء المعدنى الذي كنا نشتريه من لوكاندة القطار بما كان معنا من النقود النمساوية فلما بارحنا الحدود عنّ لى طلب زجاجة ماء معدنى اسمها (چيس هبلر) وهو من مياه النمسا المعدنية وكنا نشربه منذ بارحنا فينا فأجابنى صاحب اللوكاندة بأنه يستحيل عليه ذلك فى أراضى المانيا لأن العهود التى أخذت عليه تقضى بأن يستعمل ماء النمسا فى أراضيها وماء عيون المانيا فى أراضيها . فطلبت ماء

من عيون المانيا فأعطانى زجاجة من ماء ( بولينارس ) فأردت ان أنقده ثمنها من العملة النمساوية فأبى قائلا انا في بلاد المانيا ولا تستعمل فيها نقود النمسا . فقلت ولكنك كنت تأخذها مناقبل هذا الوقت بقليل . فقال نعم قد كان ولكن لا يكون الآن فكل أرض تعطى حكمها فنقدته جنيهاً انكليزيا أخذ منه نصيبه وأعطانى الباقى نقوداً المانية وأنا مندهش من تمسك القوم بعهدهم وتعصب الدول لترويج بضاعتهم التى يشترك فى ثروتها الحكومة والاهالى معاً . وهكذا تكون الحكومات الساهرة على مصالحها . ولاعجب اذاً من تقدمها الى حيث تري فيه مدنيتها فى الاوج الاعلى أوتسمع به وأنت بعيد عنها والسلام

## ﴿ يومان فى كولونيا ﴾

هى مدينة عظيمة لطيفة البنيان على شكل جميل فتري أغلب مساكنها صغيرة جداً لايسع الواحد منها الاعائلة واحدة افرنكية أعنى ليس فيه زيادة عن لوازمها ولكنها غاية فى الزخرفة فترى القوم قد تفننوا كل التفنن فى الرسم حتى يتخيل لك ان كل بيت برسم غير الذى بجواره وترى امام كل منزل بستانا لايزيد عرضه عن خمسة أمتار فى طول وجهة المنزل وجميعها تستلفت النظر بحسن روائها وجميل منظرها حتى اذا اكثرت النظر فى أحدها وتركته الى غيره ولم تكتف العين منه استمالها هذا اليه اكثر من سابقه لما فيه من كمال النظام وحسن النسق الذى يخالف هيئة الذى قبله وهكذا كلما مررت على منزل استعارك نظرك جميعه حتى انك لم تلبث أن تري نفسك حائراً مندهشاً لجلال الرسم وكمال الصناعة وجمال الصياغة . وجميع مبانيها تشبه بعضها تقريباً لافى وضعها ولكن فى تمام نظامها وحسن هيئتها وصغر حجمها مع عظم

فخامتها . وهذه المدينة تجارية محضة بمعنى أنك لاتري بها رجلا أو امرأة أو طفلة من غير عمل . أما نشاطهم وجدهم فليس فى استطاعتى وصفه ولذا تراهم وقد شعروا بما فيهم من القدرة على العمل الذي جرّ لهم الثروة الطائلة والقوة الهائلة والكلمة الفاصلة في قليل من الزمن فرفعوا رؤسهم الى السماء كبراً وأنفة وهم لايلقون نظرهم الى الغريب الا شزراً ويحق لهم ذلك لا لكونهم والانكليز تجمعهم جدة واحدة وانما لكونهم من هؤلاء الالمان الذين ظهرت فيهم قوة الارادة بعد حرب السبعين فنمت بها عقولهم وزادت معارفهم وعلومهم وصناعاتهم ومخترعاتهم حتى أصبحوا اليوم فى مقدمة الدول قوة ومنعة وحضارة ومدنية .

وهذه المدينة مركز لمديرية الرين . وهو هذا النهر العظيم الذي يخرج من جبال الالب فى سويسرا ويمر من الالزاس واللورين ثم يخترق هذه المدينة ويستمر فى طريقه ببلاد المانيا حتى يصب فى بحر الشمال . وهو يقسم كولونيا الى قسمين : قسم عن يمينه وهو المدينة الاصلية وفيها المينا التجارية وقسم عن يساره وبه أبنية مستجدة وفاوريقات كثيرة لصناعات مختلفة . وهذه المينا تشبه مينا الاسكندرية فى أرصفتها تقريباً وفيها المراكب البخارية والسفن الشراعية من جميع الاشكال والانواع هذا يغدو وذلك يروح . ومن هذه المراكب وابورات البوسطة النهرية ومنها الاكسبريسات والوابورات التى تقف بجميع محطات المدن التى على هذا النهر ووابورات البضاعة التى لاتعد ولا تحصى . شئ يدهش الفكر ويحير العقل وحركة ولا حركة المولد الابراهيمى عندنا ولكن شتان بين الحركتين فهذه ليس وراءها مايفيد الناس فى معاشهم وتلك انما وراءها كل الخير والسعادة

واتساع النهر فيما يقابل المدينة ستون متراً وقدأقيم عليه كبريان أحدهما كوبري متحرك من مراكب خشبية بجوار بعضها وعليهادرابزين من جهتيها وله هويس يفتح لمرور السفن وهو عبارة عن مركبين تخرجان من محلهما فى هذا الكبرى الذي انما هو غاية فى جمال الصناعة وكمال الاتقان مع ماهو عليه من البساطة . والثانى صنع من الحديد تمر السكة الحديدية من وسطه وللناس من جانبيه طريق للرائحين وآخر للغادين . ولكل من الكبريين رسم مرور سواء على الانسان أو على العربات أو على الحيوان . ولاجل زيادة السهولة على التجار قد عملوا لساناً من هذا النهر يدخل فى المدينة الى نحو خمسمائة متر وبنوا على جوانبه أرصفة للبضائع وقد أحاطت به المخازن التجارية . وهذا اللسان لم يعمل الا من مدة خمس سنوات فقط والحركة فيه فوق الوصف كما أن حركة التجارة فى هذه المدينة لايمكن تقديرها خصوصا بواسطة هذا النهر الذى يربط المدينة ببحر الشمال الذى هو مركز حركة التجارة البحرية الانكليزية والالمانية والسويدية والنرويجية والروسية والدانمركية والبلجيكية والهولاندية والفرنساوية ومنه تساق الى جميع الاقطار والامصار . ولذلك ترى أهل هذه المدينة فى ثروة عظيمة جداً لاتقف عند حد بل تزيد بتوالى الايام والاعوام . أما الصناعات التى توجد بهافهى فاوريقات الانسجة الحريرية والقطنية والحديد وتكرير السكر وماء الكولونياوغير ذلك مما شاء الله وأراد القوم ايجاده

أما أخلاقهم فهى العظمة التى لاتتعدى ظل صاحبها والميل بكليتهم الى العمل مع كمال فى السير لا فرق بين الرجل فى ذلك والمرأة حتى تكاد تظهر لك أنها هو فى أخلاقه وصورته وهيئته لولا لباسها الذى لايختلف عن لباسه

فى خشونته كثيراً . وبالجملة فهى مدينة بها حركة أشغال وأعمال لا حركة دلال وجمال

## ﴿ محل النزهة بكولونيا ﴾

توجهت الى مكان نزهة القوم بعد عصر يوم أحد وهو محل واسع الارجاء شرقى المدينة يسمونه فلورا ( زهره ) فوجدته وقد احتشد اليه آلاف من الجنسين العاقل والعامل ( لا اللطيف كما يعبر عنه الفرنساويون ) فدخلنا أول الامر بستان الازهار وهو جنة جمعت كل أنواع الزهور . بين منظوم ومنثور . على أشكال يأخذ جمالها بالالباب ويدخل عرف رياحينها الى أعماق القلوب فتشعر بزيادة فى قوتها . وبسطة فى لذتها . وبوسطها بحيرة فيها فلائك وقد نزل اليها بعض النساء وهن يحركن ( أو بالاحري يحركون ) مجاذيفها بقوة أين منها قوة بحارتنا ويسقنها بشدة سواعدهن الى حيث أردن. وقد أحاطت بهذه البحيرة القهاوى واللوكاندات التى تستدعيك نظافتها وكمال نظامها وما فيها من نغمات الموسيقى الى أخذها نصيباً من وقتك. وفيها محلات غطيت بالزجاج من جميع جهاتها ( سير ) لتربية النباتات الغريبة وفيها مواسير بها بخار . ليحوّل جوهذه التربة الى الجو الذى تصلح فيه هذه النباتات

أما النوفرات والفسقيات المختلفة الاشكال والاوضاع فشئ كثير جداً . وبالجملة فهذا البستان مشهور بأنه فى مقدمة أمثاله باوروپا وخصوصاً بجمال رسمه . ولطافة كسمه . ورسم دخوله نصف فرنك . ثم تركناه ودخلنا بستان الحيوانات وهو بجواره فرأينا به سائر أنواع الحيوان من آساد مختلفة ونمور متغايرة وفيلة وضباع وذئاب وثعالب وخراتيت

وغيرها . وطيور متباينة كالنعام والزراف وغيرها مما يشبهها ولا أعرف اسمه . والعصافير والبلابل بجميع أشكالها وقد أحدث رنين صوتها هزة فى الآذان وحركة سرور فى النفس وكأنها وهى تتطاير على أغصانها وتتلاعب على أفنانها تقول لك أين للموسيقى والبيانو وما فى معناهما أن تصل الى نغمات هذه الكائنات الحسان . فتبارك الرحمن . وبجوار هذه أنواع الببغاء على أشكال وألوان . ولسان يتكلم بلغة الانسان . من كل مكان. وترى فى هذه الحديقة البحيرات التى تحيط بها القهاوي واللوكندات وبها كثير من أنواع الموسيقات والخلق فيها لا يحصيهم الا الواحد القادر .

وبجوار هذه الحديقة بستان قد وضعت فيه قبيلة من قبائل الاشانتى ( قوم فى غرب أفريقية مما يلى خط الاستواء معروفون بالقوة الجسمانية وشدة البأس ) يمثلون للقوم عوائدهم فى بلادهم وصناعاتهم فيها . فرأيت الرجال قد لبسوا فوطة الى سرتهم يسترون بها عورتهم وباقي جسمهم عريان والنساء يرفعن هذه الفوطة الى مايداري الثدى . ولهم مكان يجتمعون اليه بصوت طبولهم فيرقصون رقصهم الذي يقرب من رقص السودانيين عندنا ثم يحمل أربعة منهم تختروانا صغيراً عليه رئيسهم ويسيرون والقوم من أمامه بين نساء ورجال يطبلون ويرقصون ويذهبون به الى حيث مقره . ثم ترى أكواخا على محيط هذا البستان يمثلون بها صناعاتهم فترى هذا يشتغل بحياكة شقة أو حزام وذلك بصياغة أساور من صفائح الحديد أو أسلاك الفضة وغيرهم يطبخ بما يشبه طبيخ السودانيين . ومنهم من يحرس الاولاد فى المنزل وهو يعاملهم بالقسوة عند مايرى منهم أقل مخالفة لاوامره العالية . أما هيئة القوم فتشعر بما عندهم من قوة أجسام هائلة . وعضلات قوية . وعيون متوقدة .

ووجوه منتظمة . وشعر أجعد على جبهة عظيمة . وأنف ليس فيه كبر . وفم لاسعة فيه ولامشافر تحيط به .

ثم دخلنا بجوار باثوبنتيكوم ( متحف صور مصنوعة من الشمع ) فرأينا في مدخله أودة جلس بها بسمارك أبو الامة الألمانية . ورأس ساستها وجامع وحدتها . وأشهر رجالها . الذى أقام هيكل قوتها ووضع أساس ثروتها . وهو حاضر الذهن متوقد الفكر تكاد أجفانه حين التصاقها ببعضها توري ناراً تريك منه قوة ذكائه . وقد جلس على كرسى عظمته وأبهته . بعد حرب السبعين وأمامه نابليون الثالث امبراطور فرنسا على كرسى آخر وهو فى غاية الحزن والكآبة يمثل حالة المقهور . كما أن الاول يشخص هيئة الظافر المنصور . ثم رأينا بقاعة أخرى غليوم الاول فى ميدان الحرب المذكورة وقد جلس على لوح من الخشب وضع طرفه على حجر كبير والطرف الآخر على جثة حصان ميت قدأخذت قوائمه قنبلة من قنابل العدو . وقدوقف حوله بسمارك والجنرالات وأركان حربه وكلهم منصتون الى أوامره يتباحثون فى الخطة اللازم اجراؤها للحركة الحربية التى كانت نتيجتها ظفرهم بالفرنساويين . هذا الظفر الذى صعد بالغالب الى أوج المجد . ونزل بالمغلوب الى حضيض الذل . وغير ذلك من الاشكال التى لاتخرج عن معنى تاريخى أو موضوع جغرافى مما يفيد العامة ويكون تذكرة للخاصة

وبجوار ذلك أصناف كثيرة من الاراجيح التى هى عندهم لاتخرج عن درس جمبازي يتصفحون صفحاته عند مقتضيات الاحوال . والفراغ من الاعمال . وبالجملة فكل ملاهيهم علمية فيها فائدتان : راحة الفكر من عناء الاشغال مع عدم حرمانه مما عساه يزيد فى قوته ومعلوماته . وناهيك بها

من تربية صعدت بهم الى حيث لاتراهم الا بالتلسكوب الذى نري به الشموس فى أفلاكها لانحطاطناعنهم بهذا البعد الشاسع . والقدر الواسع

وأهل هذه المدينة مشهورون بالتقوي وفيها دوم دوكولونى (أى كنيسة كولونيا) وهى من اكبر كنائس العالم . وارتفاع منارتها ٥٦ مترا . وسكان هذه المدينة يبلغ عددهم ٣٠٠ ألف نفس أو يزيدون وبها كثير من المدارس على أحسن نظام وأتم ترتيب وقد بنتها الحكومة بعد حرب السبعين من الغرامة الحربية التى أخذتها من فرنسا وكذلك البوسطة ومحطة السكة الحديدية ودار المحافظة والانتكخانة وغير ذلك من الابنية التابعة للحكومة

## ﴿ من كولونيا الى انفرس ﴾

بارحنا مدينة كولونيا الساعة العاشرة صباحاً بوابور الاكسبريس فوصلنا انفرس في الساعة الخامسة مساء وهى مدينة قديمة على نهر الاسكو ولها مينا كبيرة عليه تصل اليها المراكب التجارية من بحر الشمال ويصعد تاريخها الى القرن السابع وقدهدمها النورمانديون سنة ١٨٣٧ ثم بنيت وجعلت عاصمة امارة مستقلة واشتغل أهلوها بالتجارة وخصوصاً من أول القرن الخامس عشر وكان عدد سكانها فى ذلك العصر لا يزيد عن مائة وخمسة وعشرين الف نفس ثم استولت عليها حكومة النمسا وكانت مدة حكم شارلكان من أحسن البلاد وألطفها وأتمها نظاما وأوسعها تجارة وأكبرها ثروة بالنسبة لكونها أقرب مينا على الاسكو الذى هو محل ذهاب وايابب المراكب على الدوام . وانتشرت تجارتها وصناعتها من البسط والاقمشة والفضيات والمعادن الى بلاد الهند والصين والعرب ومصر وغيرها. فلما استولى

عليها الاسبانيون سقطت من ذروة مجدها وأخذت تنحط شيئاً فشيئاً وكثرت فيها الفتن الداخلية. عند ذلك هجرها كثير من العائلات الى بلاد الانكليز فانعدمت تجارتها وماتت صناعتها حتى وصل عدد أهلها سنة ١٥٨٤ الى خمسة وثمانين الف نفس. وفى سنة ١٥٨٩ نزل الى أربعين الفا فقط ومن ثم فقدت قوة الملاحة فى هذا النهر فالتقفتها يد الفلمنك ثم وقعت المدينة نفسها فى قبضتهم على مقتضى معاهدة باريس سنة ١٨١٤ . هنالك أخذت تجارة المدينة فى تقدم محسوس حتى اذا ماأتت سنة ١٨٣٠ قامت ثورتها مع البلجيك ضد حكومة هولاندا وطردوا الهولنديين من بلادهم ومن ثم صارت تابعة لحكومة بلجيكا ولكنها وقعت فى نتائج هذه الثورة المذمومة والحرب المشؤمة فضاعت ثروتها . وذبلت زهرة تجارتها . واستولى عليها الضعف . ولم تفق من غشيتها الا فى سنة ١٨٣٦ فاشترت سنة ١٨٣٩ الملاحة فى نهر الاسكو من هولاندا بمبلغ ٣٦ مليون فرنك وكان عدد المراكب التى دخلت ميناها فى تلك السنة ٢٩٥٧ سفينة تحمل ٨٢٢٥٣٣ طناً وقيمتها ٤٧٠ مليون فرنك وصارت تزداد وارداتها شيئاً فشيئاً حتى بلغت فى سنة ٩٦ خمسة آلاف سفينة تقريباً حمولتها خمسة ملايين و٨٠٠ ألف طن منها أربعة آلاف وخمسمائة مركب بخارية والباقى شراعية قيمة مافيها الف وخمسمائة مليون فرنك وكذلك كانت نسبة صادراتها فانها ارتفعت من ١٥٠ مليونا الى ستمائة مليون فرنك وواردتها كانت من الغلال والبن والدخان والصوف والبترول والجلد والخشب وصناعتها المشهورة هى قطع الماس وعمل الدنتلا والسيجار وتكرير السكر والتقطير والبيرة ومن ثم أخذت فى التقدم الذي سارت فى طريقه الى اليوم

وهذه المدينة من أكبر بلاد البلجيك وأحصنها بل من أشهر بلاد

أوروبا وهى المينا الوحيدة البحرية التى تصل البلجيك ببحر الشمال بواسطة نهر الاسكو الذي يخرج من فرنسا ويخترق أراضيها ثم يسير فى بلاد البلجيك ويصب فى البحر المذكور وبين هذه المدينة ومصب النهر نحو عشرين فرسخا فقط وبينها وبين بور فيكتوريا نحو ١٥ ساعة سفراً فى النهر ثم فى البحر . وهى مينا انكليزية على مصب نهر التيمس كرشيد أودمياط مثلا من مصبى النيل وهذه لاتبعد عن لوندرة الامسافة ساعة سيراً فى النهر

وأبنية هذه المدينة على النظام الاروبى الجديد غير ان منازلها صغيرة ولكنها غاية فى لطافة البنيان وحسن المنظر . وجميع أبنيتها من أربع الى ست طبقات وهى وان كانت لاتصل مبانى كولونيا فانها لاتنقص عنها كثيراً وهى مشهورة بانتفخاتها التى بها آثار ذلك الرسام المشهور ( روبنصون ) الذي كان فى أوائل القرن السابع عشر وهو فى الصف الاول من النابغين فى هذا الفن وغيره ممن اشتهر من رجالها . وبها بستان للنباتات وآخر للحيوانات والاول منهما من أجمل بساتين الدنيا فى بابه . وحيث انى لم أقم بها الا ليلة واحدة كنت أتقلب فيها على فراش المرض والألم فلم يتيسر لى مشاهدة متاحفها وصناعاتها ولكنى قبل مبارحتى لها ركبت عربتى وأمضيت بها ساعتين قبل سفري منها الى بروكسيل ولم يساعدنى حظى الا بزيارة ديوان العدلية بها ( نظارة الحقانية ) فوجدت مكاناً غاية فى العظمة والابهة يدخل الانسان من بابه الى صالون كبير ضربت عليه قبة عظيمة ترى مرسوماً عليها أولا عذراء قد تهلل وجهها بالفرح وأخذت بيمينها ميزانا يمثل لك القسطاس المستقيم وقد اعتدلت كفتاه كل الاعتدال وأمسكت بيدها الاخرى باقة من الازهار كأنها تريد أن تقدمها الى من يحكم بالعدل وهى فى معناها اكبر مايهدى . ثم ترى عذراء أخرى قد عبست وقطبت

وأمسكت بيدها ذلك الميزان وقد نزلت احدى كفتيه عن أختها وفى يدها الثانية سيف قد جردته وكأنما قد هممت تضرب به من يحرف عن جادة العدالة وأخرى قد أخذت بميزان ووضعت على رأسه تاجا عظيما كأنها تقول لمن حولها العدل أساس الملك فخرجت وأنا معجب بحسن ذوق القوم فى رموزهم وغير مستغرب ما اشتهر عنهم من العدالة التى يدرسونها فى تلك الصور الجليلة الجميلة .

ثم ركبت عربتى ومررت في شوارع المدينة بقية وقتى فوجدتها فى غاية الجمال والنظافة وفى وسطها جنينة عظيمة وبها بحيرة لطيفة جعلت لنزهة القوم يقطعها طريق تسير به العربات وأخري للسائرين على أرجلهم وفى وسط ساحة المدينة قد أقيمت تماثيل لمن اشتهر من ملوكها وعلمائها وساستها .

أما المدينة فهى تموج فى حركة أهلها المستمرة وهم ذوو نشاط عظيم وجميع أشغالهم تجارية تقريباً وفيها كثير من الشركات الكبيرة التى انبثت صناعتها وتجارتها فى جميع أنحاء العالم وهم مشهورون بغزارة ثروتهم وعلى غاية من لطافة الاخلاق وحسن المعاشرة وبالجملة فهم أناس كأنهم لم يخلقوا الا للعمل

وعدد سكانها أكثر من ثلثمائة ألف نفس وبها الترامواي الكهربائى والبخاري والقهاوى والمطاعم واللوكاندات الجميلة والتياترات والمخازن التجارية وبها غير محطتها العمومية ثلاث محطات أخري وهى مركز مديرية من مديريات البلجيك التسع والمسافة بينها وبين فينا ثمانمائة ميل

ولما أتى وقت السفر قصدت المحطة فوجدتها هائلة يكاد المسافر ان يضل فيها طريقه لكثرة القطارات التى على أرصفتها وكلها مستعدة للسفر الى جهات مختلفة فركبت القطار الساعة الرابعة بعد الظهر الى بروكسيل عاصمة البلاد

ووصلتها في منتصف الساعة الثامنة والمسافة بينهما سبعة وعشرون ميلا

## ﴿ مدينة بروكسيل ﴾

وهى عاصمة بلاد البلجيك وتاريخها يبتدئ من القرن الثامن حيث كانت مدينة صغيرة واتخذها شارل لورين مركزا لحكومته فى سنة ٩٧٧ واستولت عليها فرنسا فى القرن الخامس عشر ومن ثم صارت تابعة لحكومة دوق دي برجونيا وفى مدته انتشر فيها الفرنساويون وأثرت أخلاقهم على أهلها تأثيرا عظيما

وفى سنة ١٥٥٩ نقل اليها فليب الثانى ملك اسبانيا مقر حكومة البلاد الواطية التى كانت تابعة له

وفى سنة ١٥٦٦ قامت ثورة أهلها من كثرة المظالم التى كانت تنالهم من الاسبانيين ولكنهم لم يفلحوا فيها ولقد تجشمت هذه المدينة صعوبات جمة من حروب اسبانيا المتواليه بين لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر ملكى فرنسا وبين ماري تيريزه امبراطورة النمسا

ثم استولت عليها فرنسا فى سنة ١٧٩٥ وصارت تابعة لها الى سنة ١٨١٥ ثم انفصلت عنها واتصلت بحكومة البلاد الواطية (هولاندا) وفى سنة ١٨٣٠ قامت الثورة التى أعقبها استقلال البلجيكا فى السنة التاليه وكان عدد سكانها وقتئذ مائة ألف نفس فقط

وهذه المدينه تنقسم الى قسمين . القسم العالى وفيه محل اقامه الملك والاشراف وبه النظارات واللوكاندات المعدة للطبقه العاليه من السواحين وبه السفارات وأعيان القوم وسراتهم واللغه الغالبه فيه هى اللغه الفرنساوية.

والقسم الواطى وبه التجار والصناع وفيه مركز الحركة التجارية وأغلب سكانه يتكلمون باللغة الفلامندية وهى لغة البلاد القديمة وبعض اللغة الفرنساوية وعدد سكانها الآن مع ضواحيها يبلغ خمسمائة وخمسين ألف نفس

وهذه المدينة تشبه باريس فى أبنيتها وشوارعها ومتنزهاتها فان كان فى هذه غابة بولونيا المشهورة بجمالها ورونقها ففى الاولى غابة (كامبر) حتى ذهب القوم الى تسميتها بباريس الصغري ولكن شتان بين الرجلين البلجيكى والفرنساوي فانهما وان اتحدا أخلاقا وطباعاً فقد امتاز الاول بقوة الارادة والمثابرة على العمل مع الاسترسال فى الشهوات. ومن أحسن آثارها تمثال (جودفروا) (١) الذى أقيم له على المكان الذى كان يدعو الناس فيه سنة ١٠٩٧ الى حرب الصليب الاولى التى كان على رأس الجيوش النصرانية فيها وقد أقيم له هذا الاثر سنة ١٨٤٨ وغيره من تماثيل علمائهم وملوكهم وساستهم وقوادهم

وهذه المدينة مشهورة بثروة أهلها وهى من أغنى بلاد العالم على صغر حجمها وقلة أهلها

---

(١) وجود فروا له شهرة عظيمة فى الحروب الصليبية وقد لقب بملك أورشليم (بيت المقدس) ومات فى سنة ١١٠٠ حيث قصد الاغارة على دمشق وأتي بجثته الى أورشليم ودفن بها وخلفه أخوه بلدوين الاول على ملك بيت المقدس وهو الذى يسميه العرب بالبردويل وقد سميت باسمه البحيرة الموجودة بين العريش وبور سعيد (سبخة البردويل) التابعة الآن للحكومة المصرية حيث كان قد قصد الاغارة على مصر فمرض فى الطريق ومات عند هذه البحيرة ودفنت أحشاؤه بجوارها وأتي بجثته فدفنت بجانب جثة أخيه فى بيت المقدس آخر سنة ١١١٠ ميلادية

## ﴿ أنتيكخانة الصنائع والفنون الجميلة فى بروكسيل ﴾

دخلت هذا المكان فوجدته مشيد البنيان ولكنه أقل من نظيره فى فينا بكثير . وفى الدور الارضى منه وجدت تماثيل كثيرة بعضها صنع من الرخام وبعضها من الحجر والبرونز وهى قليلة الا أنها متقنة الصناعة . ثم صعدت الى الدور الاعلى فوجدت قاعاته كلها قد علقت على حيطانها الاربع لوحات من الرسوم الجميلة المتقنة الصنع وأغلبها دينية نصرانية أعنى تتعلق بصور المسيح والعذراء على أشكال عديدة وهذا المتحف مشهور بها . وبين هذه اللوحات لوحات أخري كثيرة عليها صور الملوك الذين جلسوا على سرير حكومتها . ومن ضمن ذلك شاهدت لوحة عليها تسعة أشخاص من حكام البلاد وقد قدم اليهم السكرتير أوراقا فأخذوا يفحصونها بكمال تبصر وتروّ وتفكر وتأمل وهم يدرسونها درساً محكماً قبل الاجابة عليها حتى اذا قرروا شيئاً فى شأنها يكونون انما قرروه بحكمة وعقل وحزم لا يكون بعده الا خير البلاد والعباد وهكذا كان والفضل ثم الفضل لهم ولأمثالهم ( رحمهم الله ) وكأنما هذه اللوحة وضعت هنا درساً لغيرهم من ملوك وحكام البلاد يقول لهم لسان حالها هكذا عملنا فأوصلنا كم الى درجة من الرفاهية والعزة بمكان عظيم فاعملوا أنتم مثلنا وامشوا على سننا كى تبلغوا غاية الآمال . وتصل البلاد بكم الى ذروة المجد والكمال

وفى لوحة ثانية رأيت صورة البرنس دورانج يقود جنده فى واقعة واترلو فى سن السابعة والعشرين من عمره وهو يسير على جواده فى مقدمتهم يريك كيف تكون الشجاعة والاقدام وبعد قليل تراه وقد خرّ صريعاً عقب رصاصة

اعترضته فى صدره من جيش العدو .

وصورة أخرى تدلك كيف كانوا يدفنون الموتى فى ( رومة ) أيام الطاعون فتري الميت يحمله من الخلف رجل أخذ بذراعيه مما يلى كتفيه وآخر قد أخذ برجليه وسارا به الى حفرة فيلقيانه فيها غير مأسوف عليه

وهذه اللوحة تمثل لك ولاشك ما كان عند أهل رومة من القسوة والشناعة

ثم لوحة قديمة تمثل الناس في العاصمة وقد لبسوا في أعيادهم بنطلونات قصيرة يدخلون ارجلها في جوارب طويلة وعلى أكتافهم شبه حرملة وهى الملابس الحديثة الجديدة الآن المخصصة لركوب ( البسكليت ) ومن ذلك تعرف ان كل تبديل وتغيير فى أشكال الملابس يرجع الى الملابس القديمة بتعديل خفيف في زيها وتحسين في صناعتها ليس الا

ولوحة رسم عليها أحد الملوك القدماء للقوم وقد أغار بخيله ورجله على أناس من جيرانه وأخذ يذبح أبناءهم من غير شفقة ولا رحمة وهو دليل على أنهم كانوا على قسوة وشناعة ليس لهما حد ولا يقدر على وصفهما أحد. ولكن هؤلاء كتبوا على اللوحة ( قتل الابرياء ) فكأنهم سبقونا فى الانتقاد على سلفائهم وأرادوا أن يخبرونا بأنهم اطلعوا على تاريخ السالفين فأخذوا ماحسن منه ونبذوا ماقبح

ثم لوحة رسم عليها صور من الملائكة (على زعمهم) وقد فتكت بقوم من الجن على هيآت مختلفة وأشكال متغايرة جمعت بين هوام البر والبحر وهى كأنها تقول لهم . ألا ان جند الله هم الغالبون . وقد تخيل لى انها مثال لسلطة العقل الذي هو روح من عند الله تعالى على هذه النفوس الخبيثة التى تحاربنا بسلاح

الشهوات فاذا استعملته ضدها فانه لايلبث ان يظهر عليها ويضعف من قوتها أما اذا أمنت لها وركنت اليها فانها توردك مورد حتفك والجزاء عليك لاعليها لانك استسلمت اليها وغرك لين لمسها ولم تتبصر فى قاتل سمها .

ثم رأيت لوحة فيها اناس قد انهالت عليهم المصائب من كل حدب ووطئت رؤس أناس غيرهم بأقدام من حديد وقد اندك عنق بعضهم تحتها فلم يحركوا ساكناً ولكن فريق منهم احتمل هذه المصائب وأخذ يزحف تحت أعباء حمله الثقيل بحزم وعزم حتى نجا بنفسه من ورطتها فتخيل لى من ذلك ان الفريق الاول قد استسلم لها وخاب منه الامل. فوقف عن العمل. وصادف منها منيته على عجل . وأما الثانى فقد جرد جيش الصبر تجاه بلواه وأخذ يعمل ويتقدم قائلا ( ألا بالصبر أبلغ ماأريد ) وبعد قليل كشف عن رأسه بيد جده واجتهاده تلك المصائب فانجلت عنه مغلوبة مقهورة وخرج هو من هذا الميدان ظافراً منصوراً . مسروراً مشكوراً

ولوحة قد رسم عليها صورة رجل يشتغل فى نول حياكة كالذي عندنا فى بلادنا الآن . ثم حكيم يعمل عملية جراحية لآخر وهو يعمل فى جسمه كالنجار فى قطعة الخشب والمريض يستغيث ولا مغيث .

فاذا عرفت ذلك وقارنته بما وصلت اليه الصناعة والطب الآن فيهم وجدت ان القوم قد تقدموا تقدماً بليغا ثم اذا نظرت الى مانحن فيه من ذلك التأخر والانحطاط عرفت ان تقدمنا ليس بالامر المستحيل لانا الآن على الاقل فيما كانوا عليه من قبل وحيث أمكنهم الوصول الى هذه الدرجة فمن الممكن ان نصل الى ماوصلوا اليه لاسيما وقد مهدوا لنا السبيل وأرونا طرق الوصول الى هذه الغاية

وكنت أثناء زيارتي لهذا المتحف أرى هذا يدرس وذلك يرسم ثم شاهدت امرأة تسحب ابنها وتعبر له عما يشاهد من الآثار بحالة تقرب من فهمه فقلت في سري أين هذه المرأة من المرأة التي عندنا وهي اذا عرفت الانتكخانة فانها لا تقصدها الا اذا تأخر حبلها لتحمل كأنما بها مادة التلقيح البشري . والجنون فنون . فما دامت المرأة فينا على هذا الحال فهيهات هيهات ان نصل بها الى ما تعلقت به الآمال .

## ﴿ بستان النباتات في بروكسيل ﴾

هو بنيان لطيف جداً شرقيّ محطة السكة الحديد الغربية وهو في غاية من حسن النسق ولطافة الرونق وعلى كل شجرة منه أو نبات ورقة مكتوب عليها اسمها والجهة التي ينمو فيها وفيه كثير من أنواع الاشجار والازهار قد وضعت بترتيب جميل تشهد لواضعها بحسن الذوق . وترى أرض هذا البستان تصعد بك الى ما يبلغ عشرين متراً تقريباً بمعنى انك تدخل من الباب الغربي فتري أرضاً مبسوطة بوسطها بركة صغيرة فيها بعض الطيور المائية ثم تصعد مع الارض على منحدر لطيف فتصل الى بعض درجات تصعد منها الى مثل سابقها ثم تصعد من هذه الى أخرى وفي كل منها ترى اشكالاً وألواناً من الازهار والاشجار قد أحاطت بفسقيات جميلة . وفي أعلى هذا المكان محل كبير جداً في غاية من حسن النظام لتربية أنواع الزهور والاشجار الاجنبية وقد جعل هذا البستان لنزهة القوم ودراستهم النباتية وقد فتحت أبوابه لجميع الناس طول النهار وهو أشبه شيء بجنينة الازبكية بمصر التي هي اكبر منه كثيراً والفرق بينهما ان هذه يقصدها أغلب الناس لما فيها من الخمور والفجور

وذلك لانشراح الصدور. ودراسة ما فيه من النباتات والزهور. والجامعة بين القصدين هى نفس الجامعة بين النقص والكمال. والضعة والجلال. والقباحة والجمال. أو البطالة والاشتغال. فبطالتنا أورثتنا كل مفسدة. واشتغالهم أتى اليهم بكل فائدة.

## ﴿ قصر العدالة أو نظارة الحقانية فى بروكسيل ﴾

هذا هو القصر الجميل. بل الأثر الجليل. والبنيان العريض الطويل الذي لم يكن له فى العالم الارضى مثيل. ضخامة بناء. في لطافة رواء. ورحيب فناء. فى عجيب علاء. تنسيك أبهة هيئته. وجلال رؤيته. عظمة الاكاسرة. وفخامة القياصرة. وكأنى به وقد ارتفع الى السماء. واتصل رأسه بعالم الضياء. ليكون مقرا للذكاء (الشمس) حتى اذا أشرقت بأشعتها على رجال القضاء أنارت بصائرهم بنبراس العدل. وأضاءت سرائرهم بمشكاة الحق وأرشدتهم الى الصراط المستقيم. والمنهج القويم. فانكشف لهم طريق الرشاد. الذى انما به كمال اليمين والاسعاد. وظهر لاعينهم مايحيط بها من هاويات الجور. ومفاوز الظلم والفجور. حتى اذا لاسمح الله نحس طالع أحدهم. وانحرف عن جادتهم. التى ترفعهم الى عليين. هوى بنفسه الى أسفل سافلين. واستوجب سخط الله والملائكة والناس أجمعين.

وقد ابتدئ فى عمل هذا القصر سنة ١٨٦٦ ولم يفتح رسمياً الا فى سنة ١٨٨٣ وهو اكبر وأعظم بناء فى عصرنا هذا وهو ذو ثلاث طبقات وطول كتلة البناء فيه ١٨٠ متراً وعرضها ١٧٠ متراً وهذا البنيان الجسيم قد أحاطت به أعمدة هائلة من الحجر فى جميع جهاته وعلى الاخص فى مدخله العمومى وقد

أقيم فى وسط سطح الطبقة العليا منه شكل مربع يحيط به أربعة وعشرون عامودا من الرخام وعلى هذا المربع آخر على شكله الا أنه أصغر منه وقد أحاطت به أيضاً أعمدة من المرمر فى كل جهة من جهاته وقام على رأس هذا البناء تاج عظيم مصفح بالذهب يأخذسناه بالابصار وقمة هذا التاج ترتفع عن الارض بمسافة قدرها ١٢٢ متراً . وفى مدخل هذا القصر الغريب جملة تماثيل هذا للعدالة وذلك للقانون وآخر يمثل السيطرة الحاكمة وغيره رحمتها وحنانها. وفى هذا المكان ٢٧ بهوا كبيرا وفيه ٦٦٥ قاعة وثمانية حيشان ثم قاعة هائلة يبلغ مسطحها ٣٦٠٠ متر مربع ويبلغ ارتفاع قبوتها ٩٧ متراً ونصفا وقد صرف عليه فى تشييده خمسون مليون فرنك أى مليونان من الجنيهات الانكليزية تقريبا . وبالجملة فهذا المكان . آية من عمل الانسان فى هذا الزمان.

## ﴿ ميدان واقعة واترلو ﴾

وهى هذه الواقعة الشهيرة التى حصلت في ١٨ يو نيو سنة ١٨١٥ وأفل فى سمائها نجم سعد نابليون الاول (بونابرت) امبراطور فرنسا الذى شتت بجيشه جيوش أوروبا بأسرها . وامتلك أغلب أراضيها بما كان فيه من قوة البأس والارادة وشدة العزيمة .

ولما كانت هذه الواقعة مبدأ سقوط فرنسا التى كانت أقوي الممالك في أيامه منعة وأرفعها مقاما وأكبرها سلطانا وأنفذها كلمة أحببت زيارة مكانها لكى أشرح لقومى صورتها واقص عليهم شيئاً من تاريخها .

ركبت قطار السكة الحديدية الى محطة واترلو وهى على بعد ثمانية عشر كيلو مترا من بروكسيل ولكننا لم ننزل بها بل فى المحطة التى بعدها لقربها

من مركز الواقعة واسمها (برين لالو) وركبنا منها عربة أمنيبوس واتجهنا نحو الشرق وبعد نصف ساعة وصلنا الى أثر عظيم اقامه الهولنديون والبلجيكون فى مركز دائرة الواقعة وهو عبارة عن تل جسيم أقيم على شكل قبة هائلة وعلى رأسه قاعدة عظيمة من الحجر أقيم عليها أسد واقف على قوائمه الاربع قد صنع من مدافع الفرنساويين التى تركوها فى ميدان الواقعة المذكورة فصعدنا اليه بواسطة سلم من الحجر به ٢٣٥ درجة فوجدنا هذا السبع كامل الاعضاء لولا ان الفرنساويين عند محاصرتهم لمدينة أنفرس سنة ١٨٣٠ كسروا قطعة من ذيله بيد الغيظ الذي ذكرهم بتلك الكسرة الشنعاء .

ومحيط هذه القبة مما يلى الارض ألفا قدم وارتفاعها ٤٥ متراً . وقد بنى بوسطها عامود من الطوب من سطح الارض الى قمتها به ثلاثة ملايين ونصف مليون طوبة ليكون حاملا لقاعدة الاسد الذي تبلغ زنته ٢٤ ألف كيلو غرام وقد مكثوا فى عمل هذا الاثر ثلاث سنوات وصرفوا عليه ثلاثين مليونا من الفرنكات وأقاموه تذكاراً للمكان الذى جرح به البرنس دورنج الذى كان على رأس البلجيكيين .

وفي الشمال الغربى من هذا الاثر الهائل أقيمت على جانبي الطريق بعض منازل ولوكندات صغيرة للزائرين وبها بعض آثار الحرب المذكورة من بنادق من ذات الشطف وسيوف مكسرة وبعض قطع من المدافع وبعض عظام من هياكل القتلى .

ثم سرنا الى جهة الجنوب فوجدنا عامودين قريبين من بعضهما أقيم الاول تذكاراً للمكان الذى جرح به الدوق والنجتون الانكليزى الذى كان على رأس جميع الجيوش المتحالفة والثانى تذكاراً لمقتل ٤٢ ضابطاً من

الالمانيين. وعلى بعدمنهما بنحوساعتين من جهة الشرق المنزل الذى نزل به نابليون أثناء هذه الحرب.

ولاجل أن لا أحرم بنى جلدتى الأعزاء من صورة هذه الواقعة رأيت أن أشخصها لهم فى كلمتين اتماما للفائدة فأقول :

كانت هذه الواقعة تنحصر فى دائرة طول محيطها ١٦ كيلو مترا . وكان الجيش الفرنساوى من جهة الشرق منقسما الى جناحين وقلب . فكان فى هذا نابليون وعلى الجناح الايسر چيروم بونابرت (أخو نابليون) وعلى الجناح الايمن الجنرال جروشى

وكان الجيش الفرنساوى يبلغ ٧١٩٠٠ محارب منهم ٤٨٩٥٠ مشاة و ١٥٩٠٠ سوارى و ٣٤٦ طوبجية . أما الجيش الاتحادى فكان فيما يقابلهم من جهة الغرب وكان يتركب من الجيش الانكليزى والايكوسى والهانوفري والالمانى والهولندى والبلچيكى والبروسيانى وكان عدده ٧٥٠٠٠ ألف جندى منهم ٤٠٦٠٠ مشاة والباقى بين فرسان وطوبجية . وكان ينقسم الى جملة أقسام وفى وسطه الدوق والنجتون وهو القائد العمومى لهذه الجيوش السبعة. وعلى الميسرة الجنرال وليم بونسم وعلى الميمنة الجنرال كوك والجنرال هميير وقد التجأت ميمنة الجيش الاتحادي «وكانوا من الانكليز» تحت ستار الظلام الى عزبة هناك فى دائرة الميدان تسمى بعزبة هوجومون . فكانت نيرانهم تصيب الغرض من الفرنساويين الذين ما كانت نيرانهم تصيب الاحطيان العزبة المذكورة التى كانت تخفيها عن نظرهم سحب دخان المدافع . هذا من جهة الميسرة . أما القلب فقد أرسل نابليون خمسة آلاف من السوارى للهجوم على قلب الجيش الاتحادى تحت ستار الدخان فهجموا بقوتهم المعروفة وقتئذ ولكنهم لم يلبثوا أن وقعوا في هاوية عظيمة كانت

أمام جيش العدو وكانوا على غير علم بها فهلكوا جميعاً ولم ينج منهم الا من أخبر بأمرهم . هنالك أرسل نابليون الى الجنرال جروشى بأن لا يدع جيش البروسيانيين الذي كان على ميسرة الجيش الاتحادي يتحرك من مكانه ولكن هذا تعامى عنهم وتركهم يسيرون حتى حصروا جيشه من جهة ومؤخرة جيش نابليون من الجهة الاخري . والفرنساويون يعتقدون أن جروشى خدع نابليون بهذه الفعلة الشنعاء التى كانت سبباً في كسرته نظير رشوة أخذها من جيش العدو . ثم هجم قلب الجيش الاتحادي فانحصر نابليون بجيشه بين نيران العدو من كل جهة وهنالك قال « لقد هلكنا » وهمّ أن يقتل نفسه فمنعه أحد العساكر قائلا لا تفعل يامولاى فان فى حياتك حياتنا وفى موتك موتنا فهرب وتشتت جيشه شذر مذر وبهذا انتهت هذه الواقعة التى ابتدأ بها ضعف الفرنساويين الى الان وأعقبها القبض على نابليون ونفيه الى جزيرة سنت هيلانه ومات بها سنة ١٨٢١ .

## الرسالة الرابعة

### سياحة تحت الارض

توجهت الى مدينة شارلروا وهى جنوب بروكسيل على مسافة مائة ميل وهى عبارة عن بنيان منتظم لطيف الشكل حسن المنظر وقد أحاطت به من كل جهاته الفوريقات والمعامل : فهذه للاخشاب أو الحديد وتلك للصلب أو العربات الكهربائية وغيرها . وفى جوار هذه المدينة جبل به مناجم للفحم الحجرى وفى أعلاه كثير من المعامل التى أقيمت عليه لاستخراجه وهى تابعة لجملة شركات أهلية فتوجهت الى هذه المعامل بقصد التفرج على كيفية استخراج الفحم المذكور الذى له فى العالم شأن عظيم وسرت على هذا الجبل

نحو ساعة وهناك وجدت ابنية لطيفة فأرشدنى المرشد الى محل مدير احدي هذه الفاوريقات ويقال له منجم جران مونبورج وبعد السلام عليه قلت له ان أحد المصريين قد أتى ليزورك ويرجوك أن تسمح له بالنزول الى هذا المنجم وأظن انك تلبي طلبه لانه ربما كان أول طلب وجه اليك من مصرى مثلى . فاندهش الرجل من جرأتى وجسارتى وبعد ان أكرمنى دعا بوكيل ادارة هذه المعامل وأمره ان يقدم لى الملابس اللازمة ويلازمنى فى التفرج على كل المعدن وما فيه من الاعمال والعمال فلبى بالطاعة ثم أخذنى الى مكان فيه بعض الخادمات وأتى الىّ بملابس تامة من قميص ولباس ابيضين وبنطلون وچاكيتة من التيل الازرق وجزمة ضخمة وجورب سميك وطاقية من التيل برباط وبرنيطة من الجلد المتين لتمنع الرأس من ألم ربما ينتج من مصادمته بشئ ما . ثم قادنى الى مكان آخر به بعض الخادمات أيضا فأتى الىّ بمصباح أنير بالزيت وقد احاطت به زجاجة طويلة فنفخوا فيها ليملؤها هواء يسمح بتغذية السراج الذي وضع فيها ثم صعد بى الى مكان بوسطه بئر قطره ستة أمتار قد بنى تحت الارض على بعد ثمانمائة وسبعين متراً من سطحها ركبت عليه سلسلة عظيمة حديدية تحمل فى كل طرف منها جهازا يدخل فيه ست عربات من الحديد واحدة فوق الاخرى . وطول العربة نحو مترين وارتفاعها اكثر من متر وعرضها كذلك . فاذا كان أحد طرفى السلسلة صاعداً يكون الآخر نازلا والاول به العربات المملوءة من الفحم والثانى به العربات التى صار تفريغها وهى تنزل وتصعد بالبخار فجلست مع مرشدى فى مكان عربة مع التحفظ التام ونزلنا الى الطبقة السفلى من هذا المعدن ويبلغ عمقها ثمانمائة متر وأربعة أمتار وكان نزولنا بسرعة تامة حتى كنت اذا جعلت المصباح بجوار

عيني ونظرت الى جدران البئر كان يتهيأ لى اننا صاعدون لانازلون ومكثنا فى هذا السفر خمس دقائق وأربعين ثانية . وعلى رأس كل ستين مترا كنا نرى طبقة بها عمال وبيدهم مصابيح يشتغلون في استخراج الفحم من طبقاته . ولما وصلنا الى نهاية البئر المذكور وقف الوابور فنزلنا من عربتنا الى مدخل سرداب به سكة حديد ضيقة للعربات التى تنقل الفحم فسرنا به وسماؤه ملاصقة لرؤسنا بل لرأسى أنا فقط لانى كنت أطول من رفيقى وكان الظلام حالكا وسقف السرداب حابكا ولا يستطيع المرء أن يري مما بين يديه الا ما يكاد يلامس هدب عينيه والمصباح بجوارهما . وهذا السرداب ارتفاعه أقل من مترين وعرضه مثلهما أو يزيد قليلا وقد وضعت على طول جانبيه أعمدة من خشب على مسافة متر واحد من بعضها تحمل كتلا منه أفقية لتحفظ سقف السرداب من السقوط وبوسطها أنبوبة من الحديد على طوله قطرها نحو أربعين سنتيمترا قامت على حوامل من الخشب أيضاً وبها الهواء النقى الذى يأتى الى داخل هذه السراديب بواسطة آلة فوق سطح الارض تكبس الهواء النقى اليها من جهة وتطرد غير النقى من جهة أخري أعنى بعد ان نفد مافيه من الاوكسيجين الذي يصلح لتنفس مابه من نوع الانسان والحيوان . وبعد خمسين مترا وصلنا الى سرداب صاعد أقل ارتفاعا وعرضاً من الاول وقد حمل سقفه على خشب أيضاً مثل سابقه . فكنا نمشى فيه وقد أحنينا ظهورنا ثم انتهينا الى سرداب نازل ارتفاعه نصف متر فقط فى عرض متر وحمل سقفه على حوامل من خشب كسابقه فكنا نزحف فيه طورا على بطوننا وآخر على ظهورنا ولا زلنا نزحف هكذا نحو ثلاثين مترا أو يزيد حتى انتهينا الى سرداب اكثر منه ارتفاعا وفيه طبقة الفحم الحجرى كائنة بين طبقتين من الصخور وسمكها

لا يزيد عن ستين سنتيمترا وفيه أناس قد أماطوا لباسهم الا سراويل يسترون بها عوراتهم وقبعة من الجلد كالتى على رؤسنا تحمى رؤسهم من مصادمتها بسقف هذا النفق أو بما عساه يقع عليها منه . وفى يد كل واحد أزميل ومطرقة فيضع الازميل مائلا على قطعة الفحم ويدق عليه بالاخرى فتتساقط قطع الفحم على الارض . ومن خلفهم أناس يجرونه الى حيث يشحنه آخرون فى عربات صغيرة يدفعونها بأيديهم على قضبان حديدية الى نهاية هذا النفق حتى اذا أوصلوها الى نفق آخر كثير الانحدار ربطوها بحبال من الحديد وشدوا سلكا في نهايته جرس فتدور آلة فتسحب العربات الى ذلك النفق الاول المرتفع وهناك يربطون فيها حصاناً يجرها الى حيث يوجد البئر فيضعونها فى محلاتها مما يلى السلسلة ويحركون آلة تنبه العاملين فوق الارض الى تمام الشحنة فيديرون الآلة التى تسحبها الى سطح الارض وهكذا .

وطبقات الفحم متوازية وهى على الدوام تتجه من الجنوب الى الشمال فى جميع المعادن على شكل فروع شجرة . وكلما انتهوا من نفق الى نهاية فرع منها فحروا نفقا آخر يوصلهم الى غيره من جهة أخرى وقد رأيت من شكل وضعها بين الصخور على الكيفية التي شرحتها لك مايؤيد قول علماء الجيولوجيا ( علم طبقات الارض ) بأن الفحم الحجرى أصله شجر كان على سطح الارض ثم انقلبت به فى زمن الطوفان فغطته تحت صخورها فاحترق بالحرارة الكامنة فى باطنها وحفظت فيه مادته وغازاته لعدم وجود فوهة تصعد منها والله أعلم .

ويشتغل بهذه المعادن خلق كثير حتى أنه يوجد فى بعضها أكثر من سبعة آلاف عامل ومرتباتهم تختلف فالذين يشتغلون تحت الارض يأخذ

كل واحد منهم يومياً من ستة فرنكات الى اثنى عشر فرنكا والذين فوق سطحها من فرنكين الى أربعة . وبعد أن شاهدنا كل مافى هذه الطبقة من الاعمال انحدرنا الى بئر آخر فنزلنا فيه بواسطة آلة كالتى قبلها الى مسافة ستين متراً فوجدنا هناك أناسا ينقبون أنفاقاً فى الصخور موازية للتى فوقها لتوصلهم الى الطبقات الفحمية وهكذا ينزلون الى مسافة ثلاثة آلاف متر تحت الارض وهو غاية ماوصلت اليه هذه الطبقة الفحمية في جميع الاقطار لحد الآن وقد سألنى صاحبي عن بلادي فقلت انها مصر فقال أليس عندكم مناجم للفحم ؟ فقلت له لم نعثر على شئ منها الآن . فقال من الضروري ان يكون فيها مناجم كثيرة حيث انها في المنطقة المعتدلة ويلزم ان يكون بها الفحم على بعد سبعمائة متر على الاكثر . فدعوت الله ان يكون لكلامه أثر من الصحة وأن أرى مناجمها فى حياتى . ولم أطل الكلام معه فى ذلك لأنه حكم على الغائب .

وهذا المنجم يستخرج منه تقريباً ٧٠٠ طونيلاته من الفحم الحجري كل يوم وهى ولا شك ثروة يعرف قدرها من له أدنى علم بأثمان هذا الفحم الآن .

## ﴿ يومى الثالث فى بروكسيل ﴾

### ( مغارة هان « HAN » )

### ( أومدينة الظلمات )

قصدت هذه المغارة التى طار صيتها فى جميع الآفاق لزيارتها ورؤية مابها من عجائب الطبيعة" وهى من أجل الآثار الموجودة فى البلجيك بل فى الدنيا بأسرها . وهى واقعة" بين مدينتى رشفور وجامل المشهورة بمعادن

الرخام وقطعه وصقله . فركبت الوابور من محطة بروكسيل فى الصباح وقصدت « جامل » وهى منها على مسافة مائة وعشرين كيلو مترا ولما وصلتها وجدت فى محطتها عربة الامنيبوس فركبتها وهى تابعة لاحدى اللوكندات الموجودة بجوار المغارة فوصلناها بعد نصف ساعة وبابها فى منحدر جبل شاهق ينزل من مرتفع منه نهر ( ليس ) ثم يدخل فى المغارة على هيئة شلال ذى صوت مزعج ويختفى فيها تحت الصخور فدخلناها نحن أيضا من فوهة بجوار مصب النهر وهناك أوقد مرشدنا مصابيح أعطاها لخدمة المكان وسار كل واحد منهم بجوار كل زائر وكان معى ثلاثة رجال من أهل البلاد وجدتهم هناك قد أتوا لهذه الغاية . فسرنا نازلين تارة على سلالم نحتت فى الصخور وأخرى صاعدين ثم اتجهنا فى سرداب صغير ومنه الى آخر أصغر منه ثم الى أكبر منهما وكنا نسمع حولنا خرير مياه فروع النهر وقد حفرت لها طرقات فى الصخر حتى انتهينا الى شارع كبير فتخيل لى انما هى مدينة من مدن قدماء الرومان . أو عاصمة من عواصم حكومات الجان .

وكيف وهى مدينة ارضها الغمر . وسماؤها الصخر . وساكنها النهر . وطيورها نقط القطر . وجوها الوعر . ويومها الدهر . فلا مغرب ولا ظهر . ولا ضحوة ولا عصر . ولا أصيل ولا فجر . ولا يوم ولا شهر . ولا زيد ولا عمرو . ولا شموس ولا أقمار . ولا زهر ولا أزهار . ولا نبات ولا أشجار . ولا ديار ولا ديّار . الا من كان من الزوار . ظلام حالك . وضيق مسالك وانزعاج سالك . يرى انه لامحالة هالك . وقد نسى ماهنا وماهنالك . ولم نزل سائرين فى هذا الشارع تارة صاعدين . وطورا نازلين . على سلم من الصخر حتى انتهينا الى قاعة هائلة قد نحتتها يد الطبيعة بشكل يخرس عنده

اللسان . ويحار الجنان . ويقف اليراع . وتندهش له الابصار والاسماع . فرأيت فى جانب منها الاحجار . فى صور الاشجار . تجرى من تحتها الانهار . وفى الآخر قد أقامت هذه اليد القادرة معبداً امام محرابه تماثيل كوّنت من نقط المطر « stalaclites » التى تنزل من ثقوب كثيرة فى سقفها تتصل بظهر الجبل فتقع نقطة نقطة على بعضها فيتبخر الماء ويبقى ماتصل به من المواد الحجرية « stalagmites » فتكوّنت هذه التماثيل بطبيعة الحال على هذا الشكل فى آلاف من السنين وكأن هذا قد ركع وذكر . وذاك سجد وشكر . وكأن لسان الطبيعة من حولها يقول : أيها الانسان . ما كملك الله بالحكمة والعقل والجنان . وأمنك فى خوفك . وسلطك على خلقه بضعفك . وجعلني بين يديك . أقدم اليك ماتعلقت به رغبتك . ونفذت اليه ارداتك . لتكفر بنعماه . وتجعلنى أنا اياه . فيا أيها الذميم . ماغرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك . ورفعك وأسماك . حتى أنزلتنى غير منزلتى . وسموت بمكانتى الى مافوق طاقتى . وافتكرت أنى ولا نهاية . وقدرتى ولا غاية . فانظر كيف أقمت بيدي ذلك الهيكل فى هذا المحل للخالق سبحانه لأحيي به ذكره . وأقدس سره . وأكثر شكره . فعساك ترجع عن خلطك وخبطك . وتعرف انى بريئة منك ومن شططك . »

ثم اتبعنا طريقنا بين نزول وصعود على درج من الصخر حتى انتهينا الى سرداب ضيق لايسع الا رجلا واحداً وقد أثرت دولة الظلام على مامعنا من المصابيح حتى كنا نري ناراً ولا سناء . بل نوراً ولا ضياء . وقلب السراج يخفق خشية ورهبة فسرنا طويلا ونحن نتخبط ببعضنا . والخوف ملء قلوبنا . وهناك سمعت صوت مرشدنا يقول هذا يسمونه طريق العفريت .

فزاد الطين بلة . وازداد على الخوف وله . وما زلنا حتى وصلنا الى طريق واسع . وجوّ شاسع . فاطمأنت القلوب . وزالت بعض الكروب . ثم دخلنا الى قاعة هائلة يبلغ ارتفاع قبوتها ١٢٩ متراً وطولها ٢٦٠ متراً وعرضها ١٨٥ متراً يسمونها قاعة الملك وقد قام فى صدرها عرش على أعمدة كأنما تربعت الطبيعة على دسته ( وكل ذلك من ماء المطر المتحجر ) وهو غاية فى كمال الصناعة . وحسن الصياغة . وقد أحاطت بها العظمة والجلال . فنظرت اليها وقلبي ممتلئ خشية ورهبة فرأيت كأنها تشير الىّ قائلة : هذا محل عظمتى ومقر سلطتى . فكيف ترانى . وأنا فى سمو مكانى . وجبروتى وسلطانى . فانظر الى ضعتك امام هيبتى . واستكانتك تجاه عظمتى . وصغر رسمك . وضعف جسمك . تلقاء قدرتى . واعجابك الابدي بما صنعته يدى . مما يخفق عند نظره قلبك . ويحار لبك . ثم أجل نظرك فى حالك وحالى . وأعمل فكرك ولا تبالى . واحكم بما وهبك الله من العقل . وما اكتسبته من العلم والتجربة والنقل . هل ترى نفسك تحت سلطتى . وأسير قدرتى وقوتى . أو تجدنى من خدمك وحشمك . تنهرنى بفمك . وتطأ عظمتى بقدمك ؟ لاشك أنك تعجز عن الجواب . فانه حير قبلك أولى الالباب . نعم أقول لك أيها المصري ان ماتراه من سلطانى . وعلو شاني . هو دون سلطان عقلك ومكان حكمتك . اللذين وهبهما الله لك . فجعلت بينك وبينهما حجاباً كثيفاً من الكسل . يزداد كل لحظة بما عندك من ضعف الامل . فيبعدهما عنك حتى أصبحا الآن ولا يسمعان نداءك . ولا يبصران ماوراءك . فانتابتك الايام . ووطئتك الاقدام .

ثم سرنا فى طريقنا حتى وصلنا الى قاعة يسمونها قاعة الأثدية وفيها كثير من الاحجار المائية وقد تكونت على صورة ثدى المرأة تماما وهى بين صغيرة

وكبيرة فنظرت فاذا بينها على شكلها حجر عظيم جداً اكبر من حجم الانسان الضخم وقد أشرف على الجميع بعظمته . وأخذ الابصار بلمعان بشرته . فاندهشت من تكوينه من نقط المطر الصغيرة . وبينما أنا غارق فى بحار دهشتى سمعت كأنه يقول « لاتستبعدن وصولك الى مابعد عنك . ولا يهولنك أمر تتصوره فوق قدرتك . واجتهد في عملك . فمن جد حصل . ومن سار على الدرب وصل . ولا تعجبن من كونى تكوّنت مما فى ماء المطر من الذرات الحجرية . فان اهرامك التى تناطح السماء . وتعانق الجوزاء . انما بنيت على حجر قام عليه آخر وعلى هذا غيره فى أوقات مختلفة حتى تكوّنت وقد أدهشك مخبرها . وهالك منظرها . وماهى فى مبدإ الامر الا ذلك الحجر البسيط الذى لم تشرفه بالقاء نظرك اليه . واعلم ان الانسان لا يصل الى غاية الامل . بغير الدأب على العمل . فاذا سار كل يوم ولو خطوة واحدة لم يلبث ان يصل الى غايته . وما كل الامور فى أوائلها الا صغيرة فتصبح بالجد وهى كبيرة وليس من الممكن الوصول الى أمر جسيم مرة واحدة ولكن شيئاً فشيئاً . سنة الله فى خلقه الذى كونه فى أيام ستة . وما ذلك لعجزه عن ايجاده فى أقرب من لمح البصر ولكن . ليسن لك قانونا تسير على مقتضاه ارادتك وقدرتك المحدودتان » .

ثم اتبعنا طريقنا حتى وصلنا الى قاعة يسمونها قاعة الاعلام فنظرت فاذا على جدرانها وأرضها اعلام من حجر المطر يندهش النظر . وتحار الفكر . من حسن وضعها وجمال تنسيقها . ورأيت بوسطها علما كالثلج فى بياضه وكأنه قد رفعته امامى يد الطبيعة وهى تقول : لعل قارصات كلامى . وسهام وعظى وملامى . أثرت فيك أيها المصرى فنشطت من عقالك . ونفضت عنك غبار كسلك وخمولك . وسرت فيما ينتهى بآمالك . فها أنا اكف عن حربك .

ولا أقف عثرة فى سبيلك ودربك . وانى لاأقف امامك عند هذا الحد فقط بل أرفع لك هذا العلم الابيض استسلاما اليك . بل انعطافا عليك . فلعلك لاتثير عليك بكسلك عوامل غضبى بعد الآن . فسر فى طريق الحزم والعزم والمجد والجد والله هو المستعان .

ثم تركناها وسرنا فى طريقنا أوفى سردابنا وهنالك أخذت أفكر فى كيف ان تلك القاعات وهذه السراديب قد نحتتها يد الماء اللطيفة . فى هذه الصخور الصلبة الكثيفة . التى لاتقوى عليها عوامل الحديد . بالجهد الجهيد . وعجبت كيف أن النهر صدع الصخور . وجعلها بين منحوت ومنقور . ومقطوع ومشطور . ورسم فيها طرقات وقاعات . بين عاليات ومنخفضات ومتسعات وضيقات . وبينما أنا أمشى فى تيار هذه الافكار اذ ظهر لى منه لسان اشتد زئيره . ورعد خريره . وبرز ضميره . وهو كألاسد قد ثار غضبه . وتحرك ذنبه . وهجم على الواقف فى طريقه فقصم ظهره . وأباد أثره ولسان حاله يقول : أيها العاجز لاتغتر باللين . وتستسهل الهين . وتستوثق بالبين . فكم من لين بطش بيد من حديد . وهين يقف عند نواله العزم الشديد وبين ينسيك بتقلبه كل قديم وجديد . فلاتثق بصفاء الايام . واحذر بطشها بك بما لايخطر فى الاوهام .

وما زلنا فى طريقنا حتى وصلنا الى بحيرة قد كوّنها النهر قبل مخرجه من المغارة فركبنا زورقا صغيراً بها وسرنا متبعين تيار الماء ولم نشعر الا وقد اطفأ مرشدنا المصابيح . فهالتنا تلك الظلمات التى بعضها فوق بعض ولكنا لم نابث أن شاهدنا امامنا لسانا من النور قد انبعث من فم المغارة وكان بيننا وبينه خمسون مترا وكان يمثل ضوء القمر تماما . ففرحنا برؤيته . واستبشرنا

بطلعته . وكأنا قد انتقلنا من عالم الظلمات . بل الممات الى عالم الحياة . وكأنا بهذا النور وقد انعكس على صفحة الماء وهو متحرك بحركته يقول لنا : « النور خير من الظلام . الحياة خير من الموت . والحركة خير من السكون » وكأن فروع الاشجار التى على فم المغارة وقد انكسر ظلها على سطح الماء وقد تسنمت متون الامواج تتسابق لتهنئتنا بسلامة الوصول . وهنالك سمعنا صوتا تخيلت أن قد ارتجت له الارض . فى طولها والعرض . ودوى فى جوف المغارة ولا دوىّ الرعود . وزئير الاسود . فعلمنا انه مدفع صغير قد أطلق ايذانا بوصولنا الى مرفأ السلامة . وعند ذلك بارحنا مخرج المغارة ورأينا العالم الحى فانتعشت منا الارواح . وعلت أصوات الافراح . وانشرحت الصدور . وتبسمت الثغور . وخرجنا الى النور . بين عوامل السرور . تاركين ما اعترانا من الاكتئاب والاوهام . بين صفحتى ذلك الظلام . الذى بارحناه والحمد لله بسلام .

وكانت المدة التى امضيناها بداخل تلك المغارة ثلاث ساعات لان طولها فقط يبلغ نحو ١٥٠٠ متر تقريباً . وقد اكتشفت فى سنة ١٨١٨ ولم يعثروا إذ ذاك الا على مدخل واحد لها . وفى سنة ١٨٥٢ عثروا على مدخلها الثانى وهو الذي خرجنا منه وكانت فى مبدإ أمرها تابعة للحكومة البلچيكية فاشتراها منها البارون وسين سنة ١٨٥٥ بمبلغ ٤٥٠ ألف فرنك ومتوسط دخلها الآن ١٥٠ ألف فرنك سنويا وذلك من رسم الدخول فيها فان كل زائر عليه ان يدفع خمسة فرنكات . فاعتنى هذا الرجل بأمرها وأصلح طرقاتها وأدخل اليها النور الكهربائى وجعل عليه رسما آخر قدره فرنكان لمن يريد ان تناوله به . ولعدم كمال حظنا كان فى بطارياته خلل وقت زيارتنا لها ولكننا نحرم من

مشاهدة معالمها بواسطة الانوار التى كانت تنبعث من فتيلة من القماش مغمورة بالزيت يوقدها الخدمة فى كل قاعة من قاعاتها فتنير المكان بضوء لم يكن بأقل من الضوء الكهربائى . وبالجملة فهى أثر جميل كوّنته يد الطبيعة جدير بأن يقصده الزوار . من جميع الاقطار والامصار .

## ﴿ نبذة تاريخية عن حكومة البلجيك ﴾

كانت حكومة البلجيك فى سابق الزمان أرضاً يسكنها قبائل رحالة استولى عليهم الرومان فى حكم جول قيصر ومكثت تحت حكمهم الى أول القرن الخامس حيث استولى عليها الافرنج الذين أتوا وأقاموا بين مصبات أنهر الاسكو والرين والمين . وفى القرن الثامن دخل القسم الغربى من هذه البلاد تحت حكم شرلمان ملك فرنسا والقسم الشرقى تحت حكم المانيا ثم انقسمت الى عدة امارات ثم انضمت الى حكم شرلكان امبراطور النمسا والمانيا وملك اسبانيا فى مبدإ القرن السادس عشر . ولما تنازل عن ملك اسبانيا لابنه فيليب الثانى انضمت هذه البلاد الى حكومتها . وفى سنة ١٥٦٨ تخلص الجزء الشمالى من نير حكومة الاسبان التى أورثتهم الذل والانحطاط بعد ثورة عظيمة ابتدئت بعشرين ألف نفس وهذا الجزء هو المكوّن لمملكة هولانده الآن . وفى سنة ١٥٩٨ تنازل فيليب الثانى عن هذه البلاد الى ابنته الملكة ايزابلا التى تزوجت بالارشيدوق ألبير النمساوى وفى أيامهما ارتفعت المظالم عن عاتق البلاد فنسيت مصائبها وابتدأت فى الاشتغال بالمعارف والتجارة والصناعة والزراعة وقد كان حكم هذه الملكة مبدأ لسعادة البلجيك وفى أيامها كان روبنصون الرسام الشهير موجوداً وهو الذى وضع أساس

الفنون الجميلة بها ومات الملك ألبير المذكور من غير عقب فسقطت البلاد ثانية فى يد الاسبانيين سنة ١٦٢١ ومن ثم أخذت فى الهبوط والانحطاط . وكانت فى أثناء ذلك تتناوبها الحكومات وتتلقفها الايدى حتى صارت لحكومة هولانده فى سنة ١٨١٤ على مقتضى معاهدة لوندرة ومؤتمر ويانه وقد أطلق على الحكومتين اسم حكومة البلاد الواطية واستمرت تحت سلطتها الى سنة ١٨٣٠ وفيها قامت ثورتها المشهورة التى أعقبها استقلالها ثم شكل الاهالى مؤتمراتهم وأقروا على انتخاب البرنس ليوبولد ملكا على البلجيك وسلموه زمام المملكة فى ٢١ يوليه سنة ١٨٣١ . وفى ١٥ نوفمبر من السنة المذكورة امضت الدول الاوروبية معاهدة فى لوندرة اعترفوا فيها باستقلال البلجيك وقرروا فيها حدود كل من الحكومتين (هولانده والبلجيك) وأخذت فرنسا على عهدتها تنفيذ هذه المعاهدة فدخلت البلاد بجيش كثيف وحاصرت انفرس واستولت عليها وسلمتها للبلجيك ومن ثم رفعت هذه البلاد علم استقلالها وابتدأت فى ترقية جميع شؤنها من زراعية وصناعية وتجارية وعلمية حتى أصبحت وقد بلغت من الثروة والمدنية مبلغاً ماوصلت اليه الممالك الكبرى فى هذا الزمن اليسير . ومسطح هذه البلاد ٣٩٤٩٧ كيلو مترا مربعاً وعدد سكانها ستة ملايين وأربعمائة ألف نفس تقريباً وكلهم على الدين المسيحى ماعدا ثلاثة آلاف فانهم من اليهود .

وجيش هذه البلاد على مقتضى معاهدة لوندره لايزيد عن مائة وثمانية وثلاثين ألفا وقت الحرب وخمسين ألفا وقت السلم لحماية بلادها .

والسفن التجارية لهذه الحكومة يبلغ عددها ٦٠ سفينة تجارية وحمولتها ٨٠ ألف طن وعشرة شراعية وحمولتها ألف ومائتا طن وليس لها سفن

حربية . أما أخلاق أهلها على العموم فهى لين الجانب ولطف المعاشرة والاقدام على المشروعات الكبيرة مع الفكر قبل العمل والانكباب على كل مافيه خير لهم ولبلادهم . وهم ينقسمون الى قسمين : الطبقة العالية وهى التى امتازت بالتربية الحسنة فنمت عقول بنيها وزادت ملكاتهم وسطعت شموس معارفهم وانبعثت منها أشعتها الى من دونهم فأناروا لهم الطريق ومهدوا السبيل . والطبقة الواطية وهم قوم لا يعرفون الا العمل المادىّ وفيهم حب الشغل والاستماتة فى وطنيتهم وهم وان كانوا أقرب الى الحيوانية من فلاحى بلادنا فى الطباع والاخلاق ولكنهم يمتازون عنهم بما عندهم من قوة الارادة التى انما نحن خلو منها بالمرة وحسبهم ذلك اكبر رائد للخير والسعادة الابدية . وأهالى هذه البلاد يقسمون الساعة اليومية الى ٢٤ ساعة تبتدئ من نصف الليل فيقولون وقت الظهر الساعة ١٢ فاذا كانت الساعة الاولى أو الثانية بعد الظهر عبروا عنها بالثالثة عشرة أو الرابعة عشرة وهكذا الى الرابعة والعشرين وهى التى نعبر عنها بنصف الليل أو بعبارة أخرى بالساعة الثانية عشرة بعد الظهر . وربما كان ذلك من كمال اقتصادهم الذى سرت روحه حتى فى الكلمات فقد توفر به كلمتا بعد الظهر أو قبل الظهر وتوفر به أيضا السؤال عن القيد عند ذكر الساعة مطلقة وكذلك قولنا بعد نصف الليل ولم أر هذه الطريقة مستعملة فى سواها من بلاد أوروبا وهى ولا شك أمتن فى التعبير وأضمن فى تحديد الوقت .

## الرسالة الخامسة

### من بروكسيل الى باريس وتسعة أيام بها

ركبت قطار الاكسبريس من بروكسيل فى منتصف الساعة الثامنة صباحا فوصلنا فى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر الى باريس وكان القطار فى أثناء ذلك يمر بنا فى أراضى البلجيكا حتى اذا وصلنا الى المحطة التى فيها الحدود بينها وبين أراضى فرنسا أتى عمال الجمرك وفتشوا أمتعة الركاب كما حصل لنا فيما بين فينا وكولونيا وبين هذه وانفرس وقد ظهر لى ان أراضى فرنسا فى هذه المنطقة ليست منتظمة فى زراعتها ولا أعلم اذا كان ذلك ينسب لقلة خصوبة أرضها عن الاراضى التى على الطريق من تريستا الى انفرس أو ينسب لاهمال الفرنساويين لزراعتهم . فلما وصلت الى محطة باريس خفت ان أعثر من الشيالين على أحد النشالين . فأخذت شنطتى فى يدى وتبعت الناس الى حيث يخرجون . ثم سألت عن المكان الذي آخذ منه صندوق أمتعتى وكان فى عربة أخري من القطار فدلونى عليه وهو فى نفس المحطة فيممت صوبه وأعطيتهم البوليسة فأحضروه لى . وكان هناك خلق كثير يطلبون أمتعتهم مثلى . ثم ان عمال الجمرك سألونى عن وجود شئ معى للجمارك فأجبتهم بالسلب ولكنهم طلبوا الى فتح الصندوق ففتحته فلم يعثروا فيه على ضالة لهم والحمد لله فأحملته شيالا وخرجنا لنبحث عن عربة وكلما استدعينا عربجيا تلوح له على هيئتى أنى لست بكونت ولا برنس ولا خواجه فلا يريد أن يرد علينا بكلمة واحدة فاستمرينا على ذلك وأنا كالضائع قليل الحيلة لأنى لم يسبق لى زيارة باريس وما زلنا حتى عثرنا على عربجى ربما كان أقل حيلة منى فأخذنى

ومتاعى الى حيث أخبرته بمقامى الذي كان قد أعده لى فى بيت عائلة فرنساوية أحد اخوانى المصريين المقيمين فى هذه المدينة فلما عرفت به أودتى حمدت الله على سلامتى .

وكنت أفتكر انه بمجرد وصولى الى منزلى لا يكون الا مسافة ما أضع به متاعى حتى أيمم جهة المعرض الذى انشحن فكرنا باعلاناته منذ عشر سنوات وعلى الخصوص في هذه الايام الأخيرة ولكن واحسرتاه بمجرد مقابلتى بصديقى المذكور سألنى عن صحة سيدنا ومولانا الخديو المعظم فقلت له بخير والحمد لله . فقال لى ان الجرائد تقول عنه انه فى غير فراش العافية . فقلت تلك جرائد فرنسا وموضوعها فى ذلك معرض آخر يطول بنا شرحه . ولم أتم كلامى حتى ورد الىّ جواب من أحد اخوانى الذين بمعية جنابه العالي يخبرنى فيه بتوعك صحة الحضرة الفخيمة فأظلمت الدنيا فى عيني وكاد يذهب عقلى لمباغتتى بهذا الخبر المؤلم وهناك زاد على مرضى وبعد أن كنت بعلة مفردة أصبحت بألف وواحدة . فأرسلت فى الحال الى ذلك الصديق أرجوه أن يشفق بحالى ويخبرنى عن صحة سيدي بما علمه بها دأبه بالى . ويقلل من انشغالى بل حزنى وبلبالى . وكيف وهو حفظه الله ولى النعمة . وحياة الأمة . الذي ترجوه فى كل ملمة . أحب رعيته فمالت بكليتها اليه . ووهب حياته لخيرها فألقت بمقاليد حياتها بين يديه . بل كيف وهو الشهم العامل . والعالم الفاضل . الذي لا يألو جهدا فى تقدم مصره . حتي أصبح فى مقدمة رجال عصره . عرف بمحاسن كمالاته . وجلائل رغباته . فتعلقت به القلوب . ولا غرو فهو الأمير المحبوب . حرسه الله بعينه التى لا تنام . وبلغنا به غاية المرام . آمين

ولقد مكثت يومين وأنا أتقلب على جمر الانتظار . وأتجرع من يد المرض

كل مرار . حتى وافانى جواب صديقى يخبرنى فيه بأن الحضرة العلية تتقدم الى الصحة والعافية فلم اكتف بذلك وطلبت اليه أن يوافيني بما عساه يكشف الغمه . ويشتت من الكروب جيوشها الملمة . فأتى الرد بسرعة . بما انشرح له الصدر وقرت به العين . وهو تمام الشفاء . وكمال السرور والصفاء . فحمدت الله تعالى على ان كشف عنا ضرا . وساق لنا خيرا . وسجدت له سبحانه وتعالى شكرا . ولبست أنا كذلك ثوب العافية . وكأن نفسى تخاطب مولاها بقول القائل « اذا سلمت فكل الناس قد سلموا » عند ذلك فكرت فى زيارة المعرض العام الذي أمه الناس من جميع الأقطار والامصار :

## ﴿ معرض باريس العام لسنة ١٩٠٠ ﴾

دخلت هذا المعرض لاول مرة مع رفيق فرنساوى من المنزل الذى نزلت به وقد سبقت له رؤيته فاندهشت لواسع فنائه . وفسيح ارجائه . ونخامة مكانه . وعظيم بنيانه . وأخذنا نسير فى أكنافه نحو أربع ساعات وأنا صامت اللسان . فاقد الجنان . من كثرة مايقع عليه النظر . في كل لمحة بصر . من معروضات . هى من اكبر الآيات . تأخذ بالعقول . وتوقع الناظر فى ذهول . ولا يمكن للعقل ان يحفظ صورة منها فى خياله لانها انما تمر عليه مرورها على نظره الذى لا يرى له نقطة يرتكز عليها . حتى يصوب باشعته اليها . لأنه ان ظنها كالا بصر باكمل منها . فاذا أراد أن يتأمل فى هذا جذبه غيره اليه . فاذا رغب في الاقرار عليه . ارتاح لسواه ولم يلبث أن يستميله آخر وهكذا الى مالا نهاية له .

فلما رجعنا الى المنزل سألنى بعضهم عما شاهدت بالمعرض فكان جوابى

أبسط من سؤاله حيث قلت « رأيت المعرض ولم أر شيئاً » . وكان مثلى فى ذلك مثل رجل قام من نومه عقب منام طويل عريض رآه فأراد أن يقصه ولكنه لم يجد من معالمه فى خزائن ذهنه الا أنه رأي مناما ولم يتذكر منه شيئاً

ثم توجهت بعد ظهر هذا اليوم الى المعرض مرة أخرى ولكنى خرجت منه بعد أن سرت ثلاث ساعات ونصفاً فى أمكنته وبارحته وأنا ذلك الحائر، وفى اليوم نفسه اشتريت خريطة لادرس فيها وضعه الجغرافى حتى تسهل علىّ زيارته فتأملتها طويلا فوجدته قد وضع على ميدان شان دى مارس مما يلى ميدان الكونكورد ووضعه أشبه شئ بمناورة حربية أعنى على شكل قلب وجناحين . قسمها نهر السين الى قسمين غير متساويين . والقسم المهم هو الذى على ميسرة النهر فسهلت علىّ زيارته على هذا الشكل ولذا فانى أقص عليك شيئاً مما رأيته أو عرفته بالاجمال تاركا تفصيل ذلك الى أخى وصديقى الفاضل أحمد بك زكى سكرتير ثانى مجلس النظار وصاحب «الدنيا فى باريس» .

## ﴿ القسم الذي عن يمين السين ﴾

يحد هذا القسم نهر السين جنوبا ومن الشرق ميدان الكونكورد ومن الشمال شارع شانزاليزي وميدان ألما ومن الغرب ميدان التروكاديرو. والجناح الشرقي الشمالى منه يدخل اليه من باب عظيم فترى به قصرين عظيمين أحاطت بهما الجنان . من ذوات الازهار والافنان . فترى عن يمينك القصر الاكبر. وفيه الرسوم والتماثيل والصور. من كل ما أدهش وبهر. وفيه قاعات لجميع الدول التى اشتغلت بهذه الفنون الجميلة . والقسم الاكبر منها لفرنسا وقد علقت على جدرانه لوحات صور مختلفة الاشكال والالوان والاوضاع مما

عمل بالقلم الرصاص فقط ثم بالحبر أو بالزيت وقد شاكلت الطبيعة فى جميع حالاتها لولا ان هذه متحركة بروح من عند الله وتلك كأنها تتحرك ولا حراك وتتكلم ولا كلام وتتبسم ولا ضحك وتعيش ولا حياة وهذه الدقائق هى التى وحدها تميز بين عمل الانسان وصنع الخالق ولقد ترى فى معانى هذه الرسوم مايدلك على ميل صانعها مما يجعل المتأمل فيها يحكم على مكونها بصفته التى تقوم به من غير ماتعب ولا نصب .

فتري أغلب اللوحات الفرنساوية قد شخصت لك ربات الجمال . فى جميع الاوضاع والاشكال . بكل مايمكن أن يتصوره الخيال . أو يكتب أو يقال . من جمال ودلال . فتري هذه سهلة المنال . وقد اتصلت بصاحبها أي اتصال . وخيم عليهما الضلال . وترى تلك بعيدة النوال . صعبة الوصال . قد رمت قلبك بأقسى نبال . ونفرت نفور الغزال . وتركتك فى أسوإ حال . وأخرى تراها وقد تعرت عن الملبوس . ونامت نومة العروس . وقد فتنت النفوس . بجمالها المحسوس . وألقت بها فى بحار الحيرة والبوس . وغيرها تراها قد أماطت الثياب . وغطت ذلك الباب . من كفها بألطف حجاب . وأنست الاعراب سلماها والرباب . ثم لم تلبث أن يقع بصرك على عذراء قد خلعت العذار . فأخجلت الاقمار . وضحكت وجنتها من نضرة الازهار . وهزأ مرسل شعرها بسبائك النضار . وكأنها أخذت بمقاليد الاقدار . وفتكت بقلوب النظار . وتركتهم حيارى فى بحار الافكار . وقد أرسلت اليهم بأشد انذار . أنها لاتقبل الا من استرق لها من الاحرار . وأحسن الاعتذار . وأسرف بالقنطار . وهكذا مما جملت مناظره وأوضاعه . وكمل عمله وابداعه . مما يدلك على أن القوم وصلوا فى عالم الشهوات . الى مالم يصل اليه من فات . ولا

يبلغه من هو آت . ومع ذلك فانها تكشف لك عن لين جانبهم . وخفة حركاتهم . وسرعة خاطرهم . وسهولة أخلاقهم . وجاذبية أرواحهم وتفننهم في كل ماشاق وراق .

ويقرب منها فى ذلك معرض رسوم ايطاليا لولا أنه أقل جمالا وأخس كمالا مما يخبرك عما فيهم من دناءة الاخلاق وانحطاط درجتهم عن مماثليهم من هاتيك الدول الاوروبية ولكن لاينكر عليهم ماعندهم من قوة الارادة التى انما تغطيها يد الفقر والحاجة.

أمامعرض رسوم المانيا وانكلترا فترى به صورة نساء ورجال . قدأخذوا في مزاولة الاعمال . هذا يفكر . وذاك يدبر . وتلك تشمر . لعمل مبهر . وبين هذه صور قليلة مثل سابقاتها وان كانت أقل منها جمالا . وأكثر كمالا . ومن رآها وهى أقل صناعة مما أحاط بها من اللوحات الجدّية . حكم بأن الرسام تكلف فى رسمه . لانه ليس من شيمه وانما وضعها بين صور الحكمة والاحكام . لتكون كالسلطة بين الطعام . ومن ذلك يحكم الناظر المتأمل بأن القوم اتصلت أرواحهم بالعمل وسرى حبه في عروقهم . حتى امتلأت خزائن محفوظاتهم بصوره فسرت الى أقلامهم . فوضعوها على لوحاتهم. فهم لايعرفون غيره ولا يعرف غيرهم .

ويماثلهم في ذلك الولايات المتحدة . ويقرب منهم البجليك وسريسرا والنمسا . وقد امتازت هذه بالرسوم الطبيعية والدينية . وأعجب مارأيت في هذا المعرض هو القسم المخصص لليابان فان به من حسن الصناعة مايدل على تقدم القوم بسرعة زائدة في تيار المدنية ويجعلك تحكم بوفرة عقولهم . وسعة أذهانهم . وكمال معرفتهم.

وهذا القسم عبارة عن قصر بني على أحسن نظام وأكمل طراز ويشتمل على دورين ملئت قاعاتهما بهذه الرسوم ويحيط بالدور الاعلى صالون قد وضعت فيه رسوم المبانى الشهيرة وتصميمات عن مبان حديثة من أعجب مايصنع الصانعون . وفي حوش هذا القصر قد وضعت التماثيل من حجرية وصخرية ورخامية ومرمرية وبرونزية وهى تكاد تنطق بلسان فصيح يشهد لصانعيها بدقة العمل ووفرة الذوق وفى وسطها تمثال فكتور هيجو العالم النحرير . والكاتب الفرنساوي الشهير .

## ﴿ القصر الصغير ﴾

هذا القصر قدوضع أمام القصر الكبير الذى مر بك ذكره ويفصلهما عن بعضهما شارع عرضه نحو مائة متر وضعت فى وسطه زهريات أحاطت بفسقيات لطيفة جدا . وهو دور واحد وقد جمع اليه مجموعات أكابر القوم من نفائس الذخائر مثل سيوف مرصعة بالاحجار الكريمة وغيرها من الاشياء كخناجر وطبنجات وبنادق وعلب للدخان وللنشوق من الذهب الذى نزلت عليه المينا . وأطباق من الذهب والفضة ومجموعات النقود الفرنساوية كلها وما فى معنى ذلك . ومن هذه الادوات ساعة قد قامت على قاعدة من المرمر وقد أحاط بها ثلاث عذارى منه وقد رفعنها على أيديهن . ولهذه الساعة تاريخ عجيب : وهو أن أحدهم اشتراها بسبعة آلاف فرنك فاشتراها منه بعض الشبان من أغنياء الفرنساويين بثلاثين ألفا أو تزيد قليلا فنهره أبوه وأراد الحجر عليه لانه عد ذلك منه سفها . ولكن هذا الشاب لم يلبث ان طلبها منه رجل بمائة ألف فرنك ثم زاده آخر وآخر حتى أراد أحد الانكليز مشتراها بثلاثة

ملايين فرنك فكتب له الشاب يقول انى لاأبيع الساعة بأقل من خمسة ملايين وحيث انى وهبتها الى متحف اللوفر فيمكنك ان أردت الحصول عليها دفع هذا المبلغ اليه لتأخذها منه وهذا أعجب شئ فى أمر هذه الساعة التى لو أرادوا اعطاءها لى مجاناً ربما تأبى نفسى اذا تذكرت شدة الجمارك عندنا. وبالجملة فهذا المكان لم يكن له عندى كبير أهمية لانه ليس فيه شئ من الصناعات. وحديث المخترعات التى أقيم من أجلها هذا المعرض وفى المتاحف من أمثالها كثير وان كان هذا الرأى لا يراه غيري ولكن الاميال تتفاوت.

أما القلب من هذه الجهة فليس به مما يهم سوي مكان أقيم على هيئة أبنية باريس القديمة وقد سمى باسمها وفيه تشخيص بعض روايات ملوكها التى يدخل فيها ما كانوا عليه من العوائد والاخلاق. وبعض أمكنة لعمل البسكويت. وفيه لوكاندة دوفال وقد دخلت اليها لتناول العشاء مرة فوجدت الناس وقوفاً على باب الدخول اليها ينتظرون أدوارهم حتى اذا أتى دوري أخذت نمرتى ودخلت فوجدت بها ثلاث طبقات فى كل طبقة نحو ألف نفس جلوساً على الموائد يأكلون ويشربون والخادمات قد قمن بعملهن أحسن قيام وهن على غاية من النشاط واذا خلا مكان لاتمر عليه دقيقة واحدة حتى تراه انشغل بآكل آخر فاندهشت لسعة المكان ونظام الطعام ونشاط الخدمة مع كثرة الوافدين عليه وخرجت وانا معجب بما فيه من كمال الترتيب. الذي يتحير فى وصفه الاديب. اذ لايخفاك ان وقت البطون تتوه العقول.

أما الجناح الآخر فهو مكان معروضات المستعمرات الدولية وفي رأسه قصر التروكاديرو الذى شيد فى معرض سنة ١٨٧٨ وهو مكان عظيم البنيان. وطيد الاركان. سمى بهذا الاسم تذكاراً لاخذ الفرنساويين طابية التروكاديرو

فى حرب قادس باسبانيا سنة ١٨٢٣ وقد عرضت فيه فى هذه السنة مناظر كثيرة ( پانوراما ) من جزيرة مدغشكر . وعن يمينه معرضا تونس والجزائر وفيهما بعض صناعة هذه البلدان من الانسجة الصوفية والحريرية والسجاجيد والأكلمة والأحذية وبعض مصوغاتهم الفضية والذهبية وأنواع حاصلاتهم من بلح وقمح وشعير ومايماثل ذلك . وفيهما أسواق لمبيع كل هذه المعروضات وعارضوها من المغاربة بينهم كثير من اليهود . وقد رتبا على شكل جميل لطيف وان كان مافيهما ليس من الاهمية بما يذكر أو يشكر وقد أحاط بهما بعض محلات يشخصون فيها ألعابهم وأغانيهم ورقص بلادهم

ثم معرضا الهند الانكليزية والفرنساوية وفيهما ماشاق وراق من صياغتهم الفضية والذهبية التى تبهر العقول بدقتها ورقتها . أما منسوجاتهم الحريرية والقطنية فشئ يستميل اليه الانظار . وتحار فى جمال صناعته الافكار . ثم تماثيل من العاج وأشياء قد صنعت منه ومن خشب الصندل وغيره تبهر النظر . وتخطف البصر . بدقيق صناعتها . وكمال جمالها . ومن ذلك هيكل بوذى قد صنع من خشب الصندل ارتفاعه نحو ستة أمتار في عرض أربعة وفيه من الصناعة الخشبية الدقيقة ذات الاشكال أو البارزة مايقف عند تصور جماله الجنان . ويحجم لدى وصفه اللسان . وغير ذلك من الصناعات المدهشة التى تدلك على ماعند القوم من دقيق النظر وكامل الذوق والقدرة على العمل ممالايخرج عن هذا المعنى .

ثم ترى بجوار هذا كله محاصيل بلادهم من أخشاب هائلة اكسبتها الطبيعة لوناً جميلا ومنها الساج الهندي وهو كالأبنوس في سوداننا لولا أنه أكثر صلابة منه وخشب الصندل والجهان والتمر الهندى والصمغ واللبان

واللادن والتيل والحرير والقطن وقطن الحرير ومن معادنهم الفحم الحجرى والشب والاحجار المختلفة والاحجار الكريمة مثل الياقوت والعقيق والرخام والكبريت والمغنسيا والقصدير والصوان . وترى بين ذلك طبولا (نقاريات) كمائلاتها عند السودانيين . وقد شاهدت بين معروضاتهم محراثاً يشبه الذى عندنا تماما مما يدل على تأخرهم فى فن الزراعة مثلنا وربما كانوا أكثر تأخراً منا

## ﴿ معرض التركستان الروسية ﴾

قد عرض فى هذا المكان أنواع الحيوان المصبرة وكثير من جلود النمور والذئاب والنموس الكبيرة والثعالب السوداء والبيضاء والحمراء وغيرها . ومن صنائعهم البسط والسجاجيد الفاخرة والحرائر اللطيفة وقطع الاخشاب وعمل الاوانى النحاسية والصينية ذات الأشكال الجميلة ومصوغاتهم من الاسلاك الفضية والذهبية والملابس القصبية وهى شائعة عندهم وأحذيتهم من الجلد وتنتهى بعقب ( كعب ) طويل رفيع جداً قطره مما يلاصق الارض سنتيمتر واحد على الاكثر . ويربون عندهم دودة القز . ومن حاصلاتهم القطن الحريرى والقمح والشعير ويطحنونه فى طواحين الهواء التى رسمها على مثال ما عندنا منها . وقد رسمت فى صدر المكان على طوله صورة القوم في أسواقهم الاعتيادية وهم جلوس تحت مظلات بسيطة يبيعون ويشترون وهم يمثلون حالة الفلاح المصري فى سوقه . وعرباتهم تجرها الكلاب أو الخيل على الثلوج وقد رأيت أن الكلاب أقوى وأحسن لأن العربة يجرها كلبان أو ثلاثة من الخيل يتلو بعضها بعضا وقد ركب العربجى على الحصان الذى في الوسط حتى يمكنه ان يدير حركتها جميعاً . ومساكنهم من الخشب ولها أبواب ومنافذ صغيرة

وسقفها مائل من جهة واحدة .أما هيئة القوم فقد برزت وجناتهم الى الخارج وجبهتهم وعيونهم وحدبة أنوفهم وشفاههم كلها على مستوى واحد حتى انك لو وضعت عليها لوحا من الخشب انطبق على جميعها تمام الانطباق وعيونهم واسعة وافواههم كبيرة جداً بحيث اذا أنزلت خطا عامودياً من نهاية العين اتصل بنهاية الفم وهم يلوح عليهم سيماء الشجاعة مع سكون في الاخلاق وهدو في الطباع

﴿ محل مستعمرة كندا ﴾

وفيه كثير من أنواع الاسماك المصبرة والاصداف المائية كثيرة الاشكال والالوان وجلود الحيوانات بين صغيرة وكبيرة خصوصاً التياتل الهائلة والثعالب السود والحمر والذئاب الكبيرة والدباب السود وهى صغيرة الحجم. ومن أحسن صنائعهم الصناعة الخشبية من بيانوات لطيفة ومكاتب ودواليب وغيرها على الطراز الافرنكى وأشغالهم الحديدية عظيمة جداً جمعت بين المتانة ولطف الرونق. وصناعة الورق والدراجات والملابس الحريرية والقطنية مثل القطيفة والشيت وغيرهما والزجاج على أشكاله وألوانه . ومن حاصلاتهم التفاح وهو كبير الحجم جداً وأظنه أكبر وأحسن تفاح الدنيا . ومنها القمح والشعير والذرة والحمص . ومن معادنهم القصدير والنحاس والرصاص والحديد والفحم الحجرى والذهب وهو كثير فى أرضهم حتى انهم استخرجوا منه سنة ١٨٩٨ ماقيمته ١٩٫٧٦٧٫٥٤٠ فرنكا وفى سنة ١٨٩٩ ما قيمته ١٥٦٫١٦٨٫٢٢٥ فرنكا . وعندهم أشجار كبيرة حتى انى رأيت بمعرضها جذع شجرة يبلغ قطره مترين على الاقل

## ﴿ محل اليابان ﴾

قد أقامت حكومة اليابان لها مكاناً جعلوه أشبه بمتحف وضعوا فيه بعض آثارهم ولا يدخل فيه الا من كان معه تذكرة من القنصلاتو اليابانى أو كان من أرباب الجرائد ومعه صورته مكتوباً عليها اسمه واسم جريدته أو كان من العارضين الآخرين وقد أسعدنى الحظ فشاهدت السيد مصطفى بك الديب وكيل شركة المعرض المصرى فدخلت معه فوجدنا به دواليب وضع فيها كثير من ذخائرهم النفيسة فتري بدولاب علباً صغيرة من الذهب المتقن نقشه وعليه صور بعض الطيور وبالآخر سيوف قبضتها من الذهب وبعض چكمجيات من خشب الساج الهندى أو الابنوس ومن خشب الصندل وعليها نقوش يعجب من اتقانها الانسان وفيها بعض صور آلهتهم منها تمثال الاله نوو مصنوع من الخشب فى القرن الرابع عشر ثم تمثال الاله فيحون من خشب أيضا وصنعه في القرن الثالث عشر ثم تمثال الاله أوميدا وهو من نحاس وقد صنع فى القرن الخامس عشر ثم الاله ديزيرو المصنوع من نحاس كذلك فى القرن الثالث عشر . وفى قبالة هذا المكان دكاكين كثيرة للقوم يبيعون فيها مصنوعاتهم النحاسية والفضية والحريرية والقطنية والخشبية التى ربما رأيتها كثيراً بمصر وعجبت من حسن صنعها وجمال ابداعها

## ﴿ محل جزيرة سيلان ( سرنديب ) ﴾

وفيه كثير من جلود الحيوانات ومن حاصلات البلاد التى أهمها القرفة وهى أحسن نوعها فى الدنيا ويسمونها فى مصر دار صينى وقد شاهدت فيه منها مايبلغ طول القطعة الواحدة منه مترين أو يزيد والفول والشعير والقمح والبن

وجوز الطيب والخروب الامريكانى الذى يسمونه فانليا والشاي والكينا وجوز الهند والتيل واللبان والقطن. ومن حيوانات بلادهم الحلوف الكبير والقردة والفيلة والنمور والغزلان وكثير من صناعاتهم الفضية والذهبية أوالتى من الباغة

## ﴿ آلة بلچيكية لتنقية الذهب ﴾

وفي جوار هذا المكان مكان به آلة هائلة لتنقية الذهب من التراب الذى يلتصق به في معدنه وهى تابعة لشركة بلچيكية فيضعون التراب الذى معه التبر فى مكان منها فيخرج من آخر وقد خلا من كل مايشوبه فيحلونه ويجعلونه على هيئة قوالب طوب طولها ٤٠ سنتمترا وعرضها ٢٠ وسمكها ١٠ وثمن الواحد منها خمسمائة ألف فرنك . وقد حصلت الشركة بواسطة هذه الآلة من أفريقيا الجنوبية فى الفترة التى بين سنة ١٨٤٤ وسنة ١٨٩٩ على ماقيمته ٢٫١٤١٫٧٠٩٫٥١٨ فرنكا من الذهب الخام الذى تبلغ زنته ٦٢١٫٧٨٧ كيلوجراما وذلك من أرض غاية عمقها ١٤ متراً

فانظر أيها القارئ كيف أن العمل يجذب الثروة واحكم أنت من نفسك علينا وعليهم (١)

---

(١) لعلنا نشاهد قريباً بين ظهرانينا هذه الآلة تديرها يد الغربى الذى عثر بحثه وتنقيبه على معادن الذهب التى اهتم بها سلفاؤنا على ساحل البحر الاحمر من بلادنا وأهملناها نحن حتى قبض عليها ذلك الباحث العامل الذى لاتأخذه عن مصلحته سنة ولانوم بعدان أخذ من الحكومة المصرية امتيازاً بذلك . وقد أخبرتنا الجرائد أخيرا ان هؤلاء الباحثين عثروا على بئر قديم كان ابتناه آباؤنا فحفروه ووصلوا به الى هذه المعادن التى سيكون من ورائها لهم الفائدة العظمي ونحن نحن على عهدنا بانفسنا من الكسل والخمول ننظر اليهم بعين الآسف المحزون وغاية مايصل بنا جهدنا أنا نحوقل ونرجع على أنفسنا باللائمة من غير ان تحرك من سكوننا ونهب من رقدتنا .

## ﴿ منازل البوير ﴾

وبجوار هذا المكان هيئة منزل بويرى وهو بناء صغير يدخل من بابه الى فسحة صغيرة فى نهايتها المبطخ وبها بابان بجوار باب المنزل واحد على الشمال يدخل منه الى أودة صغيرة والثانى على اليمين يوصل الى أخري . وفى هذه باب يوصل الى دركة بها باب آخر للمنزل فى الجهة المقابلة لبابه الاول وسطحه من القش المندمج يميل من الجهتين حتى لايقف عليه ماء المطر وقد وضعت أخشاب فى حوائطه على بعد مترين ونصف من الارض وضعوا عليها أمتعتهم وهو غاية فى البساطة ولكنه أحسن وأصح بكثير من بيوت فلاحينا . والفرق بين المنزلين هو نفس الفرق بين الساكنين. فبيت هذا عبارة عن مقبرة دفن فيها صاحبه حياته وبيت ذاك يشعر بحياة القاطن به ومعرفته قيمة الصحة والعافية اللتين يبنى عليهما عمله وأمله

## ﴿ المعرض المصرى ﴾

وفى هذه المنطقة يوجد المعرض المصرى الذى أقامته شركة مديرها جناب فيليب بولاد السورى القاطن بالعاصمة المحروسة ووكيلها حضرة السيد مصطفى بك الديب التاجر الماوردى بالتربيعة فى مصر وهذا المعرض جميل منظره. سيئ مخبره وهو نقيض صفة المصرى الذي ان لم يعجبك قالبه . فقد تسرك طهارة قلبه . وهو مكوّن من محل عظيم للتياترو وفيه راقصات بين مصريات وسوريات وسودانيات مما أنت فى غنى عن وصفه . وبجواره وكالة تمثل لك قطعة من خان الخليلى أو مايماثله فيها دكاكين صغيرة يبيعون

فيها أشياء بعضها مصرية وأغلبها سورية بين أحزمة حريرية وأساور أو خواتم نحاسية أو فضية وبعضها مطلية بالمادة الذهبية وأشياء كثيرة من الادوات الصغيرة التى لاقيمة لها وليست المقصودة بالذات من ايجادها في المعارض التى انما تقام لتعرض فيها دقائق الصناعات . وغرائب المخترعات . ولطائف المبتكرات . ونافع المعلومات . وكل الذين يبيعون فى هذه الدكاكين من السوريين ولم يكن بينهم الا مصرى واحد من أقارب وكيل الشركة . وبجوار هذا السوق محل عظيم متقن الصنع جميل الرواء والبهاء على مثال هيكل من هياكل مصر القديمة وقد وضعت به طاولات نثرت عليها عينات من القطن المصرى بين أشمونى وعفيفى وسكرى . وفى جواره قهوة قد استأجرها أحد السوريين وبجوارها دكان لبيع الدخان أو السجاير المصرية . هذا هو المعرض المصرى الذى انما عرضت به أقبح صفات المصريين من كسل وخمول وضعة وقباحة أخلاق وتعلق بالملاهى وربما كان الذنب فى ذلك أدبيا عائدا على الحكومة التى ان أخلاها العقلاء من اللوم لعدم مساعدتها للشركة فهم لا يعذرونها فى عدم تنازلها بتعهد معروضاتهم .

فياحضرات العارضين أسألكم بحق الصداقة والصدق هل كان ضمن معروضاتكم شئ مما اشتهر به المصري من الصناعة الخشبية أو المنسوجات الحريرية المدهشة أو الصياغة التى تبهر رائيها بجمال صناعتها أو غير ذلك مما لا يفيد سرده وتعداده الآن

وهنا كلمة يجمل بى أن أسوقها لاخوانى المصريين وخصوصاً ممن يتشدقون على الدوام بذم الشوام القاطنين بمصر لأخذهم المراكز التجارية والادارية وانتقادهم على الحكومة في فتح طريق التقدم أمامهم : ان السورى لم يزاحمك

أيها المصري بدون حق فانه وجدك نائماً فانتهز فرصة غفلتك . ووثب الى ديارك فقيراً محتاجا واشتغل بكد وجد وحزم وعزم حتى تقدم عليك. ودانك لأذنيك . ثم أخذ مابين يديك من المتاع والضياع . تارة بحق وأخرى بخداع. ومنهم من قصد باب الحكومة فدخله صغيراً وعمل بنشاط واجتهاد فكبر وسبقك وقد كنت أمامه وأنت لاه عن عملك . قاعد عن سلوك طريقك . بل نائم عن حوادث وقتك . ثم أنت ترجع عليه باللائمة الآن وقد نسيت الافرنج الذين سبقوه الى هذا الطريق حتي استولوا على الديار والعقار. وكان الاولى بك أن تسكت عنه بلسانك. لانه جارك وقريبك والجار أولى بالشفعة والقريب أحق بالمعروف. فان أردت اللوم فلا تلم الا نفسك. لانك قعدت عن الدنيا بكسلك . فبعدت عنك. وقعدت عن الآخرة بسوء أدبك . وقبيح سيرك وسيرتك. فخسرت الصفقتين بسوء تصرفك ولا حول ولا قوة الا بالله

## ﴿ القسم الثانى وهو الذى فى جنوب السين ﴾

الجناح الاول : هذا الجناح يحتوي على قصرين هائلين ذوى طبقتين وقد شغلا كل ميدان قصر الانفاليد الذي يحدهما من جهة الجنوب ومن جهة الشمال نهر السين ومن الغرب شارع فابر ومن الشرق شارع قسطنطين وهما فيما يقابل القصرين الاكبر والاصغر اللذين مر بك ذكرهما ويصل مابينها قنطرة على النهر وهى قنطرة اسكندر التى وضع الحجر الاول منها نقولا الثانى قيصر الروسيا الحالى أثناء زيارته لباريس سنة ٩٦ حيث أقيمت تذكاراً لها ولم تتم الا في سنة ١٩٠٠ وعرضها ٤٠ متراً وطولها ١٠٧ أمتار وبجوار هذه القنطرة من الجنوب الشرقى للقصر الصغير باب المعرض الاثرى وهو الباب

العمومى له وقد أقيم على طول مدخله تماثيل كثيرة مختلفة الاشكال والاوضاع . والبناء الاول منهما وهو الذي على اليسار يسمى بقصر الصناعات الاجنبية وبه كثير من أنواع الصناعات المنزلية مثل موبليات ثمينة وأقمشة حريرية وتيلية وقطنية وصوفية من أجمل وأمتن وأحسن مايمكن ان يرى الراؤن . أويلبس اللابسات واللابسون . وقد حوى هذا المكان . كل مافى الامكان عمله لرفاهية الانسان . وبالجملة ففيه كل مايمكن ان يقر العين . ويلذ الاذنين وتتشوق اليه النفوس . من مصاغ ومتاع ومفروش وملبوس . على أفخر مااخترع المخترعون . وأجمل ماصنع الصانعون . فى جميع الاقطار . والامصار .

## ﴿ القصر الثانى ﴾

أما القصر الذى على اليمين فهو مثل الاول فى وصفه وموضوعه وربما كان أحسن منه . ولكنه خصص لمعروضات فرنسا من صنائعها وعمل أهليها وفيه كثير من أقمشة الملبوسات الباهرة . والمفروشات الفاخرة . والموبليات الثمينة والحلى النفيسة ( آخر موده ) التى تذهب اللب . وتأخذ القلب . وتستولى على الجيب . وبالجملة ففيه من جميع مايحتاج اليه الانسان . مما لايستطيع وصفه بلسان . أونعته ببيان . أوحصره فى جنان .

## ﴿ قلب المعرض ﴾

هو عبارة عن جملة مبان جميلة قد أقامتها الدول والحكومات التى اشتركت فى هذا المعرض . وهى على نهر السين وأولها من جهة الشرق معرض ايطاليا وبه كثير من الرسوم وتصميمات الابنية وبعض مصنوعاتهم

الحريرية والخزفية والزجاجية وغيرها .

ثم معرض تركيا وليس به مما يذكر سوى سجادة عظيمة مصنوعة فى الفاوريقة الحميدية على مثال التى أهديت الى امبراطور المانيا الحالى وقت زيارته للاستانة العلية سنة ١٨٩٨ من جلالة مولانا السلطان أمير المؤمنين حفظه الله . وباقى مافيه أشياء لاقيمة لها بالمرة صنعت من صدف كاكياس نقود أوأنصبة أقلام وغير ذلك من صناعة القدس الشريف . ثم أشياء قد صنعت من صفائح الحديد أو الفضة أو النحاس وبعض أقمشة حريرية شامية . وكل من فيه من الارمن والسوريين وبعض الباعة من النساء الشاميات أو الالمانيات أو الفرنساويات وقد تزيين بزي التركيات . وبالجملة فهو أقل بكثير من نظام المعرض المصري وان كان ليس بالاثنين . مايسر الخاطر أويقر العين .

ثم معرض الولايات المتحدة والنمسا وبوسنا وبريطانيا العظمي وبلجيكا والنرويج والمانيا واسبانيا والسويد واليونان والصرب ومن ورائها معارض الدانمارکا والبرتغال والپيرو والعجم وبلغاريا ورومانيا كل على حدته . وقد عرضت بها كل حكومة بعض صنائعها الجميلة مما يقرب من معرض ايطاليا ولالزوم لذكره حيث المعروضات التى يهمك الكلام عليها آتية فى مكانها من الجناح الثانى . ولكن لاأنسى أن أذكرك بأن معارض بوسنا والصرب وبلغاريا ورومانيا كانت أحسن نظاما وأجمل صناعة من معرض تركيا ولقد رأيت بها بعض النساء وقد جلسن على أنوال ينسجن عليها بعض الاقمشة الحريرية والسجاجيد وغيرها من أنواع التطريز الجميلة مما يستميل النظر ويرفع درجتهم فى النفوس ويمثل صناعتهم للمتفرجين .

## ﴿ الجناح الأخير وهو الكبير ﴾

هذا الجناح فى محل ميدان شان دومارس ( الذى هو للتمرينات العسكرية ) وهو أكبر وأهم الاجنحة الاربعة وهو فى مقابل مكان التروكاديرو ويحده من الشمال الغربى نهر السين ومن الشرق شارع بوردونييه ومن الجنوب شارع دلاموت وفيه المدرسة الحربية ومن الغرب شارع سوفون وفيه قرية على شكل قرى سويسرا قد أحاطت بها المناظر الطبيعية التى تشرح الصدر وتسر القلب وتبهج العين بمناظرها الطبيعية من جبال قد كستها الخضرة حلة نضرة ونزل منها الماء على هيئة شلال وغير ذلك مما سيأتى الكلام عليه في مكانه الطبيعى .

وهذا الجناح ينقسم الى قسمين عظيمين . أحدهما يحيط ببرج ايفيل الذى أقيم لمعرض سنة ١٨٨٩ قريباً من النهر وكله من قضبان الحديد المتماسكة فى بعضها بهيئة شبكة وهو أكثر آثار الدنيا ارتفاعاً اذ يبلغ ارتفاعه ٣٠٠ متر عن سطح الارض وهو يزيد عن ضعف ارتفاع هرم الجيزة الأكبر الذى لا يزيد عن ١٤٦ متراً . وهو مثبت فى الارض على أربع أرجل كل واحدة ارتكزت على قاعدة هائلة من الحجر تحيط بها الى مايرتفع عن أربعة أمتار وقاعدته على هيئة مربع كل ضلع منه ١٢٩ مترا وثلث تقريباً ومسطح القاعدة يبلغ ١٦٧٠٠ متر مربع وهو يرتفع بميل من جهاته الاربع مما يلى الارض الى الوسط وميله من أسفل الى أعلا بقدر ٥٤ فى المائة . وفيه ثلاث طبقات يصعد اليها بسلم من حديد فيه ١٧٩٢ درجة منها ٣٥٠ الى الطبقة الاولى و ٣٢٠ من هذه الى الثانية والباقى منها الى الثالثة . ويمكن للمتمرن الصعود بواسطة هذا السلم

فى عشر دقائق الى الطبقة الاولى وفى مثلها منها الى الثانية أما الطبقة الثالثة فيصعد الصاعد اليها بواسطة هذا السلم . ولكن هناك طريقة أخرى آمن وأحسن وذلك بواسطة آلة ترتفع بالكهربائية وهى عبارة عن عربة أشبه بأودة من قضبان الحديد محاطة بألواح الزجاج من جهاتها الاربع تسع نحو ثلاثين شخصاً أو أكثر وترتفع على أشرطة حديدية وضعت فى قلب البرج حتى تصل الى الطبقة الاولى التى ترتفع عن الارض بثمانية وخمسين متراً وهى مربعة الشكل أحاط بها سياج من الحديد المتين وطول كل ضلع منها ٦٥ متراً ومسطحها ٤٢٢٥ مترا وبها لوكاندات وقهاوى ودكاكين وغير ذلك . ثم تستمر الآلة الصاعدة الى الدور الثانى وهو مربع يقرب من نصف مسطح الاولى ويبعد عن الارض بقدر ١١٦ متراً وفيها لوكاندات وقهاوى مثلها ثم يصعد الى الطبقة الثالثة وهى على بعد ٢٧٦ متراً من الارض وهى أشبه بقاعة مربعة أحاطت بها شبكة واسعة من الحديد وقد غطيت جميع جدرها بالزجاج وكل ضلع منها ١٦ متراً وتسع ٨٠٠ نفس وعلى رأس هذه فنار عظيم ارتفاعه ٢٤ متراً والافق من قمتها يبعد الى ٩٠ كيلو متراً للنظر السليم . وبالجملة فهو أثر هائل جداً وهو تابع لصاحبه فى مصرفه وايراده الى سنة ١٩٠٩ وألطف منظر له وهو مضاء بالكهرباء فتراه قد وضع رجله في الماء ورفع رأسه الى السماء وأحاطت به ثريات الانوار الكهربائية كأنه قطعة من القبة العلوية انفصلت منها بما فيها من الشموس والاقمار لتكون وصلة بينها وبين العالم الارضى .

وقد أحاط بهذا البرج كثير من الابنية اللطيفة أذكر لك أهمها . محل السفر حول الارض ورسم الدخول فيه فرنك فاذا دخلته رأيت كأنك فى مركب فى البحر وكأنها تمر بك على المين المشهورة في العالم مثل البسفور

ومينا مرسيليا وبور سعيد ونيويورك وغيرها وكأنك تراها بعينك تماما وذلك لاتقان رسمها الذي يترا آي لك فى حقيقة جسمها بحدوده وهيئته الطبيعية. ثم تنزل من هذه الطبقة الى أخري فترى كأن المركب تسير بك بحركة حقيقية فى قماش قد أقيم أمامك يمثل لك البحر تماماً حتى كأنك أنت المتحرك بحركة مركبك وهو ثابت فتمر على مين ووابورات ومراكب وكلها تظهر للعين بمرآها الحقيقى وحركتها الحقيقية . ومما يثبت لك ذلك انه كان بجواري امرأة افرنكية مع زوجها وبينما كنت مندهشا من حسن اتقان هذا العمل سقطت المرأة الى الارض مما اعتراها من دوار البحر الموهوم فاستدعوا لها بطبيب قريب . فلما شاهدت ذلك قلت فى بالى « انج بنفسك أيها الغريب » وخرجت وانا في شدة الغرابة من هذا المشهد العجيب .

## ﴿ قصر النظّارات ﴾

وهو مكان أهم مابه تلك النظارة ( تلسكوب ) التى سمعنا بصيتها من زمن مديد وعهد بعيد وهى التى تريك القمر ( على مايقولون ) على بعد أربعة كيلومترات وقد عملوا بواسطتها رسوما لجملة أوضاع منه ترى بها جبالا ووديانا وبراكين ( جبال النار ) مطفأة وقد تجمدت على فوهتها مادتها البركانية وأنهاراً وبحارا جافة . وقد أثبتوا من ذلك ( والله أعلم ) ان هذه الانهار وتلك البحار كان بها الماء الذى يتلوه النبات مما يستدعى وجود الجو الذى يعيش فيه الحيوان فاختل نظام طبيعته لحادث غير معلوم .( وربما أخبرك به بعضهم ) فغارت المياه وتبددت كتلة الجو فى الفضاء فمات النبات وهلك الحيوان . وهذه النظارة ( على مابلغنا ) يبلغ سمك عدستها نحو مترو قطرها نحو

متر وربع صنعها أحد الفرنساويين وهى انما عرضت فى مكانها لمشاهدتها لالاستعمالها وحسبك رؤية أثرها الذى رسمه لك الراصد على ماشرحته لك وأنت حرّ فى تصديقه أو تكذيبه .

ثم تري بهذا القصر تأثير الكهربائية على العدسات فى انتاج الالوان والأضواء وتكبير الاجسام وتأثيرها على الكتابة بنقلها من جهة الى أخرى بمعنى انه لوكان بيدك قطعة كتب عليها شئ فانهم يرسلون عليها شعاعا كهربائيا ينفذ منها فيدخل فى عدسة تعكسه الى مسافة بعيدة بهيئة كبيرة وهو اختراع جمع الى أهميته لطف صناعته . ثم تري بها المرايا المختلفة فترى أولا مرآة محدبة وتحديبها رأسى وتشاهد بها الاجسام طويلة ورفيعة جداً عن حالتها الطبيعية ثم محدبة وتحديبها أفقى وترى بها الاجسام طويلة عريضة . ثم مقعرة رأسيا والاجسام بها قصيرة رفيعة ثم مقعرة أفقيا والاجسام بها قصيرة عريضة . وهى من لطائف الطبيعة .

وفى هذا المكان أودة قد أقيمت بها مرايا مختلفة الوضع حتى يتخيل لك من انعكاس أشعتها فى بعضها أن قد اتسع امامك الفضاء الى مالا نهاية له فتمشى غير مكترث لتوهمك عدم مانع فى طريقك فما تشعر الا وقد التصق انفك بمرآة فترجع الى جهة غيرها وقد امتد الجو امامك وبمجرد ماتمشى بعض خطوات تستوقفك مرآة أخرى ولا تزال هكذا حتى تتبع صوت الخارجين الذين عثروا على باب المكان بين ضجة سرورهم كأنهم تخلصوا من تيه لانهاية له فى رجة ضحك وهزة اعجاب . وبه أودة كلها من قطع المرايا الصغيرة اذا دخلتها بمفردك وجدت فى جهاتك الست صورتك ولا حصر لها حتى يتخيل لك أن العالم من بنى آدم قد جمع فى شخصك ودار من حولك يرى بعينك

ويشاهد بنظرك .

﴿ قصر النور ﴾

وهو قصر يصعد عليه بدرج من الزجاج وضعت تحته مصابيح كهربائية وله دربزين كله من الزجاج وقوائمه منه أيضاوهى مفرغة داخلها جملة مصابيح ويصعد منها الى أودة مسدسة الشكل حوائطها مكونة من طبقتين من البلور الملون وبين طبقاتها الثريات الكهربائية وفى نهاية كل ضلع عمود بلوري مفرغ القلب وفيه كثير من المصابيح المذكورة يتلو بعضها بعضاً . ثم يرتفع على هذه الاعمدة السبعة قبة عليها تاج وهما من الزجاج يتخللهما ثريات الكهربائية فاذا غربت شمس النهار . سطعت هذه الانوار . بما يخجل الاقمار . ويأخذ بالابصار . فترى المكان كأنه قطعة من نور أونار .

وداخل هذا المحل قوم يصنعون الماس الكاذب من قطع البلور وقد عملوا منه كثيراً من المصاغ يبيعونه على المتفرجين وفى أسفله مغارة يمثلون بها عمل الأوانى الزجاجية فى الفاوريقة التى أقامت هذا المكان ولقد عجبت من حسن الأوانى التى يصنعونها وجمال منظرها . وكمال اتقانها . مع سرعة عملها مما تذكرت معه معمل الزجاج الذى أقامته في الاسكندرية من عهد قريب شركة . . . ولم يمض عليه زمن يسير حتى رأينا فى أفق أملنا فيه صورة عدم نجاحه الذي تسبب عن سوء ادارة القائمين به وهكذا عمل المصرى ولاحول ولا قوة الا بالله .

ثم ترى بجواره أمكنة كثيرة للقهاوى والمطاعم والتياترات وغير ذلك

## ﴿ معرض الآلات ﴾

وهو مكون من بنائين هائلين أحدهما تجاه الآخر يربطهما من الجنوب قصر الماء وهو عبارة عن بناء يخرج منه الماء من ارتفاع خمسة أمتار وينزل على هيئة شلالات منتظمة ثم يسير الى فسقيات بها كثير من النوفرات . وأحد هذين البنائين وهو الواقع جهة الشرق كان لمعرض سنة ٧٠ لتعرض فيه الآلات أيضا وحفظ للآن . وطوله ٤٢٠ مترا وعرضه ١٥٠ مترا وارتفاعه ٤٨ مترا وقد أقيم من كتل الحديد وهو دور واحد . أما الجزء المقابل فلا يختلف عنه الا فى عرضه الذى هو ١١٤ مترا وكونه ذا طبقتين . وبينهما مما يلى قصر الماء فناء عظيم على طولهما الى برج ايفيل وعرضه نحو ٢٠٠ متر وقد نثر فيه مالا يحصى من الكراسى لراحة المتفرجين حول غياض أنيقة تعطر الجو بريحان عبيرها . فدخلت هذا المعرض من الجهة الغربية شمالا . وأول مارأيت مكان فسيح يقال له معرض الغابات وبه كثير من قطع الاشجار وجذوعها وفروعها المختلفة النوع والكثيرة الالوان وبجانبها الآلات التى تستعمل لقطعها ونشرها ألواحا وكتلا . ثم جميع الحيوانات التى تسكن الغابات مصبرة وقد وقفت منا موقفها الحقيق فى أوطانها هذا نائم وذاك قائم وغيره رابض وسواه مستعد للوثبة على من وقف أمامه . ثم مكان وضع به كثير من الاخشاب التى وضعها النجارون فى صور مختلفة من كراسى وموبليات وغير ذلك وهى غاية فى جمال الصناعة واتقان العمل . وفى جوارها آلات لصيد السباع من فخاخ وشباك حديدية واشراك مختلفة لكل نوع من الحيوان.

وبه أيضاً معرض صيد الاسماك وفيه جميع أنواع الشباك والسنارات وغيرها مما يتعلق بصيد البحار .

وبجوار هذا المكان معرض التربية والتعليم وفيه كثير من المشروعات الجديدة لتسهيل التعليم وعدد عظيم من المجموعات العلمية التى تتركب من الورق أو الخشب يتعلم الطفل منها تركيب الاشكال الهندسية وبناء مايؤمر بتشييده منها وهى تربى الفطنة وتنمى الذكاء مما لانعرفه فى بلادنا وربما لم نسمع به واذا رأيناه ضحكنا منه لجهلنا به ومن جهل شيئاً عاداه .

ثم معرض آلات النقل وبه كثير من أنواع الوابورات والعربات من بخارية وكهربائية وغيرها مما لاعمل لنا به ولا يهمنا أمره لان البلاد الاوروبية وخصوصاً الانكليزية والامريكية والبلجيكية تعهدت والحمد لله بتوريد مايلزمنا منها وكفتنا مؤنة التعب والنصب جزاها الله عنا خيراً .

ثم معرض الآلات الميكانيكية مما له علاقة بما قبله وتندهش لمرآه . وأنت لاتعرف معى شيئاً من مبناه .

ثم معرض الحاصلات الزراعية من حبوب وفواكه وما يتحصل منها كالدقيق والمربات والزيوت والحاصلات الحيوانية من أوبار وأصواف وريش وغير ذلك مع آلات عملها وصنعها .

ثم معرض الآلات الزراعية من محاريث وقصاصيب ومحشات من حديد وآلات لاستخراج الغلال من عيدانها دون ان يدرس القش وهى المستعملة فى أوروبا وتونس والجزائر . وأخري للدراس والتذرية وغرابيل ومدشات وغير ذلك مما ترى أكثرها فى معرضنا الزراعى المصري . ولقد كان يجدر بى ان أبحث فيها كثيراً لاشتغالى بالفلاحة لعلى أفيد القراء بما ينفع بلادنا منها ولكنى

رأيتها مصنوعة على مايوافق أراضيهم الحجرية الصلبة التى انما عليها طبقة رقيقة من مادة ترابية بيضاء أوصفراء اومائلة للسواد من كثرة الاسمدة وقد تنفع عندنا اذا عملت بحالة تناسب أرضنا السوداء المندمجة السميكة المرطوبة التى اذا نزل عليها قليل من الماء تلبكت واستحال على هذه الالات السير فيها

ثم مكان يمثلون به عمل الحلوي والشكولاتا وعمل المشروبات الروحية وتقطيرها مما لاعلاقة لى به

ثم معرض الكهرباء وهو خلف قصر الماء وبينهما قائمة هائلة لمرقص أيام الاعياد وهى تسع ٢٥ ألف نفس . وقد عرض به كثير من الآلات الكهربائية ومايتعلق بها كمراوح ولمبات ومصابيح مختلفة الاشكال والاوضاع وبطاريات وأسلاك وأزرار وتليفونات متنوعة وآلات وتلغرافات متغايرة

ثم مكان للمطابع وفيه شئ كثير من أنواعها . هذى تسير باليد وتلك بالبخار أوالكهرباء . وأحسن مارأيت فيها مطابع كبيرة وبجوارها آلة لترتيب الحروف وقد وضع أمام العامل عليها لوحة أفقية بها رسم الحروف الهجائية على ماتراه فى التيبريتر فيضغط العامل على الحروف المقتضى جمعها بسرعة عظيمة فترتفع بها آلة بنفس هذه السرعة وتضعها مرتبة فى مكان مخصوص بالقرب من المطبعة فيأتى الطبيع ويأخذها مجهزة ويضعها مكانها من آلة الطباعة ولا يخفاك مافى ذلك من السرعة والسهولة وتوفير الزمن وقلة العمل . وبجوارها آلة كهربائية لتجليد الكتب تشتغل عليها امرأة انكليزية بسرعة هائلة .

ثم معرض عربات الاوتوموبيل وهى إما على هيئة دوكار أو كومبيل أوهنتور أوغيرها تسير بالكهرباء أو البترول أو البنزين وهى مع ماوصلت اليه من الاهمية العظمى لسرعة سيرها الذي يبلغ نحو الاربعين كيلو متراً فى الساعة

الواحدة. فانها سريعة العطب كثيرة الخطر وهذا يكفيك فى عدم وصولها الى منتهى تحسين صنعها .

ثم آلات التيپريتر (آلة الكتابة باليد) المختلفة الوضع أو الشكل ولقد رأيت نساء يطبعن بواسطتها اعلانات تجارية وكأن اصابعهن وهن يشتغلن عليها آلات تديرها الكهرباء أو البخار لسرعتها التى تدهش الانظار وهناك تذكرت مع الاسف الشديد الآلة التى اخترعها من هذا النوع صديقى الفاضل الشيخ احمد الازهرى المصرى للكتابة باللغة العربية وسرقها منه من أثمنه على سرها وقبل أن أراد اخراجها من حيز الفكر الى حيز العمل فلم أقف لها على أثر . وكنت أود لو انه لم يفرط فيها حتى كانت تعرض هنا باكورة للاختراعات المصرية . فنثبت للوجود . ان الخير فى مصرنا موجود .

ثم معرض آلات الحكمة من جراحية وتشريحية وباطنية وغيرها والآلات الفلكية والكيماوية والطبيعية . ثم الجواهر الكيماوية والمعدنية

## ﴿ معرض الآلات البخارية ﴾

من ثوابت ولوكوموبيل مما يدور بالفحم أو البترول أو بواسطة الكهرباء وهى أهم ما فى المعرض بتمامه وقد قسمت الى جملة أقسام : القسم الاول لفرنسا وفيه كثير من الوابورات الثوابت وغيرها وأعظم قوة وصلت اليها ٢٠٠٠ حصان.

القسم الثانى للولايات المتحدة وليس به شئ يذكر لأن جميع الآلات الكبيرة التى صنعت على ذمة المعرض غرقت مع المركب التى كانت تحملها الى فرنسا وربما كان بها من عجائب الصناعة وغرائبها ما كان يغطى على مماثلاتها

فيه لما اشتهروا به من كثرة الابداع والاختراع الذي رفعهم فى زمن يسير الى أوج الحضارة والمدنية التى وصلوا الى نهايتها وربما تركوها الى الطرف المقابل لها اذا استمروا على تعلقهم بحب الاستعمار الذى هو ولاشك يوقف تيار تقدمهم فى علومهم وصناعاتهم التى ترجع عليهم بل وعلى العالم كله بجزيل الفائدة والمستقبل كشاف الحقائق. وأحسن ماشاهدت بهذا القسم فونوغرافات عظيمة لها أبواق كبيرة تمثل الصوت الحقيقى تماماً.

القسم الثالث للبلاد الواطية وبه بعض الآلات وأغلبها بين لوكوموبيلات ورفاصات بحرية وطلومبات مائية.

القسم الرابع للسويد وبه كثير من آلات قطع الخشب ومنها آلة تدور بقوة خمسة وعشرين حصاناً وتشتغل فى الدقيقة الواحدة خمسين متراً من ألواح الخشب.

القسم الخامس لايطاليا وبه كثير من الآلات وبعضها تدور بالكهرباء وغاية ماوصلوا اليه قوة ١٢٠٠ حصان

القسم السادس للروسيا وفيه بعض آلات وبعضها كهربائية وأكبر قواها ٣٥٠ حصاناً.

القسم السابع لانكلترا وهو أكبر الاقسام كلها وأكثرها معروضات من لوكوموبيلات وثوابت هذا يدور بالبترول وذلك بالفحم وآخر بالكهرباء وآلاتها تبتدئ من قوة نصف حصان الى ثلاثة آلاف وخمسمائة حصان ومشاهدتك هذا المعرض فقط تنبئك عن تقدم القوم ومثابرتهم على العمل والاختراع.

القسم الثامن لالمانيا وقد حوى من الآلات ماقل عدده وكبرت عدده

وعظمت فائدته وجسمت قوته وأهم مابه آلتان بحريتان ( للمراكب ) تدوران بالكهرباء وكلتاهما أكبر آلات المعرض كله بل آلات الدنيا بأجمعها ولقد اشتهرت بهما ألمانيا فى هذا المعرض الفرنساوى حتى أصبحت فى مقدمة جميع الدول اختراعا فى نوعهما وهذا مايثبت لك قوتها التى تذكى نارها على الدوام مباراتها لفرنسا وغيرتها منها ووقوفها أمامها موقف المتحفز للوثبة المنتظر سنوح الفرصة . والالمانيون وان كانوا أصحاب ارادة ثابتة ورغبة شديدة وأعمال جسيمة فالفرنساويون ذوو ارادة قوية ورغبة لطيفة وأعمال ظريفة

ولقد كنت أري الناس من جميع الجهات قد أحاطت بهذه الآلات للبحث فيها والاطلاع على دقائقها لعلهم يقفون على سرها المكنون ويعرفون كيف تتولد هذه القوة الكبيرة من تلك الآلة الصغيرة . أما أنا فما كان يهمنى نفس هذه الآلة لان عينى لم تقع منها الا على طارة من زهر تحركها قطع من الحديد متماسكة ببعضها ولا أعلم من أمرها شيئاً وكأنها منى مكان زيد من قول القائل

أيها السائل عنهم وعنى * لست من زيد ولا زيد منى

وكيف وأنا هذا المصري الذى قلت معلوماته وكثرت آلاته المتوقفة عليها حياته فانك أينما سرت على النيل وفروعه ترى عليها آلات لايحصيها الا الله لترفع المياه الى أرضه التى هى مصدر ثروته بل وسبب وجوده . فغذاؤنا متوقف عليها كما أن عيش الأوروبى ليس مرتبطا بأرضه لان الطبيعة حملت عن كاهله هذا العبء الثقيل فتسقى زرعه بالامطار كلما اقتضت الحال واذاً فالآلات عنده من الكماليات أما عندنا فمن الضروريات وكان الأولى بنا أن نكون نحن المخترعين لها المتقدمين فى ميدان صنعها وابداعها أو على الاقل فى تحسين ماأبدع منها أو تقليده ولكن خالفنا ناموس الطبيعة ولم نتتبع سنن

الحياة لان المضطر يخلق الطرق ويبتدع السبل الى مايسد به حاجته فأغفلنا كل ضروري لنا وأضررنا بذلك أنفسنا ورمينا بها الى أحط درجات الحيوان . واشتغل هو بالكماليات فكمل سعده . واخترع المخترعات فاشتريناها منه بثمن عزيز . راضين أن نعيش متطفلين على مائدة عمله وبحثه فى ذل مقيم . وهوان مستديم .

ولو سألت أحدنا عن سبب هذا السبات لاجابك على الفور بأن جو البلاد له تأثير علينا فكما أثر على الاوروبى وحركه للعمل أثر على المصري بالكسل ونسب هذه الرذيلة الى الطبيعة وتفلسف فيها واكثر من خلق الاعذار . ناسبا فشلنا الى الأقدار . وكسلنا الي وضع الديار . ولو كان يعلم أن اليابان (تقريباً) وما يقابلنا من بلاد الامريكان فى منطقة ديارنا . وجوها جو مصرنا بل أكثر حرارة منه ونظر الى يقظتهم ونومنا . ونشاطهم وخمولنا . ورفعتهم وضعتنا . وعرف أن النسبة بينهم وبيننا هى نفس النسبة بين الرأس والقدم . بل الوجود والعدم . لألجم لسانه . وسحب برهانه .

أولو كان يتفضل بمراجعة تاريخ مصره لرأى أنها كانت في عهد قدمائنا منهل العلوم الذي كان يرده أبناء العلم من انحاء العالم ومركزا المصناعات التى سهلت سبيل الحياة على بنى الانسان فى كل صقع ومكان . فهى منبع المدنية والحضارة وهى أول بلاد ظهرت شمس المعارف فى أفق مجدها ورفعتها أيام كانت أوروبا فى ظلمات حضيض جهالتها ووضاعتها . وهمجيتها ووحشيتها . وجو بلادنا هو هو بعينه بمكانه في المنطقة المعتدلة كما أن جو أوروبا لم يتغير

ولكنما تغيرت طباعنا . وتبدلت عوائدنا . وضعفت عزائمنا . وماتت هممنا وانعدمت ارادتنا . فخاب الأمل . وخاصمنا العمل . وأصبحنا نقاد بيد

من حديد الى تهلكتنا . ونساق بعصا من نار الى مقبرتنا . من حيث لانشعر وثغرنا يضحك مفترا عن ثنايا وأضراس كان الاولى بنا ان نقطع بها أصابعنا التى التوت عن العمل ونذرف الدموع من عين بصرنا الذى نام عن صالحنا . بل من عين بصيرتنا التى عميت عما فيه الخير لنا .

## ﴿ معرض آلات الغزل والنسيج ﴾

وهى آلات جمعت بين بساطة العمل وسهولته ودقيق الصناعة وغرابتها . فآلات الغزل تدير الواحدة منها ستمائة مغزل فى آن واحد ويلاحظها رجل واحد . وهذه الآلة تدور بواسطة سير رفيع ركب طرفه على طارتها والطرف الآخر على عمود يدير جميع الآلات التى من حولها بواسطة آلة بخارية . أما آلات النسيج فهى أكثر بساطة من سابقتها وهى عبارة عن أنوال كل واحد منها يدور بالحالة التى تدور بها آلة الغزل السابقة فترى هذا النول لعمل الاشرطة الحريرية المنقوشة ولقد وجدته يشتغل أربعين شريطاً فى آن واحد ويلاحظه رجل واحد . وترى ذلك لنسيج الاقمشة الحريرية وعمليتها غاية فى البساطة فالتى تشتغل فى الخامات تعمل وحدها ولا لزوم لملاحظتها والتى تعمل الاقمشة كثيرة الالوان أمامها فتاة تلاحظ ادارتها حتى اذا قطعت الفتلة مثلا وقفت الآلة من نفسها فتربطها هى فاذا وصل العمل الى منتهى اللون الجارى تشغيله واقتضى وضع لون آخر أخرجت مكوكا ووضعت غيره بأسرع من لمح البصر . فعجبت لسهولة هذا العمل ووفرة مايتحصل منه فى قليل من الزمن مع مافيه من راحة العامل واتقان الصناعة وكنت قبل ذلك أفتكر ( كغيرى من بنى مصر ) أنه لايمكن عمل هذه الاقمشة الا بواسطة فاوريقات

تستدعى القناطير المقنطرة من الذهب والفضة لاقامة واحدة منها .وعندذلك تذكرت غوريتنا وما بها من دكاكين الانوال وتذكرت ذلك المصرى وهو جالس أمام نوله وقد انحني عليه وأحدق بنظره الى مابين خيوطه وهو يضرب مكوكه بيده اليمنى من الشرق فتتلقفه اليسرى من الغرب وحركة رجليه مكافئة لحركة يديه فاذا عمل قليلا وارتاح كثيراً من شدة ما كابده من التعب والنصب نظر آخر يومه الى اللحمة والسدى فيرى بعين حسرته انها كأنما كانت تتحرك على نفسها ونظر الى ماشتغله من شريطه المنسوج . أو قماشه المدروج . فيري أن قيمته لاتكفى غلة يومه فيقفل دكانه ويتوجه الى مسكنه كئيباً حزيناويجتمع بأهله وجيرانه فيشكو لهم قلة المال . وكساد الحال . ولا يزال يبكى ويبكى القوم . حتي يأخذه ويأخذهم النوم . وفى الصباح يتوجه الى دكانه والعمل لايتقدم. والحال لايتغير : صنع شاق . ووقت ضائع . وعمل ولا أثر . وكسب قليل . وحياة تعيسة .

ولا أدرى لم لايهتم الاغنياء من أصحاب معامل الغزل والنسيج عندنا فى استجلاب هذه الآلات البسيطة لعمل مااشتهروابه من القطنيات والشاهيات وغيرها فان ذلك لايكلفهم الا مصاريف قليلة فيحضرون منها أولا منسجاً واحداً تديره آلة بقوة حصان أوحصانين كما يفعل أصحاب معامل الدخان بمصر فاذا نجحوا فيها امكنهم أن يزيدوا عليها شيئاً فشيئاً فلا يلبثون حتى يكون عندهم فاوريقة من أكبر الفوريقات من غير مايشعرون الا بالثروة الطائلة التى تنالهم منها . ورب معترض منهم يقول مايؤلم سمعى بعباراتهم الوهمية . واعتذاراتهم الهوائية . من أن الحكومة تقف فى طريقهم متهمها باعتراضها كل مشروع وطنى فاذا سألته بالله أي مشروع من هذه المشروعات الوطنية

المفيدة وقفت الحكومة حجر عثرة فى طريقه ؟ لاشك أنه يقول مشروع بسنديله أومراكب البوسطة الخديوية اللذان تشكلت من أجل مشتراهما شركات وطنية فأخفق مسعاها حيث اشترتهما شركات أجنبية . فأقول لهم انا نتكلم فى الماديات . ومن حيث ان الحكومة تملك هذه المادة فلها الحق في بيعها لمن تشاء وتختار أوتتصرف فيهما كيفما تحب وتريد . أما مايتعلق بذلك من الادبيات فلا علاقة له بموضوعنا هذا .

وهل يؤخذ من فشلنا مرة أن يكون عدم النجاح نتيجة مشروعاتنا على الدوام ؟ كلا ثم كلا .

ومع كل فما لنا وللحكومة ؟ اذا قامت منا شركة أوجملة شركات واشتغلت بما يعود عليها بالخير والبركة فهل تمانعها القوة الحاكمة فى ذلك ؟ أظن انه أمر تفرح له وترتاح اليه مادام لايدخل فى سياسة . أويخرج عن كياسة . كما حصل فى مشروع الشركة الوطنية التى طلبت التزام عمل السكك الحديدية بمديرية المنوفية فان طلبها كان مبنياً على قواعد أوجبت تناسيه أوطول النظر فيه . وعلى كل حال فانى لاأطلب منكم أيها المصريون عمل شركات يكون لها علاقة بغير أنفسكم بل اشتغلوا أحراراً . واعملوا خيارا . فانه لايعترضكم أحد فى طريقكم بل تنالون شكر الله والحكومة والناس أجمعين .

## ﴿ معرض الآلات الحربية ﴾

وينتهى معرض الآلات بالحربية منها . فترى مايضطرب له النظر وينزعج منه الفؤاد . ويخفق لمرآه القلب من قنابل متغايرة الشكل والحجم قد بدا في ثناياتها الهلاك . ومدافع من كل نوع وطراز وكأنما أسفر ثغرها

عن الموت الزؤام . ومما هالني منها ماسورة مدفع يبلغ طولها ٢٤ متراً تقريباً . فرفقا يا كروب . وارفع عن رأس بنى نوعك الكروب . وخفف عليهم وطأة الحروب . ورحمة يامكسيم . يامن بين حروف لفظك الهلاك المقيم . وفي طيات صوتك العذاب الاليم . وأنت يادمدم . يامن تمزق الجسم وتنهش اللحم . وتهشم العظم . وتحرق الدم . هلا من حنان فى قلب مخترعك الصخرى . أومن شفقة فى فؤاده الحجري . فما ضر لو يقتل بسلاح كل قاتل ان كان ولا بد من القتل . ويترك التعذيب الى من بيده العقد والحل فحسب المقتول طلوع روحه . بين آلام جروحه وقروحه . وفقد حياته . ويتم بنيه وبناته . فهل من مخترع نبيل يعثر على مايخمد من انفاسك . ويقطع دائرة أقواسك . ويكسر جناح هذه القنابل النارية التى كأنها الطير الابابيل . ترمى الابرياء بشهب من سجيل . فتجعلهم كعصف مأكول .

فتبا لك من مخترعات يسود لها وجه الانسانية وتكبر أن تنسب اليه الهمجية والوحشية .

## ﴿ أعياد المعرض ﴾

ان المعرض يفتح كل يوم من الساعة السابعة صباحا الى الحادية عشرة بعد الظهر . ولقد جعلوا ليلتين في الاسبوع ينيرون فيهما جميع المصابيح الكهربائية التى تزدان بها كل المنطقة الموجود بها المعرض ويسمونها بليالى الاعياد . فتهرع اليها الناس من كل فج وحدب حتى يصعب على الانسان السير في طرقاته . ولقد كنت صعدت قبل غروب يوم تتلوه احدى هذه الليالى الى برج ايفل الذى سبق الكلام عليه وانى ما كنت أتصور انه بهذا

الحجم الهائل لان رسمه ما كان يشغل من خيالى . الا بقدر ما كانت تشغل حروف اسمه من شبكية بصرى . فلما رأيته وصعدت اليه هالنى منظره وأدهشنى مخبره . وبمجرد ماوصلت الى الطبقة الثانية نظرت الى الارض فوجدت المنازل كالعلب . والناس كاللعب . وهذا المعرض الشاسع الواسع الذى كنت أمضى به كل يومى . ماشياً فيه على قدمى . وكأنى مارأيت منه شيئاً ما هو الا عبارة عن دكاكين قد انتثرت من دونى والناس متراكمة فيه على بعضها كالجراد الزاحف .

ثم نظرت الى السماء فوجدت الشمس وقد مالت الى الغروب وكأنها كرة من الحديد المحمي قد ألقت بها يد الطبيعة الى الفضاء تسير سيراً بطيئاً غير محسوس لا كما كنت أراه من سرعة سيرها في بلادنا ولم أعلم اذا كان سبب ذلك قربها من القطب الشمالى الذى عنده تتفرطح كروية الارض أو كأنها كانت تقف معنا قليلا لتشاهد بهاء هذا المعرض الذي لم تطلع على مثله وربما لن تطلع على نظيره . هنالك برزت شموس المعرض مرة واحدة فى جميع جهاته . فالتفت فلم أجد شمس النهار . فكأنها هربت غيرة وحسداً من هذه الانوار . التى ربما أصغرتها فى عين من أراد المقارنة بينهما . وبعد قليل لبست القبة الزرقاء رداء من السحب والغيوم . لتداري بيد كسوفها مافيها من الكواكب والنجوم .

فأرجعت بصري الى قارتى فرأيت الشموس الكهربائية قد برزت من أفلاكها . وظهر امامى تاج من نور على رأس قصر الماء ( الذي مر ذكره ) وطوله نحو مائتى متر وعرضه عشرة أمتار وفيه مالايحصى من الثريات الكهربائية وقد أضيئت بلون الذهب حتى كأنها هو ثم لاتلبث ان يتغير لون

اضوائها فتصير تارة حمراء وأخرى خضراء وطوراً زرقاء أوصفراء بحالة تدهش البصر وتسلب اللب حتي تخيل لى انى فى عهد قدماء الرومان وانى إله النور وقد استويت على عرشى . وهذه السماء من تحتى جعلت زينة للناظرين ومن حولى هذه الحور غير المقصورات ولا المحتجبات واقفات فى خدمتى. وطوع ارادتى . نخفت على نفسى شر غيها وبغيها فأسرعت بالنزول ( وان شئت بالتنازل ) الى سطح الارض حيث اشتغل فكرى ونظرى فى ايجاد طريق وسط هذا الزحام الذي لم تر مثله عينى واستغفرت الله مما خطر ببالى . ومر بخيالى .

## ﴿ كلمة على المعرض ﴾

لايغيب عن فكرك أن المعارض قديمة جداً وكانت تسميها العرب بالاسواق وعكاظ أشهرها عندهم الا أن هذه كانت معرضاً للافكار . ومقتنيات الاشعار . والمعانى المبتكرة . التى تربى الفطنة والذكاء ويتسع بها مجال العقل ويفصح اللسان . ويقوي الجنان . وتكثر الملكات . فلما ترقت أوروبا في مادياتها أقامت معارض لصناعاتها . بين خصوصية وعمومية لاسيما فى القرن التاسع عشر . وأهم هذه المعارض معرض فرنسا العام الذي ينتهى به هذا القرن الذى يسمونه بقرن النور لسمو الدرجة التى وصلت اليها فيه المعارف والصناعة .

ولقد زاد به اهتمام كثير من الحكومات . وخلق كثير من جميع الامصار والجهات . فصرفوا المصاريف الباهظة لاقامته بعد أن استأجروا من الحكومة الفرنساوية الارض التى شيدوا عليها أمكنة معروضاتهم بأموال

طائلة ظانين أنهم يرجعون الى أوطانهم بأضعاف أضعافها مما لعلهم يبيعونه على الزائرين للمعرض ولكن خاب ظن كثير منهم وخسروا خسائر فادحة وخصوصاً الشركات التى اشتغلت بما لايهم المتفرج الباحث كالمتجرين من الباعة وأصحاب المطاعم والتياترات ومافي معناها فأفلس كثير منهم .

ولما كنت بباريس في أوائل شهر يوليه كان عدد من أفلس من الشركات نيفا وخمسين . ولهذا فانى أرى أن الناس قد تحققوا من عدم نجاحهم فى المعارض العمومية التى ربما لاتقوم لها قائمة بعد السنة . وهذا لايستدعى عدم اقامة معارض خصوصية كما تفعل الحكومة الانكليزية في بلادها على الدوام ومع كل فقد بلغنى أن المانيا عازمة على اقامة معرض عام تبارى به معرض خصيمتها وربما ترجع عن عزمها اذا رأت بهذا الاخير سخط العارضين على المعارض وأصحابها وزائريها . أما المعرض المصري فكان اذ ذاك وسطا بين الثابت والكاسد والله تعالى يتولى عباده بلطفه.

والفائدة الوحيدة المادية من هذا المعرض انما كانت للحكومة الفرنساوية وأصحاب اللوكاندات والمنازل والعربات فان ايجار الاودة وصل الى خمسة أمثاله في الايام الاعتيادية . أما مكسب سككها الحديدية فحدث عنه ولا حرج لان القطارات وخصوصا القادمة الى عاصمتها ماكان يرى بها مكان خاليا فى جميع درجاتها . ولو وجدت قليلا فى محطة باريس وشاهدت أحد هذه القطارات وقد نفر آلاف الناس من عرباته عرفت ماهى باريس التى وسعت هذا الخلق كله وكأن لم يكن بها غير أهلها .

## ﴿ كلمة على باريس ﴾

هى زهرة المدائن بل صفوة البلدان وسيدة العواصم جمعت بين واسع المكان . وضخامة البنيان . ووفرة السكان . يبلغ طولها من الشرق الى الغرب ١٢ كيلو متراً وعرضها من الشمال الى الجنوب تسعة كيلو مترات وعدد سكانها كان فى أول القرن التاسع عشر ٥٤٧٧٥٦ نفساً ثم بلغ في سنة ١٨٩٠ ٢٤٤٧٩٧٥ نفساً ثم بلغ فى سنة ١٨٩٦ - ٢٥٣٦٨٣٤ منهم ١٨٦ ألفا تقريباً من الاجانب وجل الاهالى من الكاثوليك ولم يكن فيهم غير ٥٠ ألفاً من من البروتيستانت ومثلها من اليهود ولا بدأن يكون قدزاد عددها فى آخر هذا القرن زيادة تذكر. فاذا عرفت الفرق الهائل فى عدد السكان بين ما كانت عليه فى أوائل القرن المذكور وماوصلت اليه فى آخره ظهر لك سرعة تقدمها فى المدنية والعمران اللذين لاحت فى سمائها شموس العلم والعرفان . وأرسلت بأشعتها الى جميع البلدان فاستمدّ منها بنو الانسان . فهى مهد المعارف . وكعبة كل خبير وعارف. ومنبع الاختراعات ومصدر الصناعات. نشأ أهلوها فى المدنية الحديثة أيام كانت أوروبا ضالة فى فيافى الجهالة . منحطة في زوايا الخمول والبطالة . اللهم الا قيامة تقوم بها الى سلب أو نهب أو غارة شعواء . تنال من ورائها غنيمة بتراء . وكيف وهى عاصمة هذه البلاد التى دخل العرب فى جنوب أملاكها واستوطنوا فيها وبها الآن آثار من آثارهم وأطلال من اطلالهم فأخذ أهلها عنهم آدابهم وعلومهم وفنونهم وصناعاتهم ولم يظهروا بها الا لما دارت الدائرة على الاندلس فاشتغلوا بها ولم يهملوها مثلنا فترقت وترقوا معها حتى أوصلوها أو وصلت بهم الى الحد الذي تعجب لسماعك به وتندهش لرؤيتك اياه

ولقد أرسلوا رسلهم الى جميع الامصار والاقطار فدرسوا وكتبوا وصنفوا المصنفات . وألفوا المجلدات . فى العلوم والفنون التى لم يكن لهم المام بها وترجموا ماعثروا عليه من الكتب المهمة فى لغة الغير وخصوصاً كتب العرب فزادت بها مادتهم العلمية ونمت بها معارفهم فدونوا من ذلك كل المصنفات وأعطوا للعلم اكبر أهمية فأخذ فيهم منزلته التى لا ترام ورفعهم وارتفع بهم الى الغاية القصوى فظهر منهم الكاتب والحاسب والمقنن والمشرّع والعالم والحكيم والطبيب وصارت بلادهم محط رحال العلماء والخطباء وكعبة الراغبين في العلم . ومن ذلك الارسالية التى كانت توفدها الحكومة المصرية الى هذه الديار من عهد ساكن الجنان محمد على باشا حتى حق لها ان تسمى بمدينة الانوار . كما سماها بذلك صديقنا الكاتب المصرى الشهير احمد زكى بك سكرتير مجلس النظار .

وهى الآن محل سيطرة الكمال العلمى ويتلوه الكمال الصناعى وان سبقها غيرها في هذا الاخير لانها لم تحتفل بالماديات احتفالها بالمعانى ولها الفضل على كل حال لانها كانت السابقة فى سبيل المدنية الحديثة وأندية العلم بها للآن اكثر من أن تحصر وأشهر من ان تذكر .

أما نظام مبانيها ففوق الوصف لانك كلما سرت فى شارع لا ترى عليه الا مبانى باذخة وقصورا فخيمة على طوله ومن أسفلها الدكاكين والمخازن التجارية التى تقف باهتا امام عظمتها وحسن تنسيق البضائع فيها وكمال نظامها وعلى الخصوص ترتيب العملة القائمين بعرضها على المشترين أو المتفرجين . واكبر محل تجارى فيها هو محل تجارة اللوفر والمكان المسمى بون مارشيه والداخل اليهما لاول مرة لا شك انه يضل سبيله ويفقد شعوره ويندهش للحركة الكبيرة التى لا انقطاع لها من العمال والمشترين والمتفرجين .

والاول منهما أجمل اتقانا وبضائعه أرقي قيمة وأغلى ثمنا .

أما الثانى فانه أوسع مكانا واغزر مادة واكثر خدمة وعدد هؤلاء يفوق السبعة آلاف شخص وجلهم من الجنس اللطيف : تجد الكل واقفا امام ماخصص لبيعه وكأن لكل فرد منهم ألف عين تنظر وألف يد تتحرك : يناول بهذه ويربط بأخرى ويحرر استمارات المبيعات بغيرهما ويأتى اليك بما تشتهيه من البضائع بسواها . وكأن له ألف رجل تتحرك الى حيث غرضه وكأن له ألف لسان يخاطب به كل وارد بما يروم ويشتهى : فيمارس مع هذا ويثمن لذاك ويشرح الصنف لغيرهما ويجيب عن سؤال آخرين فى أسرع من لمح البصر . وبالجملة فهناك ترى الحركة والنشاط والخفة فى العمل والسرعة فى انجازه بنظام تام وسكون عام وهم مع ذلك لاتري فيهم الا حسن الوداعة ولين الجانب مع أدب فى التعبير عما لايخرج عن حد اختصاصه وعمله وبشاشة تامة تستميلك الى شراء مالست فى حاجة اليه .

أما شوارع المدينة فكلها من أحسن شوارع العالم سعة ونظاما ونظافة والبوليس فيها واقف وكله عيون تبصر وآذان تسمع وأرجل تتحرك به على الدوام فى دائرة اختصاصه حتى اذا حصل بها مايخل النظام فلا ترى منه الا أسدا نفر وانقض ويدا قبضت على المخالف أو الجانى وقادته الى المخفر وهو فيما عدا ذلك في غاية الادب اذا قصده مسترشد هداه الى طريقه وان سأله سائل أصغى الى كلامه بكل احترام واحتشام لانه عارف بوظيفته التى ليست الا عبارة عن الخدمة العامة فهو لايحتفل بأمير ولا يزدرى بفقير والكل عنده سواء فيما يختص بأداء وظيفته .

وأهم شوارعها الشارع المسمى جران بولفار وهو من اكبر أمثاله فى

الدنيا بأسرها الا انه أحسنها رونقا وأجملها نظاما وفيه من المحلات العمومية والاندية الخصوصية والمخازن التجارية مالا يستطيع لسان شرح جماله وجلاله ولا قدرة له على وصف ساطع بهجته وروائه وكامل أبهته. أما الحركة فيه من عربات ركوب وأمنيوبوس وأناس بين غادين ورائحين فشئ يحار له الجنان . وتندهش لمرآه العينان . وخصوصا من الغروب الى نصف الليل . أما شارع الشانزى ليزيه فهو لسكنى سراة القوم وماهو الا جنة من الجنان . أو روضة من الرياض الحسان ويقال انه ليس له مثيل فى العالم الارضى فى جمال سنائه . وجلال روائه . وخصوصا ذلك الأثر العجيب الذى قام على ميدانه ويسمونه بقوس النصر أو قوس الكوكب وهو الذى أقامه الفرنساويون تذكاراً لانتصار نابليون بونابرت فى واقعة أوسترلتز التى انتصر فيها نصراً مبينا في ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٥ على جيوش النمسا والروسيا معا وهذه الواقعة تسمى بواقعة الامبراطرة الثلاثة لان جيش النمسا كان على رأسه فيها الامبراطور يوسف وكان على جيش الروسيا الامبراطور اسكندر وكان الامبراطور بونابرت على رأس الفرنساويين .

وهذا القوس أكبر أمثاله في العالم الارضى وارتفاعه يبلغ ٥٩ متراً ونصفا وعرضه نحو ٤٥ متراً وسمكه نحو ٢٢ متراً صرف عليه أكثر من تسعة ملايين فرنك وعليه من جميع جهاته نقوش وقائع حربية وصور كثير من قواد القوم المشهورين وأسماؤهم تخليداً لذكرهم واشهاراً لما أتوا به من عمل جليل كان من ورائه قوة الدولة وخيرها وسعادتها . وفى جهته المقابلة للشانزي ليزيه صورة الجنرال ميراث وقد أسر مصطفى باشا في واقعة أبى قير المصرية سنة ١٧٩٩ .

وهذا الشارع محل نزهة القوم ويوصل الى غابة بولونيا الشهيرة بجمال

نضرتها وكمال بهجتها وهى أحسن منتزهاتهم الصيفية وقد زرتها عصر يوم فوجدتها وقد وضعتها يد الصناعة على هيئة الغابات الطبيعية وغرست فيها من الاشجار العالية الغالية ذات الفروع الدانيـة ماتسر رؤيته الناظرين . ويشرح رواؤه صـدور المتنزهين . ويستميل النفس بل يسلب الحس . ماتراه يجري تحت ظـلالها من غزلان الانس . وقد أنست كل واحدة الى أنيس . أوحليف وجليس . فجلسا تحتها جهاراً . أخياراً كانوا أوأشراراً . واتخذوا من جذوعها وظلالها أستاراً . وقد اقترب المحب من محبوبه حتى يتخيـل لك أن الجسمين تداخلا فى بعضهما واتحدا قالبا وان اختلفا قلبا . وكيف وهما بين جارح ومجروح . وطارح ومطروح . وعاشـق ومعشوق . وشائق ومشوق . وفاتن ومفتون . وشاجن ومشجون . وجوّ الصبابة يختلف بهما بين صحو وضباب . يعقبه حمد أوعتاب . وجزاء أوعقاب وانشراح أو اكتئاب . وجدير بهذا المكان . أن يسمى على هذا الحال روضة العشاق . ونزهة المشتاق .

وأرض هذا الروض قد فرشت ببساط سندسى تتخلله طرق مرسومة وسكك منظومة . تتقاطع مع بعضها وتنتهى الى جبال صناعية ينزل منها الماء على هيئة شلالات شبه طبيعية يطرب الاذن رخيم خريره بمـا يغنى عن تعبيره بأن ليس لشكله الجميل . فى العالم الارضى نظير ولا مثيل . ثم ينساب الى بحيرة لطيفة نثرت حولها النوادى العمومية لاستراحة القوم .

وبالجملة فهى آية من آيات الصناعة التى تفوق الطبيعة فى جمالها وجلالها وزهرتها ونضرتها وبهائها ورواتها .

## ﴿ آداب القوم وأخلاقهم ﴾

أما آداب القوم وأخلاقهم فقد أخذوا منها بالطرفين . وحصلوا على النقيضين . وليس لهم من وسط فى أمرهم : عمل لعيش . وحزم يعتوره طيش . وحكمة بلا تصور . وأنفة بتهور وكمال يتصل بنقص . واحتشام فى رقص . ووداعة فى أنفة . وتؤدة في خفة . وذكاء مع فكر دقيق . من غير مارواية وتحقيق . وذلاقة لسان . وسرعة خاطر وقوة جنان . وتشوف الى معرفة الانباء . وتكأكؤ على أخس الاشياء . وحسن معاشرة . وأدب في محاضرة . مع كثرة مفاخرة . وقعود عن مناصره . وجري وراء مخاصره . وغضب لثلمه . ورضاء ولو بكلمه ( بردون ) . وتغال فى انتقام . ولو بلسان لا بحسام . وتعصب لجنسية . ومحبة لوطنية . وانكباب على علم أو عمل . مع كثرة ملل . يستوجب استراحة فى أجل . وحرية ولا غاية . وشبيبة من غير مانهاية . معها دوام لذة وانشراح . تري كل مخطور فى طريقها مباح . ولا تسل عن قوة شهوات النفوس . وتأنقهم فى المأكل وتفننهم فى الملبوس . وتصاغر الرجال . فى استمالة ربات الحجال . واستعمالهم فى ذلك من الاساليب مالا يدركه عقل أو يتصوره خيال .

أما نساؤهم فلسن فى الغالب على ماهو مشهور عنهن من الجمال الطبيعى ولكنهن تفنن في الجمال الصناعى بما يأخذ اللب ويبهر العقل فترى فيهن شفاها قرمزية . وخدودا وردية . مع طرف أدعج . وحاجب مزجج . وعين مكحولة . وجبهة مصقولة . وكل ذلك بيد الصناعة التى بلغن فى التفنن فيها الى الحد الذى يكافئ الطبيعة فى جمالها لا فى محاسنها . وهو على كل حال فى نظر العارف . كالدرهم الزائف ولكن اذا أضفت اليه مافيهن من رشاقة القوام . وظرافة الهندام .

ورقيق الكلام. والقدرة على التلاعب بالاحلام. مع مشية الغزال. ولطافة الدلال وزهرة الجلال . فى ظاهر الكمال . وبعد المنال . مع قرب. . . عرفت كيف انهن يأخذن بعقول الرجال . وليس ذلك بغريب فى نسوة أمة له نصيب من بروجرام دروسهن (تواليت) . حتى قال الملك هنريكوسن الرابع ماضرب به فيهم المثل بعده (يريد الله ماتريده المرأة) وفى ذلك مايكفيك من احترامهم اياها واعلائهم لشأنها .

ولما كانت مدة اقامتى فى باريس قليلة جدا كما مر بك ذكره وكان فى اثنائها المعرض العام الفرنساوى اهتممت به كل الاهتمام ولم يبق لى من زمنى ما كان يسمح لى بالتفرج على المدينة التى هى أم العواصم الارضية بل زهرتها ولا بالاطلاع على مافيها من غريب الآثار كالكتبخانات العمومية والتياترات الفخيمة والمتاحف التى هى فى مقدمة أمثالها فى هذه المعمورة ولكنى على كل حال وفقت الى اختلاس بعض سويعات من زمنى وشاهدت بها متحف اللوفر الذى تغنيك شهرة اسمه عن وصفه لك بقلمى الذي لم يسمح له الزمن اليسير الا بالحكم عليه في عمومياته بأنه اكبر المتاحف بنيانا وأوسعها مكانا واكثرها آثارا وأحكمها نظاما فقد جمع بين مايشوق ويروق ويعجب ويطرب. ويحير ويبهر من لوحات . هى من اكبر الآيات . رسمت عليها بيد الدقة والاتقان صور دينية ومعان سياسية ووقائع حربية يستوقف جمال روائها وجلال أبهتها المطلع عليها حتى يكاد يود أن لا يفارقها ولا يحول طرفه عنها الا للاطلاع على مابجانبها . ولقد رأيت والحق يقال فى هذه الصور من اتقان صناعة الرسم مالا قدرة لى على وصفه وهى فى ذلك أغنى متاحف الدنيا ولقد شاهدت بجوارها من الآثار المصرية وأحلاها وأغلاها واكبرها قيمة

مالا يوجد فى نفس متحفنا المصري الشهير بها مما أخذ من ديارنا بالطرق التى استعملت فى الحصول عليه وغير ذلك من الآثار اليونانية والرومانية وغيرها مما لا يوجد الا فى هذ المكان .

ومما اثر علىّ كثيرا سيف بطلهم الهمام نابليون بونابرت وقد صفح جنيره بالذهب وحلى بالاحجار الكريمة. وغيره من آثاره وحلىّ زوجته التى أعدت لها قاعة مخصوصة فى هذا المتحف وهى عند القوم ملحوظة بعين التقديس والاحترام وهنالك تذكرت أبطال مصر مثل محمد على وولده ابراهيم باشا وآثارهم الشخصية التى تفوق ولاشك آثار بطل فرنسا مما لم نره بأعيننا ولم نسمع عليه بآذاننا وكان يجمل بالعائلة الكريمة الخديوية أن تهديها الى متحفنا أو تجعل لها متحفا خاصا بها حتى تكون به تذكرة حسنة لمصر وبنيها على ممر الاعوام والدهور .

وبالجملة فان الفترة اليسيرة التى أمضيتها فى هذا المتحف لم استطع معها الا أن أقول لك انه زهرة أمثاله .

ولقد أردت الاستراحة من التعب الذي كان يؤثر على صحتى من شدة ما كنت أكابده من العناء فى زيارتى المعرض فقصدت بعد ظهر يوم مدينة فرساى مع رفيق لى من أهل البلاد وهى تبعد عن باريس بنحو ثمانية عشر كيلو متراً فركبت وابور السكة الحديدية اليها فوصلناها وقصدنا سرايها الملوكية التى وضع أساسها لويز الثالث عشر ثم أتمها لويز الرابع عشر وأكمل نظامها الحالى لويز فيليب فوجدتها آية من آيات الزمان بل جنة من الجنان فدخلناها من ممشاة طويلة وضع على جانبيها تماثيل أكبر القواد والسياسيين وملوك البلاد ثم صعدنا الى الدور الاول فتخللنا قاعاته وعليها من الرسوم والصور السياسية والحربية ما يندهش له النظر ويتحير البصر فترى الزائر يحملق اليها وهو بين أبهة ملكها

وكمال جلالها . وفيها كثير من صور لويز الرابع عشر على هيآت مختلفة ثم كثير غيرها من صور ملوك فرنسا وقوادهم البريين والبحريين وأخص منهم نابليون الاول التى تراه مرسوما فى أغلب لوحاتها فتارة تراه مفكراً أو آمراً وأخرى تجده وهو مرتد بسلاحه . فى حربه وكفاحه . ثم تراه فى غيرها سائراً أمام جنده مشيراً اليهم باتباعه واختراق صفوف الاعداء معه وهكذا من وقائعه الحربية التى لاتعد ولاتحصى ومنها رسمه فى واقعة أبى قير المصرية وواقعة اهرام الجيزة التى اكتسبها فى ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ بتحميسه لاصحابه حيث قال لهم خطابته المشهورة المؤثرة من ان هذه الاهرام تنتظر منهم من يوم نشأتها نصرتهم فى تلك الواقعة وهو لو كان على قيد الحياة الآن لقال من غير شك ان هذه الاهرام بعينها كانت تنتظر من يوم بنى الحجر الاول فيها فشل قومه السياسى فى بلادها أو على الاقل لكان سحب كلامه . واغمد حسامه . وبكى أيامه . وسبحان مغير الاحوال الذى يرث الارض ومن عليها .

## ﴿ بضعة أيام فى بلاد سويسرا ﴾ (١)

تركت باريس يوم ٤ يوليه الساعة العاشرة مساء وركبت قطار الاكسبريس

---

(١) سويسرا هي اكثر بلاد أوروبا ارتفاعا عن سطح البحر وهى تنقسم الى ٢٢ مديرية ويدير شؤنها مجلس به عضوان من كل مديرية يقال له مجلس المديريات بالاتحاد مع مجلس الامة الذى يتركب من ١٣٥ عضوا بمعنى ان كل عشرين ألف نفس من أهلها ينتخب عنهم شخص واحد

ومجلس الشوري وهو يتركب من سبعة أعضاء تنتخبهم الجمعية الشوروية وهي جمعية المديريات وينتخب لها كل سنة رئيس ومركزها فى مدينة برن من سنة ١٨٤٨ الى الآن وهو القائم بادارة شؤن الحكومة

والتعليم فيها منتشر جدا والابتدائي منه قهري والفقراء يتعلمون مجانا ويوجد فيها

مدارس كلية فى زوريخ وبال وبرن وجنيف ولوزان .ولقد كانت بلاد سويسرا بلاداً همجا فاستولى عليها جول قيصر سنة ٥٨ قبل المسيح وصارت فى سنة ١٥ ق م اقليما رومانياواستولى عليها الفرنج سنة ٥٣٦ ثم انقسمت الى جملة ايالات تحكمها الفوضى وكانت الايدى القوية تتناوب أطرافها سواء من الخارج أو من داخلية البلاد وكانت الحروب فيها لاتنقطع مع جاراتها التى كانت تريد التقامهاحتى دخلت فى حوزة الفرنساويين الادبية بعد حروب طويلة معهم انتهت بصلح سنة ١٤٥٣ ومع ذلك فان النمسا ما كانت تكف غاراتها عن بعض اجزائها المجاورة لها وكذلك ايطاليا وقد كاد كل يبتلع له لقمة منها لولا أن قامت ثورتها وأخذ أهلوها بسلاحهم عن بكرة أبيهم وصارت أرض هذه البلاد كلها مرسح قتال ونضال ثم انضمت عشرون مديرية من مديرياتها على بعضها وكونوا الوحدة السويسرية فخافت الحكومات العظمي الاوروبية شرهذه الفتنة وخشيت ان يتطاير شررها الي بلادها فمنحها نابليون بونابرت سنة ١٨٠٣ ترتيبا جديدا لحكومتها وهو انه يديرها مجلس مركب من ٢٥ عضوا يكون مقره زوريخ بشرط ان تكون البلاد على الحيادة وودودة الي فرنسا ومن ثم أطلق على بونابرت لقب ( وسيط الوحدة السويسرية ) وبعد سقوط نابليون تغير هذا النظام بآخرقد وضعه مجلسها المذكور فى ٧ أغسطس سنة ١٨١٥ ويسمى بمعاهدة الاتحاد السويسرى ثم أعقب ذلك بناء على تقرير مؤتمر فينا دخول مديرية والس ونوشاتل وجنيف فى الاتحاد السويسري وعليه أصبحت مديرياته ٢٢ مديرية وقد أمضت الدول الاوروبية فى هذه السنة نفسها معاهدة فى باريس تعهدت فيها بأن تكون هذه الحكومة على الحيادة التامة الدائمية وان تحفظ أراضيها وتقوم فى وجه من يريد غصب شئ منها. وفى سنة ١٨٤٠ قامت ثورة الحزب الجمهورى وعم الهيجان بعض المديريات وانتهى سنة ١٨٤٨ بقلب النظام الذى وضعه نابليون الى آخر يقال له نظام التحالف الجمهورى وقد صار تنقيح هذا النظام أيضا سنة ١٨٧٤ وهو النظام الحالى

ووضع هذه البلاد الجغرافى له أهمية كبري عند الدول الاوروبية لانها هي الفاصلة بينها وبين بعضها بجبالها العالية التى ترى فى جنوبها ايطاليا وفى غربها فرنسا وفى شمالها المانيا وفى شرقها النمسا فهي الحصن الوحيد الطبيعى الذى يدفع عن هذه الحكومات شر هجماتها على بعضها خصوصا انها مصدر الحياة الزراعية للقارة الاوروبية بما يخرج من جبالها من هذه الانهار العظيمة التى تنساب الى جميع الجهات والحكومات مما يتفرع عن نهر الرين والرون والدانوب والموز والآر وغيرها ولذلك فانها مرموقة بعين الاحترام والاهتمام من جميع الدول حتى أحاطها كل من جهته بسياج المحافظة عليها

فوصلنا الى محطة ديفون التى هى من أعمال فرنسا والحد الفاصل بينها وبين حكومة سويسرا من جهة جنيف . وهذه القرية مشهورة بحماماتها الصحية التى تؤثر كثيراً على الامراض العصبية بمياهها الطبيعية التى تنبع من جبال چورا ودرجة حرارتها فى الصيف ٦ فوق الصفر فوجدنا فيها خلقا كثيراً أتوا للاستحمام بمياهها وهم بين رجال ونساء هذا قد تهيجت اعصابه العليا فأخذ يلعّب عضلات وجهه كلها وذاك يلعب يده ورجله بحركات مختلفة غير مؤتلفة وغيره تراه يقعد بجوارك هادئاً نحو بضع ثوان ثم يقوم منتفضاً كالعصفور بلله القطر وهكذا مما يضحك له من أمن على نفسه غيلة الامراض . ولقد سمعت من غير واحد ان هذه الحمامات مفيدة جداً . وفى هذه القرية أيضاً معامل لقطع الماس وتكوينه على الشكل الذى تعرفه . وريثما استرحنا بها قليلا ركبنا منها عربة وسرنا الى حيث نزلنا فى منزل لطيف على بحيرة جنيف لنمضى به أياما ترويضا للصحة وترويحا للنفس وهو على مسافة ساعة منها بالعربة وأربعين دقيقة بالوابور الى جنيف . وهذه البحيرة مشهورة جداً بجمال المناظر التى تحيط بها فترى عليها القصور والبساتين والغياض والرياض التى يقصدها

---

وكفوها بذلك شر انشغال البال فى دفع ماربما يناالها من الشرور والاهوال فنامت حكومتها هادئة مطمئنة فى أمان مقيم وسلام مستديم واشتغل أهلها بصوالحهم الخصوصية التى ستصل بهم ( ان كانت لم تصل بعد ) الى أرقي مراتب العمران وذروة السعادة الحيوية الحقة ومن ذلك ترى ان اهتمام حكومات أوروبا ببلاد سويسرا لم يكن عفواحيث كل دولة ترى فيها حياة أرضها كما نري نحن حياة مصر فى سودانا الذى أهملناه واغفلنا أمره وألقت حكومتنا به وبحياتنامعه الي مابين يدى هذا القادر الذى لاطاقة لنا به ناظرين الى احسانه الينا بشيء من هذه الحياة التى أخذهاغنيمةباردة وهو يرى انه ان فعل فمن فضله وان أبي ذلك علينا فمن عدله ولا حول ولا !!

الناس من جميع الاقطار والامصار لمصيفهم على ضفافها لطلاقة هوائها وجودة جوها ويزيد رغبتهم فى ذلك هـذا الأمان الذى ضرب أطنابه على البلاد وما اشتهر به السويسريون من كمال الآداب وحسـن المعاشرة . وكيف لا وهى بلاد قد خصّها البارئ جـل شأنه بجمال الطبيعة في أرضـها ومائها وسمائها وشجرها ونباتها وتربتها حتى كأن هذه الطبيعة سرى جمالها الى طبيعة أهل البـلاد فجملت وكملت وأصـبحوا مثالا يضرب فى وداعة الاخلاق ومحاسن الطباع ولطيف العوائد ورقيق الشمائل وكريم الشيم وحسن المعاشرة وصدق المعاملة . بلاد لا ترى بها سـارقا ولا مارقا كمل اهلوها فاسـتراحوا وأراحوا حكومتهم بل وجميع الوافدين عليها والقادمين اليها . ولذلك وضعت حكومتهم فيهم كل ثقتها وأعلنتها اليهم على لوحات من الخشب مكتوب عليها هذه العبارة « ان الامن موكول أمره الى الاهالى » .

ترى المنازل قد نثرت وسط المزارع وقد اكتنفتها البساتين والجنـان التى فيها من كل فاكهة أكثر من زوجين . وأشجارها قد التوت فروعها تحت عبء ثمراتها ولا سـياج يمنع . ولا خفـير يدفع . كما لا أحـد يقوى على قطف شئ منهـا ولو ليقيم به حياته التى هى على آخر رمق من الجوع ولا يستطيع أن يدخل منزلا أو يمر من حقل دون اذن صاحبه كأنهم أرادوا بذلك ان يكونوا أول طائع للخالق سبحانه وتعالى فى قوله لنا « فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » حتى اذا فرّطنا نحن فيما دعينا اليـه من هذا الكمال أخذوه هم واتبعوه فجنوا من ثمرات آدابه ما أصبحنا ننظر الى خيره فيهـم ونكثر من شكرهم عليه ونأسف لشذوذنا عنه وقد صار طبيعة سيئة فينا نرى من عواقبها هـذا العقاب الذى يساق الينا عاجلا وينتظرنا آجلا .

لذلك ترى المحاكم عندهم وقد فتحت أبوابها رسمياً وكأن القضايا خاصمتها فلا يزورها الا من شذ عن قاعدة هذا الكمال ليكون من ضمن الادلة القوية على وجوده فيهم .

بلاد فشافيها السلام . بين الخاص والعام . لمن عرفوه ولمن لم يعرفوه ونصبت على ربوعها أعلام الامان . الذى يرفل فى بحبوحته الجماد والنبات والحيوان والانسان . بلاد تسير الناس فى سهلها وجبالها بين نساء ورجال وأطفال زرافات ووحدانا . مشاة وركبانا . بالليل والنهار . أغرابا كانوا أو من بنى هذه الديار . ومخايل الثورة تلوح على أغلبهم وليس معهم نصل يقطع . أو سلاح يرفع . اللهم الا عصايتوكؤن عليها أو مظلة يحتمون بها من حرارة الشمس أو غزارة المطر ولم يكن في طريقهم بوليس يحميهم ولا يصادف أحد منهم من يقطع عليه طريقه أو يقف له فيه « أو يطلب منه لفة دخان » مما أنت فى غنى ذكره .

بلاد اذا فقد الرجل متاعه فى أى جهة منها فمهما ابتعد عنها ورجع اليها وجده مكانه ان كان فى الطريق . أو فى ذمة صاحب النزل ان كان تركه به . ولقد سمعت من أحد أصدقائى السائحين انه نزل بلوكاندة في أحد جبال سويسرا وخرج يوما للنزهة فلما عاد لم يجد كيس دراهمه فى جيبه وكان به عشرون جنيها وبعض كارت دوفيزيت فأتى اليه رب النزل ثانى يوم ومعه صبي فأعطاه كيسه قائلاله انى وجدته فى طريق كذا ولكون هذا النزل قريباً منه تصورت ان صاحبه ربما يكون فيه فأتيت به اليه وحمدت الله على تسليمك اياه فأراد ان يعطيه منه شيئا ليس بالقليل على سبيل المكافأة فاحمر وجه الصبي خجلا بل غيظاً وقال له ما كنت أخدمك لتعاملنى بهذه الاهانة

فاستسمحه رب الكيس ودعاه الى شرب القهوة معه فأخذها وانصرف شاكراً ولبث صاحبي متفكراً في هذه الامانة والشهامة اللتين وصلتا بالقوم الى منتهاهما .

فانظر أيها المصري كيف وصلت الامانة والهمة والشجاعة الى حدها الكمالي في بلاد سويسرا وقل لي بالله عليك أما ترجو ان يكون صدى صوت هذا الكمال أو خيال جسمه أو صورة رسمه في بلادك حتى ترتاح ولو وهما من أولئك الذين يجعلون حياة الناس على الدوام في خطر من شرورهم والحكومة في نصب من تعسسها عليهم ومراقبتها لهم .

وما سبب ذلك فيهم يا ترى ؟ لاشك ان سببه تيقظ حكومتهم وسهرها على صالح الاهلين الذي هو عين صالحها . واهتمامها بخيرهم الذي هو نفس خيرها

سنت الحكومة السويسرية قانوناً يحتم على عموم الناس فيها تعليم أولادهم من السابعة من عمرهم بنين كانوا أو بنات وفتحت لهم أبواب المدارس المجانية لفقرائهم فتنزي الطفل يشب على حب العمل حتى اذا ما وافت مدة اتمامه دراسته بارحها وهو متلهف على تكميل دروسه بمدارسها العالية أو اشتغاله بمهنة يكتسب بها حياته وتساعده على القيام بحياة أبويه الفقيرين اللذين أصبحا ولا قدرة لهما على العمل . ولذلك لا يرى القوم امامهم الا الشغل ولا يفتكرون في غيره حتى أصبحوا بين عالم جليل . وكاتب نبيل . وصانع متقن . ومخترع متفنن . وفلاح فالح . وزراع ناجح . عارف بطبيعة التربة وما ينتج فيها ونوع السماد الذي ينمي به مزروعاته .

أما عندنا وما أدراك ما عندنا فقد ألقت الحكومة حبل الناس على غاربهم فشب أغلبهم على البهيمية المحضة والبطالة والدعة اللتين هما مفسدة وأي مفسدة فاستعملوا ما وهبهم الله من الادراك الحيواني في المفاسد وامتدوا بها

الى ان عثوا فى الارض ينزلون بصواعق شرورهم على عباد الله فيقتلون ويسلبون وان ضاقوا عنهم ذرعا . قتلوا ماشية أو أحرقوا زرعاً . حتى أمسى الناس وخصوصاً فى بلاد الارياف ولاسيما أصحاب العزب منهم اذانام أحدهم استودع نفسه وماله هذه العين التى لاتنام . وهو محاط بسلاحه كأنه فى دار حرب لادار سلام . ولقد كنت أذكر ان حكومتنا السنية سنت قانونا لعقاب المتشردين . وكأنى به وقدجف مداده وبطل العمل به مع انه ربما كان يأتى بشئ من الفائدة ويرفع عن الناس بعض هذه الشرور والله تعالى هو المرشد الى مافيه الصواب .

## ﴿ مدينة جنيف ﴾

يبتدئ تاريخ هذه المدينة من القرن الاول للمسيح عليه السلام وكانت تابعة للدولة الرومانية . وفى سنة ٤٤٣ صارت عاصمة حكومة برجونيا . ثم استولى عليها الفرنسويون سنة ١٥٣٣ ثم رجعت عاصمة للحكومة البرجونية سنة ١٥٣٤ ثم قام اهلوها طلبا لاستقلالهم وانضموا الى أهل فريبورج وعملوا معاهدة مع برن فى سنة ١٥٣٦ وانقسموا الى قسمين عظيمين وحزبين كبيرين . أحدهما يميل الى الحكومة الشوروية . والثانى للملوكية . وقد كثرت بينهم المنازعات والمخاصمات حتى انضمت الى حكومة برن الشوروية سنة ١٧٩٧ وهى الآن عاصمة ولاية من ولاياتها الاثنتين والعشرين التى لكل منها علم تعرف به وان كان لمجموع الكل وهى الحكومة السويسرية أو الحكومة الشوروية علم مخصوص .

ولقد أسعدنى الحظ فزرت هذه المدينة يوما فوجدتها على الشاطئ

الغربى للبحيرة التى سميت باسمها وبعضهم يسميها بحيرة ليمان وهو اسم الولاية .

فرأيت ابنية باذخة . ودوراً عامرة . وقصوراً لطيفة . تقطعها شوارع كثيرة نظيفة . وقد خرج من البحيرة نهر الرون وسار من وسطها منقسما الى قسمين . قسم قد ضاق مجراه وقوى تياره ووضعت عليه آلات هائلة لتوليد الكهربائية وقوتها ستة آلاف حصان فترفع المياه من النهر بقوة تياره وتوزعها على المدينة لشرب أهليها أو لادارة المعامل التى فيها بواسطة ضغط الماء ثم ترى بعيداً عن هذه آلات أخرى قوتها ١٢ ألف حصان يديرها تيار الماء أيضا لتوليد الكهرباء لاضاءة المدينة .

وبها كتبخانة جميلة مهمة جداً وفيها نحو مائتى ألف كتاب منها ثمانية عشر ألفا بخط اليد . وبها انتقخانة لطيفة وفيها كثير من اللوكندات والمنتديات والقهاوى وغير ذلك مما يكثر فى مثل هذه المدينة المتمدنة وان كانت هى أكثر نظاما وأحسن رونقاً من كثير من مثيلاتها . أما أخلاق القوم فيها فقد ذكرت لك شيئاً عن عمومياتها فى بلاد سويسرا . وأما حركتهم فشئ يجدر بى ذكره : تأنّ فى فكر . وسرعة فى عمل . قد مدت المرأة ساعدها الى الرجل وأعانهما الشاب بل والطفل فساروا جميعاً الى ما فيه الخير والبركة . وكل عارف بما يصنع . واثق بالنجاح والفلاح . ولقد اشتهرت هذه البلاد بعمل الساعات التى كثرت فيها فاوريقاتها وأرسلت مصنوعاتها الى أنحاء العالم واشتهرت كذلك بمصوغاتها الذهبية والفضية وباحجارها الصناعية التى تنافس الاحجار النفيسة وما هى الا أجزاء يهصرونها مع بعضها ثم يصنعونها الى ما يروق النظر ويخطف البصر .

وفيها أيضا معامل للروائح العطرية يكوّنونها من أجزاء كيماوية فينتجون

منهاماء ورد لم يكن من الورد وروح بنفسج لم يكن من البنفسج وهكذا . وغير ذلك من فوريقات الاقمشة الجميلة صوفية أو حريرية أوقطنية وكلها آية من الغرابة وحسن الصناعة وجودة القماش ولطافة الرسم بمكان عظيم .

ولقد شاهدت بها ثلاثة أمور جديرة بالذكر :

أولها العربجية فانك ترى الواحد منهم عارفاً بصناعته وكيف يسير بعربته فتراه احياناً يسرع وآونة يمشى على مهل ولاسلطة للراكب معه عليه . بيده الأسراع وبالاخرى فرملة يربط بها العجلات حيث يكون ميل فى الطريق ويفكها فى المرتفعات. عارفا بما يجب ان يعامل به حيوانه الذي عليه مدار عيشه فينظف جسمه . ويقوم رسمه. ولايشغله فوق طاقته . ولا زيادة عن ساعته المضروبة لراحته . حتى اذا وافت ذهب الى اسطبله وهو لايسمع نداء. ولا يقبل رجاء .ممن أراد الركوب معه ولوأعطى له فيمايؤخره نصف ساعة عن ميعاد راحة حيوانه عشرة أمثال ما اكتسبه فى يومه . وهنالك افتكرت تلك القسوة التى تعامل بها نظارة المعارف فى بلادنا أولئك الذين هم أحق بالكرامة.من أفاضل المدرسين والمستخدمين الذين يعملون فوق مايطالبهم به القانون والذمة والامانة.ولايعاملون الابتلك القسوة والاهانة وتمنيت ان يعامل أولئك الافاضل الاماثل عندنا معاملة ذلك الحيوان فى بلاد سويسرا .

الامر الثانى أنك ترى الناس فى حالهم لامن يلتفت اليك . أوينتقد عليك . وليس أمامهم غير مابين أيديهم مما يمنع عنهم شراً . أو يجرّ اليهم خيراً . ترى الباعة فى دكاكينهم وقد دخلت اليها يرشدونك الى الجيد من بضائعهم ويحذرونك من الرديء منها ويعرفونك عن أثمانها المحددة ولا

يضيعون معك دقائقهم المعدودة بين ملقهم لك واستمالتك الى مشترى أشيائهم وهم في غاية الادب اشتريت أولم تشتر . وان كان المكان صغيراً وعماله قليلين . قدموا الاول فالاول من الداخلين . ترى القوم بين رجال ونساء يسيرون فى غاية الكمال . لا هذا ينظر الى تلك ولا هذه تغمز لذلك وقد طهرت المدينة من بيوت الفسق والفجور كما نرى أبوابها مفتحة رسمياً عندنا فان كان هذا تمدنا تطالب به الحرية الموهومة فى بلادنا فكان أحق به هذه الديار التى بلغت منها أقصى مايصل اليه بنو الانسان .

الامر الثالث وكان أكبر مؤثر علىّ فى هذه المدينة : هو نظام المدارس الذى ليس بعده نظام . وإحكامها الذى ليس وراءه إحكام . سواء كانت ابتدائية أو ثانوية اوعالية . وقد أضافوا الى تعليم العلوم والفنون والصناعات من آداب السلوك ومسالك الآداب الدينية والمعاشية مايقوم الطباع ويكمل الاخلاق فيتخرج التلميذ منها عالماً حازماً وانساناً كاملا صالحاً وقد اتحدت معلوماته بجميل صفاته . ولقد كان هذا اليوم يوماً مشهوداً فى هذه المدينة . رأيت فى صبيحته الاطفال بين بنين وبنات وقد هرعوا الى ساحة رحيبة على شاطئ البحيرة مما يلى المدينة والناس من حولهم لايحصى عددهم وما هى الا ساعة حتى انتظموا فى محفل حافل وساروا بموكب شامل لكل أبهة وعظمة وأمامهم الموسيقات الاميرية ورجال البلدية بملابسهم الرسمية فكنت ترى تلامذة كل مدرسة وقد تقدمها أحد بنيها وهو حامل علمها الخاص بها . يتلوها غيرها من مدارس البنين ثم مدارس البنات وقد أحاط بهم على جانبى الطريق رجال الشرطة والبوليس وعساكر طلمبات الحريق بملابس التشريفة الكبري وفى نهاية الموكب موسيقى أميرية أخرى تشنف

بنغماتها الاسماع كما أقرت التلامذة بمرآهم الانظار والابصار . وسار الموكب الذي يحيط به الجلال والجمال يخترق شوارع المدينة الكبرى حتى وصل الى ميدان واسع امام مركز الحكومة ( البلدية ) وهنالك أخذ التلامذة يلعبون فرحين مسرورين ثم رجعوا الى منازلهم وهم اكثر فرحاً وجذلا .

وفى أثناء سير الموكب سألت رفيقا لى من أهل البلاد عن هذا الاحتفال فقال لى ان هذا اليوم عيد الاطفال وفيه يوزعون المكافآت الرسمية بمدارسهم على من نجح منهم فى العلوم والفنون بحضور رجال الحكومة وسراة الامة وأهليهم وذويهم ثم يخرجون الى هذه الساحة حيث يكون موكبهم على ماترى. فقلت وهل هؤلاء هم الناجحون من التلامذة فقط ؟ فقال لا بل كل أبناء المدارس الموجودة فى هذه المدينة سواء كانت للاهالى أو للحكومة من مجدّ وخامل . وناجح وعاطل . فنظرت الى وجوههم فوجدت هذا يمشى وعلامات البشرى ظاهرة على وجهه وقد تمايل فى مشيته اعجاباً وطرباً من نتيجة اتعابه المدرسية التى نال من أجلها تلك المكافآت السنية . وقد وضع على صدره بعض ماأهدى اليه من وسامات النجاح والفلاح والناس ينظرون اليه معى بأعين سرورهم به . وينعطفون عليه بجاذبية محبتهم له . وهو فيما بين ذلك يخطو خطوات الظافر المنصور . وقد جرت فى عروقه روح الهمة فقوت عزمه للمحافظة على ماناله من هذه الرفعة بل والزيادة عليها بزيادة نشاطه وجده واجتهاده وهو يقول فى نفسه لو كنت اشتغلت أكثر واجتهدت زيادة عما جديت فيه لنلت اكثر من هذا ولكن لاأدع ورائى جهداً فى المستقبل حتى أظهر للقوم . بأكثر مما ظهرت به امامهم اليوم .

ورأيت ذلك يمشى وقد التفت ساقاه على بعضهما من الخجل وقطب

وجهه وأسال دمعه . ورأي بعينيه من شفافية جفنيه المنكسرين عليهما خجلا من خيبته التى كانت نتيجة اهماله فى دروسه أولئك الناس وهم ينظرون اليه شزراً بين ضاحك منه وساخط عليه فعض على شفتيه ندما على مافرّط من حيث لاينفعه ذلك فيما فات . ولكن فيما هو آت . وجمع اليه كل حواسه وعقد بقوتها عزمه على اجتهاده فى المستقبل حتى يمحو عنه هذا العار . ويصل الى مابلغه اخوانه من المجد والفخار . وبينما أنا منشرح لهذه الطريقة التى اتبعتها الحكومة السويسرية لنجاح بنيها الذين عليهم المعول . وفيهم أمل المستقبل . تذكرت حكومتنا وقد قصرت مكافأتها على من يحوز قصب السبق من أولادنا فى الالعاب الرياضية البدنية فى احتفالاتهم الحافلة وكيف انها أهملتهم فى علومهم وفنونهم وصنائعهم فاهملوها وألقوا بأنفسهم الى الاخرى (وماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ) فتكدر صفو سروري وكأن قد انعكست على وجهى صورة من عبس وقطب من غير الناجحين فى هذا الموكب . نعم لاأنكران هذه الالعاب ضرورية لتنمية الجثمان ولكن لالدرجة اهمال العلوم معها والله تعالى يتولانا بلطفه ويرشدنا فى سبيل الاصلاح الى حقيقة مايفيد هؤلاء الذين نضع فيهم كل أملنا وكل سعادتنا انه هو السميع العليم .

## ﴿ نزهة فى البحيرة على ظهر مركب بخارية ﴾

قد كان الحرّ مدة اقامتنا على البحيرة شديداً جداً حتى وصل فى بعض الايام الى ٢٥ درجة من الترمومتر المئينى فى الظل فاستأجرنا يوما رفاصاً وركبنا على ظهره فى الساعة الثامنة صباحا من چنيف فسار بنا فى هذه البحيرة التى تنقسم الى قسمين : الصغرى وهى من چنيف الى نيون . والكبرى وهى من

هذه الى ڤيلنوف فكنا ننتقل من شاطئ الى آخر متتبعين مواقع البلدان الكبرى وكانت تلك المشاهد على غاية من الجمال : واد لطيف النسق . بهيّ الرونق مخضل زرعه . منعش منظره . قد اخترقته هذه البحيرة التى صفا ماؤها وبهج رواؤها واكتنفته شمالا جبال الالب وجنوبا جبال چورا . وقد اتصلت خضرتها بنضرته . وبهجتها بزهرته . وهذه البحيرة على هيئة هلال طرفا قوسه الى الجنوب مائلين الى الشرق قليلا وعلى الطرف الغربى منه مدينة چنيف وارتفاعها ٧٥٣ متراً عن سطح البحر وعلى الشرقى قرية ڤيلنوف والشاطئ الشمالى كله لسويسرا والجنوبى بعضه لفرنسا .

سرنا على هذه المرآة البلورية التى يحيط بها ذلك البرواز الزمرذي وقد انعكست فى صفائها السماء وشمسها . واتصلت أطراف أشعتها الصورية بالحقيقية منها وأرادت أن تجذبها شيئاً من صفاء ضيائها وسناء نورها . حتى تكافئها فى كامل أوصافها ولكن هذه أبت عليها تلك الكرامة فأخذت باطواقها فى نقطة اتصالهما البلورية واستمدت بيد النسيم العليل فتحركت على بعضها بلطف فتحرك لها وجه الماء وحال بينهما بحجاب فضىّ كمل بهاؤه . وعظم سناؤه . وحجب الصورة عن الناظرين .

ومازلنا حتى وصلنا ڤرسوا وهى قرية لطيفة جداً فى ضواحى المدينة قد حسن شكلها . وجمل وضعها . ثم قرية كونى وهي فى شاطئها الاتقل عنها بهجة ونضارة . وتجاه هذه الضفة الجنوبية قرية انماس التى تبتديء منها الحدود الفرنساوية مما يلى البحيرة ولم نزل سائرين بين هذه الضفاف المخضلة وقد راقنا ماعليها من القصور الباهرة . والرياض الزاهرة . حتى وصلنا الى مدينة نيون على الشاطئ الشمالى وهى مدينة لطيفة جداً بنيت على مرتفع من الجبل

وعدد سكانها ستة آلاف نفس . وبعدها انفرج أمامنا مرأى البحيرة حتى كأنها البحر الزاخر فاتجهنا نحو الجنوب الى ان وصلنا الى مدينة اقيان الشهيرة بحماماتها وهي من أعمال فرنسا ( ومنها الماء المعدنى المسمى باسمها وهو مشهور فى انحاء الارض كلها ) فراقنا منظرها وشاقنا نظام أبنيتها وجمال مايحيط بها من الرياض والجنان . التى يأخذ جمالها بلب بنى الانسان . وأمامها من الجهة اليسرى مدينة لوزان الشهيرة الكبيرة وهي رأس ولاية ( فود ) السويسرية وعدد سكانها نحو ٤٥ ألفاً . أما منظرها فمن أعجب مايري الراؤن ويصف الواصفون . تدرجت مبانيها ورياضها وغياضها وشوارعها على ميل الجبل بشكل أقل مايقال فيه أنك ترى المدينة وقد بسطت أمام عينيك كأنها لوحة فوتوغرافية أحدق بها البصر فشاهد كل مافيها من مبانيها اللطيفة ومناظرها الجميلة وشوارعها الواسعة فى لمحة واحدة . ثم مررنا على سان جولف وهى آخر حدود فرنسا على البحيرة نصفها الشمالى لها والنصف الآخر لسويسرا يفصلهما نهير صغير يصب فى البحيرة . وفى تلك المنطقة من جبال الالب المحاجر التى تؤخذ منها الاحجار للبناء فى كل جهاتها . وتجاهها من الشاطئ الآخر جملة قرى قد اتصلت أبنيتها ببعضها فتؤثر أجمل تأثير على البصر بحسن منظرها ولطافة ابنيتها وهى ( كلارنس ومونتيريه ) وهى أكبرها ( وترينيه ) وهناك يرفع الجبل وتظهر عليه قمة عالية يقال لها صخرة ( نيه ) وارتفاعها عن سطح البحر يبلغ ٢٠٤٥ متراً وعليها لوكاندة كبيرة يصعد اليها بواسطة طريق حديدى مضرس ترفع عليه عربات بواسطة الثقل أعنى ان هذه العربات وهى فى أسفل الوادي تتصل فى أعلاه بواسطة سلاسل من الحديد بعربات أخري مملوءة من الماء فاذا أريد اصعاد هذه أنزلت الاخرى على شريط آخر فكلما نزلت جرّت الاولى

الى الصعود حتى اذا وصلت الى الارض صعدت تلك الى رأس الجبل وهكذا فى النزول . وهى في صعودها ونزولها قد انتظم سيرها بحساب دقيق فلا حركة ولا رجة . وهذه الجهة بها كثير من الاوكاندات والمساكن للزائرين والسائحين الذين يقصدونها لجمال منظرها وحسن روائها وعليل هوائها وصفاء جوها .

ثم وصلنا الى قرية ڤيلنوف وهى على منتهى البحيرة من الشرق وهنالك يبتديء وادي نهر الرون وعرضه خمسة كيلومترات فيما يلى البحير . ثم الى بوفريت على الشاطئ الآخر وعندها يصب النهر المذكور فى البحيرة وتياره يصل الى بعد كيلومتر واحد فى مياه البحيرة مدة شهري يوليه وأغسطس . والى خمسة كيلو مترات في مايه ويونيه اللذين تسيح فيهما الثلوج المكوّنة للنهر بكثرة عظيمة . وماء النهر حيث مصبه مشوب بالسواد لما فيه من المواد الطينية والحجرية ولكنه لا يلبث أن تؤثر عليه البحيرة بصفائها .

ثم رجعنا من حيث أتينا وقد هدأ سطح البحيرة وانعكست فيه ظلال مايحيط بها من الاشجار وكان تماوج الماء من سير المركب يلعب بصور الاغصان والافنان التى انعكست صورتها فيه لعب النسيم العليل باعيانها مما يستميل اليه النظر بمرآه اللطيف . وما زلنا هكذا بين انشراح وافراح . وسرور وحبور . حتى وصلنا الى مقامنا قبل الغروب بسلامة الله .

## ﴿ سياحة فى جبال الألب ﴾

### { من چنيف الى زرمات }

ركبنا البحيرة من نيون فى الساعة العاشرة صباحاً من يوم ٢٢ يوليه

فوصلنا محطة تريتيه فى الظهر وتغدينا بها ثم ركبنا السكة الحديدية وسرنا فى وادى نهر الرون الي ( ڤسب ) وبعضهم يسميها فيپچ ( وهى على مسافة ٦٨ كيلومترا من چنيڤ ) وارتفاعها ٦٥٣ مترا عن سطح البحر . وبمجرد ماوصلناها ركبنا فيها سكة حديد ضيقة الى زرمات التى تبعد عنها بمسافة ٣٦ كيلو مترا فسار بنا القطار على أجنحة البخار. فى وادي ضيق صاعد على طريقه الحديدي الذي حفر له فى جانب الجبل على شاطئ نهر ڤيپچ وهو مكوّن من ثلاثة قضبان الوسط منها مضرس يقابله عجلات مضرسة فى القطار تتماسك به اثناء سيرها عليه فى الانحدارات أو المرتفعات التى تلاقيه فى طريقه . وما زلنا نرتفع به أو يرتفع بنا حتى اذا وصل الى محطة استالدان وقام بنا منها كنا اذا نظرنا الى الجبل وجدناه من فوقنا كأنه حائط ارتفع على رؤسنا حتى لامس السماء . وكلما أرسلنا اليه بصرنا اضطرب ورجعت اليه أشعته بعجلة الخائف وأسرعت الى أفئدتنا كأنها تريد أن تحتمى بها من هول ماوقعت عليه فتسمع من شدة ضرباتها مايزيد في روعها فاذا نظرنا الى النهر وقد هوي فى مجراه الى مالا تسمع شديد خريره الاذن ولا تبصر مديد سريره الاعين انقلبت أبصارنا على أعقابها وتعلقت بأذيال هذه الجبال . مستغيثة بها من شر السقوط فى مهاوى ذلك الوبال والنكال .

وكانت الثلوج تظهر لنا على أعالى هذه الرواسى وقد انكسرت عليها أشعة شمس الغروب فلمعت كأنها المرآة أو صفائح الفضة قد شابها شئ من الذهب وما زلنا نرتفع مارين من نفق الى آخر ومن منحنى ضيق الى غيره يسير عليه القطار طوع ارادته لان عرباته مركبة على صوانى متحركة يسهل بها الانزلاق على القضبان فى تلك المنحنيات المخيفة الى أن وصلنا الى محطة سان

نقولا وهنالك ارتفع النهر حتى كاد يلتهم طريقنا وهو يزأر زئير الاساد .وقد طغى وبغى ولا طغيان ثمود وعاد . اذا اصطدم بالصخر فتت منه الاكباد . أو ارتطم بالجبال زعزع منها تلك الاوتاد . وكان يهبط اليه من أعالى هذه الراسيات مجاري الماء من جهتيه كأن هذه الجبال تريد أن تلهيه بها عنها ساعة وتكتفي بها شر تحوله عليها زمنا فكان يتلقفها بأنيابه ويبتلعها بين شخيره ونخيره. فاذا اهتضمها زادت فى قوته وصولته فهمهم ودمدم. وحمحم وبرطم. وظهر عاجه. وانتفخت أوداجه . وما زلنا نصعد على ضفته الى مصدره وكلما سرنا رأيناه وقد تناقص ماؤه . وقلت غوغاؤه . حتى وجدنا الوادى قد انقفل امامنا وفي نهايته ( زرمات ) وهى بلدة صغيرة منقسمة الى قسمين. قسم للاهالى ومنازلهم من الخشب السميك الذي يبلغ سمك حوائطه خمسة عشر سنتيمتراً وهى مركبة على أعمدة من الحجر أو من كتل الخشب يبلغ ارتفاعها مترا لمنع الرطوبة وماء الامطار عنها .

والقسم الآخر وفيه اللوكاندات الفاخرة التى ارتفعت أركانها . ونخم بنيانها . وحسن منظرها وتوفرت فيها أسباب الراحة للسائحين والسائحات . والباحثين منهم والباحثات. في طبيعة هذه الجبال وتلك الثلوج وما يحيط بها من الجليد الذي هو من اكبر أسباب الحياة بأوروبا وينتعش برؤيته القادمون عليها لتغيير الهواء والتطبب تحت جوها الصحيح اللطيف أو اللاجئين الى قرها من شدة الحر . فحمدنا الله على سلامتنا وبتنا في احدى لوكاندتها وهنالك رأينا فرقا كبيرا بين درجة الحرارة التى كنا فيها على بحيرة جنيف صباح يومنا وقد بلغت ٣٥ فوق الصفر وبين هذه التى وجدنا فيها بزرمات ودرجتها تختلف من ٤ الى ٨ فوق الصفر ليلا أو نهاراً وارتفاع هذه البلدة عن سطح البحر

١٦٢٠ متراً وعلى ذلك يكون ارتفاعها عن (قسب) ٩٦٧ متراً على منحدر طوله ٣٦ كيلومتراً

## ﴿ جبل جرنار جرات ﴾

وفى صباح اليوم الثانى ركبنا ترامواياً كهربائياً وصعدنا به قاصدين قمة جبل جرنار جرات وهذا الطريق لا يستعمل الا مدة الصيف لكثرة الصواعق التي تنهال عليه والاخطار التى تحدق به زمن الشتاء والربيعين. وما زال صاعداً بنا على أقواس يتلو بعضها بعضا طول أوتارها ٨٠ متراً وانحدار ميلها ١٧ في المائة ماراً بأنفاق قد نقبت له في جوف الجبل حتى مررنا على كوبرى من حديد وصل سلسلتى جبلين ببعضهما وقد غارت الصخور من بينهما ونزل فى غورها مجري ماء كبير سقط من قمة أحدهما بازاء هذا الكوبري على هيئة شلال ارتفاعه نحو ثمانين متراً وقد دوت لدويه الجبال . واعترانا من شدة رهبته وصولة هيبته أهوال وأي أهوال . وبينا القطار يسير على هذا الكوبري الذى طوله مائة متر وقد تحرك بحركة قلوبنا التى انتفضت من الهلع وارتج برجتها وضجتها. سكنت نفوسنا أمام هذه الاخطار المحيطة بها ورأت بعين أوهامها قرب منيتها وما كادت تسلم سلاحها حتى خرجت بها العربات ظافرة من جوهذه الهاوية الهائلة .

وقد وضع تحت شلال هذا المجرى آلات قوتها ٦٠٠ حصان يديرها ضغط الماء لتوليد الكهربائية التى تنير المدينة . والى هنا تنتهى الاشجار التى غرست على ميل الجبل وهي فى زهرتها ونضرتها . ثم استمرينا في طريقنا حتى وصلنا محطة (ريف الب ) وهى على ارتفاع ٢٢٢٠ متراً وفيها لوكاندات

لأكل ونوم السائحين وفيها بعض الاشجار وقد احمرت قشرتها وصارت كرأس الاصلع ليس عليها من ورقها الا ما ينبئك بحياتها وان كانت فى عداد الاموات .

ثم أخذ القطار بنا سيره ماراً من هضاب الى صعاب حتى وصلنا الى محطة ( ريفل برج ) وهى على ارتفاع ٢٥٧٥ متراً وفيها طريق آخر حديدي الى ( ريفل هورن ) وارتفاعها ٢٩٣١ متراً ولم نزل سائرين على طريقنا حتى وصلنا الى محطة جرنار جرات وارتفاعها ٣٠٢٠ متراً وهى نهاية الطريق الحديدي ومنها صعدنا على أرجلنا بين الثلوج التى كانت تغطى بعض طريقنا نحو نصف ساعة حتى وصلنا الى لوكاندة موضوعة على قمة الجبل وكان الجو صحوا والهواء لطيفاً جداً .

وهنالك رأينا الجبال التى أشرفت على هذا الوادى من جميع جهاته وقد هوى من تحتها الى حيث لا يراه الرائى وكأنى بها وقد هالها منظره وتوجست خيفة السقوط اليه أو فيما أحاط بها من مستودعات الثلوج ذات اللون السنجابى قد شابته زرقة خفيفة ( وعددها أكثر من خمسين ) فشابت نواصيها وجمدت دماؤها في عروقها الا ما تسيله منها شمس النهار بوخز أسنة أشعة حرارتها فينزل الى حيث مجرى النهر وقد انقص من حياتها ليكون حياة للعالم المتحرك . وكان امامنا جبل يقال له جبل الروز ( الورد ) وكأنه كله قطعة من ثلج ولقد رأيت فى بعض جهات منه بعض أعشاب أرسلت أصولها اليه لتبحث في هذه المنطقة المجدبة عما يقوم بأودها فقابلتها الثلوج بأفواه امتصت دماءها التى تقوم بها حياتها فاصفرّ لونها وذبلت نضرتها ومكثت مكانها بين الحياة والموت . وبينما أنا أشاهد هذه المناظر الجليلة دعانى

أحد صحبي وأعطاني منظاره وقال لي انظر الى جهة كذا فشاهدت أناسا يمشون على هذه الثلوج قاطعين عليها طريقهم من جهة الى أخرى بمراكيب ضخمة نعلها من الفلين قد غطى سطحه الذى يلامس الارض بمسامير كبيرة لترفعه عنها وفي أيديهم عكاكيزهم وأمامهم مرشدهم ولا أدري لم ذلك التعب والنصب ولكنها رغبة فى القوم تدفعهم اليه وهم على يقين مما هنالك من المشاق والاخطار . وكان صعودنا بالطريق الحديدى الى هذا الجبل فى مسافة ساعة وأربعين دقيقة . وبعد ان تغدينا في هذه اللوكاندة وزودنا الطرف من جمال هذه المشاهد مرة أخرى هبطنا الى زرمات من حيث كنا صعدنا وركبنا وابور السكة الحديدية البخارية الى فيبيچ ومنها الى محطة بريج والمسافة بينهما ٢٢ كيلو متراً وهذه المدينة ترتفع عن سطح البحر بمقدار ٦٧٠ متراً وهى آخر محطة حديدية في وادى الرون وعدد أهليها ١٢٠٠ نفس وهى وان كانت صغيرة الا أنها لطيفة المنظر حسنة النظام والوضع فبتنا فيها ثم ركبنا منها عربات صباح اليوم الثانى قاصدين مستودعات الجليد التى يتولد منها نهر الرون وتسمى بالفرنساوية ( جلاسييه دورون ) وهى منها على مسافة خمسين كيلو متراً .

فسرنا باسم الله فى مبدأ الساعة التاسعة صباحاً بطريق بين جبلين كان خطه نابليون الاول سنة ١٨٠٠ وبعد قليل رأينا مجرى ماء ينزل من الجبل ويسير معنا فى قناة من الاسمنت ارتفاعها نحو مترين وعرضها مثلهما تقريبا وطولها على طول طريقنا حتي انتهت بأن دخلت الى فتحة من الجبل المقابل لها مخترقة نهر الرون وهذه الفتحة هي نفق جديد يشتغل القوم بثقبه تحت الجبل ليوصل الى سكة حديد ايطاليا من الجهة الاخرى فاذا دخل اليه ذلك

الماء أدار تياره آلات تقطع تلك الصخور دون احتياج الى عامل يضرب بمعوله وبقزمته . أو صانع يقطع بأزميله ومطرقته . ويقال ان هذا النفق أكبر انفاق الدنيا طولا وينتهى من عمله بعد أربع سنين ويسمى نفق سانبلون باسم الجبل الذي يخترقه .

ومازلنا سائرين حتى وجدنا طريقا يرتفع على الجبل بشكل حلزونى تقريباً فلما بلغنا الى قمته سرنا عليها قليلا ثم نزلنا الى واد آخر ولم نزل نجد السير مدة ساعتين حتى وصلنا الى قرية ( فيش ) وبها نزل العربجية وطلبوا جرادل وخبزاً قطعوه فيها لقماً وأطعموه خيلهم ثم سقوها . وريثما استراح الخيل قاموا بنا من هذا المكان الذي به بعض اللوكاندات للسائحين . وفيها بوستة تأتى اليها بعربات الامنيبوس ( واسمها ديليچانس ) وبجوار هذه القرية نهر يسمي باسمها وهو ينزل من مستودع ثلوج على رأس جبلها ويصب في الرون . ولما وصلنا ( مونشنز ) تغدينا فيها ثم أخذنا طريقنا مجدين السير حتى وصلنا لوكاندة ( الجلاسييه دورون ) فى منتصف الساعة الخامسة مساء وهى على ارتفاع ١٨٠٠ متر فوق سطح البحر . وما هى الاّ بضع دقائق نفضنا بها عنا وعثاء السفر حتى ذهبنا الى الجلاسييه وهى مستودع الجليد التى يخرج منها نهر الرون وتبعد عن اللوكاندة نحو ربع ساعة وهى عبارة عن جليد تراكم على بعضه فى دخلة بين نهايتى فرعى الألب اللذين ينتهى بهما هذا الوادى ومنظرها من قرب كالجبر المطفأ قد غير سطحه ماتثيره عليه الرياح من التراب وعلى هذا السطح المائل ثقوب قد شقتها يد الحرارة فأسالت منها الماء الذى ينزل من وسطها الى مايلاصق الارض وهنالك يتكوّن على بعضه وينقذف من مخرجه الذى أحدثه بقوته فى أسفل هذا المستودع على شبه مغارة طبيعية بحركة

سريعة وصوت أشبه بصوت الرعود وهنالك ترى تيار هواء شديد يخرج من المغارة درجة برودته الى ماتحت الصفر بكثير . وقدسقط فى هذه القبوة كتل كبيرة من الثلج الذي هو أبيض من نفسه لان بياضه لايشبهه الاّ ماقام به من شفافية لونه مما لايماثله شئ فى ناصع صفائه ولذلك يضرب به المثل فيقال ( أبيض من الثلج ) وهذه الكتل قليلة السيحان فى الماء الذى أحاط بها لانه فى درجة برودتها تقريباً ولذلك تراها وقد ألقى بها وسط تياره الشديد كأنها قطع من صخر لاتتأثر الا بما يرقه منها بشدة حركته .

ومنظر سطح الجليد من داخل هذه القبوة مائل للزرقة الصافية الشفافة البراقة اللماعة وكذلك منظر الثقوب التى على سطح المستودع من داخلها .

وفى جانب هذه الجلاسيه ( الثلاجه ) مغارة صناعية قد حفرت فيها يبلغ طولها ٣٠ متراً ونصفا وارتفاعها متران تقريباً وتنتهى بشبه أودة صغيرة فدخلنا بها الى آخرها وكأنها صنعت من البلور الذى سمك حجمه وازرقّ لونه وصفت رؤيته وجمل منظره وكلها قطعة واحدة من الجليد الذي اندمج فى بعضه وتماسك كل التماسك حتى اذا وضعت يدك على سطحه لايصيبها منه الا مايعتريها من ملامستها بشئ شديد البرودة أو الحرارة ويسمونها مغارة قسوجن نسبة للذى صنعها . وهذا المستودع لايعرف تاريخ تكوّن الجليد فيه وهو يبتدئ من سطح الجبل الى أسفله وبياضه يزيد فى الشمس كلما ارتفع سطحه أما اذا حالت بينه وبينها سحابة فتراه وقد عتم لونه وزادت زرقته حتى اذا ماانقشعت رجع الى بياضه الناصع الذى يخطف البصر وتحار فيه الفكر . وفي نهاية سطحها الرأسى ترى كتلا عظيمة من الجليد أشبه شئ بالصخور يتلو بعضها بعضا ويختلف ارتفاعها من ١٥ الى ٢٠ متراً وقد انشق من تحتها

سطحها الذى قامت عليه الى جملة أثلام هائلة يؤدى بعضها الى أسفل هذا المستودع ومن تحت هذه الصخور فتحتان تتلو احداهما الأخري قد انبعث منهما الماء على شبه فوارات شديدة . ولم يكد ينفذ منهما حتى يسقط بين أثلام كبيرة الى أسفل الجلاسيه . وهاتان الفتحتان قد انفجرتا حديثاً وزاد بهما ماء النهر زيادة عظيمة عن ذي قبل ولذلك اهتمت الحكومة السويسرية بهذا الامر وأرسلت لجاناً علمية للبحث عن علة هذا الحادث الجلل وهى الآن مشتغلة بمأموريتها .

فلما صعدنا الى لوكاندة بلقيدير ومعناها ( المنظر الجميل ) التى فى أعلى الجلاسيه ( ثالث يوم ) صعدت الى الجهة التى تسمح لى برؤية سطحها على الجبل وتبعد عن هذه اللوكاندة بنحو عشرين دقيقة فرأيت منظرها جميلا قد امتد أمام عينى الى مسافة بعيدة وكأن قد فرش سطحه بالثلج الناصع وفيه بعض أثلام صغيرة لاتعوق سير من أراد المشى عليه فسبحان من أنزل هذا الماء من السماء ثم حشره في تلك المخازن وجمده فيها ثم أرسله منها بقدر معلوم ليكون حياة لخلقه ومظهراً لتدبيره الاقتصادى فيهم وهو من معنى قوله تعالى ( وان من شئ الاعندنا خزائنه ومانزله الابقدر معلوم ) فسبحانه جلت قدرته . وعظمت حكمته .

## ﴿ من جلاسيه الرون الى هاندك ﴾

وفي صباح ٢٦ يوليه ركبنا عرباتنا وصعدنا فى طريق الى أعلى الجبل وهو على شكل حاآت قد اتصلت أذيالها برؤس بعضها وحدة زواياها وانفراجها بحسب الميل الذي يسمح للعربات بالصعود عليها وهو من ١٥ الى ٢٠ فى المائة

وما زلنا حتى صعدنا الى ممر بين مرتفعين يقال له ممر جريمزل وهو يرتفع عن اللوكاندة بنحو ثمانمائة متر وهنالك نظرت الى وادى الرون الواسع فرأيته قد هوى الى حيث كنا نرى الجبلين اللذين يكتنفانه قد اتصلا ببعضهما من أسفل والنهر كأنه حية بيضاء تنساب على نقط اتصالهما ونحن وان كنا لم نميز عند ذلك مسيره الا أننا كنا نسمع خريره. وهذا الوادى زمن الشتاء تغطيه الثلوج الى ما يرتفع عنه عشرين مترا من سطح أرضه وفى هذه المدة تلبث اللوكاندة المذكورة تحت سطحه وقد فرّ منها أهلوها وأحكموا سد شبابيكها ومنافذها وأبوابها بعد ان حشروا فيها أحد الخدمة ومعه مايلزمه من اكله وشرابه ونوره وناره ليتعهد اثاثها ومتاعها طول هذا الفصل البارد. وهو كأنه العالم الحي وحده ليس له من انيس ولا جليس سوى كلبه الذى يلقى به معه فى هذه المقبرة ولا يزال الان بها حتى يشتد ساعد الحرارة الجوية فيقوض دعائم ما ابتنته البرودة عليها من أسوار ذلك الجليد. ثم سرنا بهذا الممر نقطع به الجبل الى طرفه الآخر وقد أحاطت بنا الثلوج من جميع الجهات وكانت كتلتها يبلغ سمكها مترين وان كانت تصل فى زمن الخريف الى عشرين متراً. ولقد مررنا ببحيرة على سطح الجبل يقال لها بحيرة الموتى لما وجدوه فيها من جثث القتلى حيث كانت هناك موقعة حربية بين الفرنساويين والنمساويين سنة ١٧٩٩

ولما وصلنا الى الطرف الآخر وجدنا طريقاً منحدراً وهو أول حدود ولاية برن (من ولايات سويسرا) فانحدرنا اليه وهنالك وضع العربجية قطعة من الحديد تحت احدى العجلتين المؤخرتين من عرباتنا لتمنعها من الانزلاق وكانت الشمس حارة وان كان الجو بارداً فحميت حوافى الصخور على ما تحيط به من الثلوج فأذابت منها ماء فاتراً أخذ يتساقط على صخور أخرى نازلا الى

بحيرة فى الوادى الذى نهبط اليه واسمها بحيرة جريمزل . وفى أثناء نزولنا كنا نرى جبالا أخرى قد ارتفعت على الجانب الآخر لهذا الوادى وفيها مستودعات الجليد التي يخرج منها نهر الآر وكان منظرها موحشاً جداً حيث ما كنا نرى الا صخوراً تتلوها صخور وحجارة تعقبها حجارة والوادي بلقع لا زرع به ولا نبات اللهم الا بعض النباتات الطفيلية التى تنبت على بعض جهاتها التى علتها طبقة خفيفة ترابية فلما وصلنا الى أسفل الوادى رأينا البحيرة المذكورة عظيمة وقد صفا ماؤها وبعد غورها فنظرت اليها فرأيت الجبال التى تحيط بها قد انعكست فى مرآتها واتصلت بالسماء من جهتيها أعلاها وأدناها فتصورت انى فى مركز العالم العلوى وهذه الجبال قطر وصل بين طرفيه ولم أستطع ان ألوى بصرى برهة عن جمال هذه المشاهد التى يشعر المرء بلذتها ولا يقوى على كمال وصفها .

فقطعنا البحيرة الى شاطئها الآخر بواسطة قنطرة خشبية وهنالك قيمت لوكاندة قد سميت باسمها وترتفع عن سطح البحر ١٨١٧ متراً وتبعد عن نزلنا بنحو تسعة كيلومترات قد قطعناها فى ساعتين تقريباً . ويخرج من هذه البحيرة مجري ماء ان لم يكن مبدأ نهر الآر فانه يصب فيه قريباً من المجري الذي ينزل من المستودعات الجليد التى سميت باسمه فلما خرجنا الى وادى الآر سرنا على الشاطئ الايمن من النهر الذى ابتدأ صغيراً ولم يلبث ان كبر حجمه وضخم جسمه مما يلقى فيه من مجارى المياه التى تنزل اليه من الجبال المحيطة به وكنا نخال ان بعضها وقد نزل بين عجيجه وضجيجه انقض من علاه على طريقنا فقطعها علينا حتى اذا وصلنا اليه وجدناه قد سقط فى حفرة بجانب طريقنا ومر من قنطرة تحتها الى النهر . وما زلنا سائرين حتى وجدنا الجبل

قد انعطف علينا وانحني على رؤسنا غير مرتكز على شئ من الجهة الآخري كأنه أراد ان يظللنا من حرارة الشمس ولكنا لم نقابل منه هذه اليد البيضاء الا بخوفنا مما عساه ان يسقط علينا منها فنصادف منه ماناله صاحب الدب . من هذا المحب . الذي أراد به خيراً فساق اليه بحمقه شراً . ولم نزل فى هبوطنا حتى وصلنا الى الوادي الحقيق وفيه بعض أشجار الصنوبر .

وهذه الجبال التى قطعناها كلها من الصخور والجرانيت ( الصوان ) الازرق والرمادى والاصفر وعرض الطريق عليها يبلغ خمسة أمتار أعنى انه يسع عربتين تمران بجوار بعضهما وهو مرصوف جيداً وعلى جانبه الخالى حاجز من الخشب تثبت على قواعد من الحجر نازلة في حائط مبنية على طوله الى مايلى مسقطها من الجبل لتحفظه من الاختلال أو الانهيال وعليه أناس يصلحون مااختل منه

وما زلنا سائرين حتى وصلنا الى نزل هاندك وهو على ارتفاع ١٣٨٠ متراً فاسترحنا بعض دقائق ثم توجهنا لمشاهدة جمال شلال نهر الآر وهو على مقربة منه وكنا فى سيرنا اليه نسمع دوياً هائلا حتى اذا ماوافيناه رأينا ماء النهر قد سقط من مهده عن ارتفاع ٧٥ متراً الى لحده وقد أرغى وأزبد فى سقوطه وصارت كتلة مائه كالعهن المنفوش والتقى أثناء هبوطه بنهر آخر يسمى ايرلنباخ قد أتى من على يساره وسقط معه فى مهواته وهو كأنه نشارة الفضة فى لونه أو برادة الماس فى صفائه فلما اتصلا أثناء سقوطهما وثبا على بعضهما وكأنى بهما وقد أخذ كل باطواق الآخر وكثر بينهما اللجاج والهياج وعلا منهما الصياح والنواح فما كنت تسمع الا زمجرة الرعود . أوزئير الاسود . ثم اشتد منهما الهرج والمرج واستعرت نار الحرب بينهما وارتفع منهما دخان

أبيض مكوّن من ذرات الماء وقد أحاط بجوهما حتى حجبهما عن أبصارنا وعلا بعضه الى وجوهنا فرطب من حرارتها وكأنى بعين شمس الظهيرة أرادت أن تبصر من أمرهما ماقصر عنه نظرنا فأرسلت باشعتها تخترق هذا الدخان اللطيف فانعكست فى مرآته وأحدثت به ثلاثة أقواس قزح مدرجة فوق بعضها فأدهشتنا بعجيب تكوينها . وجميل ألوانها . وبديع روائها . وساطع سنائها . النهرين وما بينهما . والمتحاربين وما بلغ من أمرهما ( ومنظر هذه الاقواس لا يشاهد الا من الساعة العاشرة صباحا الى نهاية الاولى بعد الظهر وفى صحوة الشمس طبعاً ) فلله هو من منظر سلب الانظار بباهر جماله . واستهوى الافئدة بمظاهر جلاله . وحير العقول بعديم مثاله . وأطاش الاحلام بعظيم شلاله . الذي ارتجت لهول خريره الجبال ودوى له جوّ هذا الوادى واصفرّ لبأسه وجه هذى الصخور التى يمر بها أو عليها . أما أنا فقد وقفت أمامه موقف الحيران وقد ذهل لبه . وجمد قلبه . لا أدري اذا كنت في أرض أو على سماء . أو بين سلطة الجبال أو امام سلطان الماء . ولبثت مندهشاً من هذه الطبيعة التى كانت تترا آى لى أحيانا وقد لبست رداء ضعفها امامى واستكانتها لعظمتى حتى إخالنى وأنا ذلك القوي المقتدر على كل شئ وقد خلقنى الله تعالى على صورته . أمثل للعالم عظيم قوته وقدرته . ثم لم ألبث أن أراها وقد ظهرت لبصرى بهذه القوة الفائقة التى لا يحدها بيان . ولا يصل الى تصويرها جنان . فتصغر نفسى فى عينى حتى لا اكاد أراها . ويظهر لى ضعفى تجاه قواها . وازاء سلطانها وعلاها . حتى اتصور انى لاشئ وكأن وجودى امامها عدم .

ثم التفت الى من حولى من السائحين والسائحات . المتفرجين منهم

والمتفرجات . فوجدتهم وقد خرست منهم الالسنة والتوت أيديهم على صدورهم وهم يتفكرون فى كمال هذه المشاهد ويقولون فى أنفسهم معى لا يدان لنا أمام هذه القدرة العالية . والقوة اللامتناهية .

وبعد ان متعنا النظر من جمال تلك الطبيعة الفائقة عدنا الى اللوكاندة وتغدينا بها ثم رجعنا الى لوكاندة جلاسييه دورون حيث بتنا فيها .

## ﴿ من جلاسييه دورون الى اندرمات ﴾

وفى الساعة التاسعة من صباح اليوم السابع والعشرين ركبنا عرباتنا وصعدنا على الجبل المقابل للذي صعدنا عليه بالامس وما زلنا سائرين بين مرتفعات ثم منخفضات حتى وصلنا بعد ثلاث ساعات تقريباً الى لوكاندة بلفيدير وهى على ارتفاع ٢٢٠٠ متر ومنها رأينا منظر الجلاسييه المذكورة على ماذكرته لك فى وصفها وهناك كان الجوّ بارداً جداً مما يلى الجلاسييه يصل الى بعض الدرجات فوق الصفر . وبعد ان تغدينا بها سرنا فى طريق فوركه وقد هوى الوادى من تحتنا حتى وصلنا الى مكان يسمى ( أوپرا ألب ) وبه لوكاندة سميت باسمه وارتفاعها ١٩٦٤ متراً ولم نزل سائرين بل صاعدين والوادى يرتفع معنا حتى اذا ما اتصل سطحه بسطح الجبلين ووصلهما ببعضهما قام على نقطة اتصالهما لوكاندة تسمى لوكاندة (١) فوركه وارتفاعها ٢٤٣٦ متراً . وموقعها لطيف جداً

(١) قد رأيت بهذه الجهة عين ماء تخرج من الجبل وكانه اللجين فى صفائه والثلج في برودته فشربت منه بيدى ( ولم اكن عطشانا ) فوجدت انه أحلى ماء شربته فى حياتي على اني لم أشاهد فرقا كبيراً بينه وبين عيون سويسرا أو النمسا التى أرى انها اكثر عذوبة من ماء النيل الذى نضرب به المثل ونظن انه ولا غيره فى القارة الارضية .

بين جبلين شمالها وجنوبها ووادیين شرقيها وغربيها ويقصد هذه الجهة كثير من الناس لنقاوة هوائها وجمال مناظرها . ثم يهبط هذا الوادي الجديد ونهبط معه وهنالك تتسع منطقة الجبال وتظهر قممها وقد لبست من الثلوج لباساً أبيض وقدعلت على رؤسنا علواً كبيراً ونزلت بميل حتى تقابلت مع بعضها من أسفل لتكون مجرى لنهر الرين الذى يبتدئ فيها من الماء الذى ينزل اليه من جوانبها . أما منظرها فهووان كان موحشاً فليس كئيبا لما عليها من النباتات التى تغطى أغلب صخورها وهنالك ترى جلاسيه (ايفل) التى هى أكبر أمهات النهر المذكور .

وقد شاهدت بين هذه النباتات كثيراً من الازهار المختلفة الاشكال والالوان وبينها نبات الخلة المعروفة عندنا . وبودرة العفريت وفراخ أم على وغيرها . ولما نزلنا الى أسفل الوادى مررنا على قرية هوسبنتال وهى وان كانت صغيرة الا أنها لطيفة ونظيفة وفلاحوها يضعون فى منافذ بيوتهم التى من الخشب زهريات جميلة وهنالك تظهر الغابات التى غرسها القوم على جوانب الجبال وبعض المروج التى تتصل بها ومازلنا نسير فى طريق منتظم كأنه خط بالمسطرة وسط هذا الوادى حتى وصلنا الى مدينة اندرمات التى هى في نهايته وقدأقفل شرقيها بجبل مستعرض والمسافة التى قطعناها بين جلاسيه الرون وهذه المدينة ٤٣ كيلو متراً . وشكل هذا الوادى مثلث على رأسه قرية هوسبنتال التى مرّ بك ذكرها وفى منتصف قاعدته مدينة اندرمات وهى جميلة الشكل لطيفة البنيان عدد أهلها يبلغ ٨٠٠ نفس وبها كثير من اللوكاندات الجميلة التى ليس لهامثيل فى نظامهاوضخامة بنيانها وغالى أثاثها الا فى المدن الكبرى وهى مركز حربى مهم جداً لكونها على مقربة

من ايطاليا ويقسمها نهر الرين الى قسمين وهذه المدينة على ارتفاع ١٤٤٥ متراً فوق سطح البحر .

## ﴿ من اندرمات الى جوشنن ﴾

وبعد أن أمضينا ليلتنا فى هذه المدينة ركبنا عرباتنا صباحا وتوجهنا الى جوشنن التى هى على خمسة كيلو مترات منها فمررنا من بوغاز بين جبلين يسير فيه نهر الرين . وقد أقيم على هذه الجبال مما يليه القلاع والحصون التى لا يمكن للعين أن تراها أو تعين نقطها مما أحاط بها من الصخور . وهذه القلاع مشهورة بأنها أحسن شئ فى نوعها وليس بمسموح لاحد زيارتها ومازلنا سائرين على حافة النهر نخترقه من شاطئ الى آخر على حسب مايتيسير لنا المرور فى هذا الطريق الضيق حتى وصلنا الى قنطرة عليه وقد سقطت مياهه من تحتها كتلة واحدة على هيئة شلال وقد أرغى وأزبد وهاج وماج كمن به جنة وارتطم بباقى الصخور التى وقفت له فى مسقطه الذي تبلغ مسافته ٣٠ متراً فيسمع لها صوت هائل تردده الجبال وترده الى اسماعنا فيكاد يصمها وهذه القنطرة تسمى بقنطرة العفريت وقد بنيت في سنة ١٨٣٠ ومن تحتها قنطرة أخرى مكسورة وعن يمينها أناس ينحتون فى بطن الجبل أثرا من الصخور على هيئة صليب يبلغ طوله ١٢ مترا وهو أثر لذكرى الطيب الذكر القائد الروسى سوواروف الذي اتحد بجيشه مع النمساويين وأتى بين أغسطس وستمبر سنة ١٧٩٩ لمحاربة الفرنساويين وأمر جانبا من جيشه فى هذا المضيق بمداهمة عدوه المتيقظ فلما عبر القنطرة المذكورة نسفها الفرنساويون وأوقعوا بهم ايقاعا عظيما حتى أفنوهم عن آخرهم وكان عددهم نحو أربعة آلاف نفس وان كانت انتهت الحرب بعدها

بهزيمة الفرنساويين من جهة أخرى .

وما زلنا سائرين حتى وصلنا الى جوشنن وهى مدينة صغيرة لطيفة جميلة على ارتفاع ٩٠١١ متراً وبها محطة سان جوتار الحديدية «التى يبتدئ خطها من لوسرن وينتهى الى فلولن من أعمال سويسرا » وبجوار هذه المحطة مدخل نفق سان جوتار المشهور .

وهو أكبر أنفاق العالم الحاضرة وقد نقر فى الجبل من جوشنن الى مدينة ايرولو على طول خمسة عشر كيلومترا تقريباً وعرضه ثمانية أمتار وارتفاعه ستة أمتار ونصف وهو مرتفع من وسطه ومنحدر من طرفيه وانحدار طريقه يبلغ ٦ فى المائة ونقطة الوسط منه ترتفع عن سطح البحر ١١٥٤ مترا وطبقة الجبل التى تعلوه تبلغ ١٠٨٢ مترا وقد ابتدأت الحكومة السويسرية فى عمله من يونيه سنة ١٨٧٢ وانتهت منه فى فبراير سنة ١٨٨٠ وكان عدد الذين يعملون فيه كل يوم ٢٥٠٠ نفس وبلغت مصاريف عمله مليونين وأربعمائة ألف جنيه انكليزى تقريباً .

فشاقتنى رؤيته خصوصاً والفرصة متوفرة فاستأذنت صحبى وقطعت تذكرة من جوشنن الى ايرولو وركبت قطار السكة الحديدية اليه .

## ﴿ نفق سان جوتار ﴾

تحرك بنا القطار من محطة جوشنن التى هى على بابه شمالا فدخلنا من هذا الباب وقد اسودت وجهته من دخان الوابورات فكانت أول مخبر بسواد طريقنا فيه على رأى المثل المصرى ( الخير يظهر على الضبه ) وبمجرد مرورنا من تحت قبوته أخذ النور يذهب . والظلام يتغلب . كالليلة الليلاء أسرعت في

سيرها وضربت علينا أطنابها . وما هى الالمحة بصر حتى أحاطت بنا الظلمات. من جميع الجهات . وانبعث من العربات . نور لاضوء له يكاد لايرى المرء به الا من كان بجانبه وقد ساعدته على الحكم بوجوده حاسة لمسه . فسرنا فى هذه الظلمات التى بعضها فوق بعض وقد استولى علينا سلطانها . هنالك خرست الألسنة. ووقفت حركة أجسامنا كأنها في سنة .وما كنا نشعر الا بهول حركة القطار. التى يتردد صداها فى جميع الاقطار. وهو يسير بعجلته المشهورة . الغير مشكورة. وقد علت شدة صرير عجلاته بملامستها للقضبان. واتصلت بها ضربات القلوب فأصمت الآذان . وأذهلت الجنان . وشيبت هذا الانسان . الذي انما كان يتصور وهو فى أقصى مابلغ من خوفه . أنه مسوق الى حتفه . الذي ساقه لنفسه بظلفه . عين تنظر ولا تبصر . وبصيرة تتأمل ولاتشعر .لاسماء ولاماء. ولا جوّ ولا أرض . ولا طول ولا عرض . اللهم الا خوفا يزداد . وكروبا على الدوام فى اشتداد . وبينما كنا نسير والهلع رائدنا.والجزع مرشدنا. كنانرى من ثقوب الامل بين كل كيلومتر وآخر مصباحا وجد فى جدار النفق وقد خفق قلبه واصفرّ لونه وجثا امام دولة هذه الظلمات كأنه يعترف لها بسلطتها عليه وكأنه لم يؤت به الى هذا المكان . الا ليظهر مالها من عظيم الدولة وقوة السلطان . الذى لاتحد نهاية . ولا تصل الى منتهاه غاية . ولقد لمحت بجوار احداها رجلا من عمال الدريسة قد وقف فى زاوية وبيده مرزبة . فظننته أحد الزبانية أتى لينذرنا بقرب دار البوار . التى نساق اليها على أجنحة البخار . وفى أثناء سيرنا كان نور مصابيح العربات ينعكس على جدران النفق فيظهر فى جو هذه الظلمات كأنه القتام . يزيدها ظلاما على ظلام . ولقد ورد فى خاطرى أننى أخرج الى ممشاة العربة من خارجها حتى أقف فى جوّ هذه

الظلمة ولا حائل بينى وبينها كيلا أرى من أمرها مالم أره داخل العربة .وربثما فتحت بابها الموصود كاد يلقينى تيار الهواء الذي دخل فيه وان كان اطار قبعتى من على رأسى الى داخلها فتناولتها بيدى وخرجت أتخبط فى مشيتى كالسكران اذاضربتنى حافة الباب من جهة قابلتنى الأخري بمثلها أو بأقسى منهافأمسكت يدي بدرفةوأخذت الاخرى تبحث عن سياج الممشاة لأتحصن به وأنا في حيرة الاعمى يبحث عن عكازه الذى سقط من يده وهنالك رأيت كأن كف الظلام السوداء قد امتدت الىّ وسط غوغاء حركة الوابور الجهنمية وأرادت ان تقبض علىّ وتجذبنى اليها وتلقى بى فى هاوية من هاوياتها فأحاط بى دخان الوابور وحال بينى وبينها وهو يقذف على وجهى قذائف من قطع الفحم كأنه يشير الىّ ان أرجع الى حيث أتيت شفقة علىّ ورحمة بى فزاد قلقى وتفاقم امامى خطبي . ولكن حب استطلاعى منظر نهاية النفق كان يضاعف فى قوتى . ويقوى من عزيمتى .

وبينما أنا غارق فى بحار الاوهام . حائر فى تيه هذا الظلام . واذا بضوء ضعيف قد انبعث من فم النفق يخطف الابصار بسنائه . وكأنه سيف جردته يد الفجر على جيوش هذه الظلمة الكثيفة التى أخذت تهرب بسرعة ويد النور من ورائها وقد تغلبت عليها وما هى الا لمحة بصر حتى خرجنا من فتحة النفق الاخرى وقد فاجأ عالم الحياة ابصارنا فشاهدنا بعين المستيقظ من نومه الطويل قد احاطت به الاحلام المفزعة ونحن بين انشراح صدور .وكمال فرح وسرور . سماء صافية . وشمساً زاهية . ومناظر باهية . وغابات باهرة . ومروجا زاهرة . وكائنات طائرة . ثم وقفنا على ديار عامرة . وهى ( محطة ايرولو ) ظهرت فى أفق أرصفتها وجوه نضرة . قد ابتسمت عن ثغور عطرة.

كأنها تهنئنا بسلامتنا من هذه السفرة الخطرة .

ومسافة ما بين هاتين المحطتين ٢٥ دقيقة بسير الوابور داخل النفق المذكور . وبعدان استرحت قليلا فى هذه المدينة اللطيفة التى يبلغ عدد سكانها نحو ٢٠٠٠ نفس وهي تابعة للحكومة السويسرية وارتفاعها عن سطح البحر (١١٤٥) متراً . ركبت قطارا آخر وعدت الى مدينة جوشنن وبها اجتمعت على رفاقى وأخبرتهم بشئ من أمرى ثم صعدنا على مرتفع يشرف على مدخل النفق لنزّود منه ابصارنا فرأينا قطار الاكسبريس قد اقترب منه وبمجرد ما وصل الى مدخله رفع عقيرته . وأسمع صفارته . اعلانا للركاب . بدخوله من هذا الباب . وعند ذلك انساب فيه ولا انسياب الحية تحت ستار دخانه الذي ملأ الجوّ المحيط بمدخل النفق . ثم عدنا الى اندرمات حيث قضينا بها ليلة ثانية . وهذه المدينة لها طقسان . الشتاء ومدته ثمانية اشهر . والصيف ومدته أربعة أشهر ويتقلب هذا الاخير أحيانا بين طقسى الربيع والخريف وهو فيهما لايخلو من الثلوج والامطار .

## ﴿ من اندرمات الى ايلنس ﴾

وفى صباح يوم ٢٩ ركبنا عرباتنا الساعة الثامنة ميممين مدينة ايلنس فصعدنا الجبل الشرقى وكنا كلما صعدنا هبط الوادي والجبل لايتغير ارتفاعه فى أعيننا حتى اذا ماوصلنا الى ارتفاع ألف متر من المدينة نظرت اليها فوجدتها كأنها خريطة جغرافية قد بسطت على مكانها ثم اتجهنا الى واد بين جبلين شاهقين فرأينا عليهما كثيرا من قطعان البقر والشياه مرسلة فى الكلأ المباح وقدوضع فى عنق كل منها جرس حتى اذا ابتعدت عن راعيها عرف موضعها

بصوته . وعلى قمة هذه الجبال بعض القلاع وقد تسلطت على هـذا الوادى الذي تركناه من تحتنا . ولقد رأيت في أثناء سيرنا قطعاً من الارض قد علتها طبقة تشبه سبلة الخيل المندمجة فى بعضها وهى على ما أظن عبارة عن طبقة طينية نبت عليها بعض الحشائش فغطتها طبقة أخرى من التراب فانطبخت بينهما هذه الاعشاب وحفظت فيهما غازاتها وصار لونها أحمر معتما فيأخذها القوم ويصنعونها على هيئة اللبن ( الطوب ) ويستعملونها في وقودهم استعمالنا للفحم .

ثم بعد ساعة من سيرنا مررنا على بحيرة أوبرااليب وهى مستطيلة الشكل ترتفع عن سطح البحر ( ٢٠٤٨ ) متراً وقد أحاط بها الثلج من جميع جهاتها ونزل فى مياهها فكان على بعد كالملح فى الملاحات وفيها فلائك لنزهة السياح ممن يقطنون فى اللوكندة التى بجوارها وقد سميت باسمها وعلى حافتها من الجهة الاخري قشلاقات حربية ومن هناك طريق حربى يصعد الى قمة الجبل حيث بعض المعاقل والقلاع .

ومن ثم أخذنا فى الهبوط الى واد آخر وهنالك تمخضت تلك الجبال فولدت مجرى صغيراً من الماء يتجه نحو الشمال الشرقى وهو مبدأ نهر الرين المشهور وبه ابتداء ذلك الوادي الجميل الذى سمى باسمه وعلى رأسه قرية يقال لها شاموت مررنا بها وفيها لوكندة اسمها ( رين كوللان ) أما الجبال فقد انعطفت على النهر الوليد أو الجديد واحتضنته وأقامت عليه فى طريقه سياجا منها يمنع الايدى من التطاول عليه وقد قامت على شاطئه أشجار الصنوبر كأنها أرادت ان تظلله من الشمس خشية ان تبخر منه شيئاً ربما ينقص من كتلته . وأمهاته ترضعه من وقت الى آخر من عيونها الصافية وتغذيه من مجارى مياهها العذبة وهو يمشى بينها خطوة خطوة وقد ابتعد عن الحدة والشدة

حتى اذا شب ونما وكبر وضخم وصار فيه من القوة مايدفع به غيلة الزمن تركته وسبيله فسار فى أبهته وسلطانه . حتى اذا وصل الى كولونيا رأيته على ماوصفته لك أثناء زيارتى لها . وكانى ببسمارك قد أخذ عن هذا النهر سياسته المشهورة التي بنى بها لقومه تحت طىّ الخفاء والسكون من معالم المجد والأبهة والعظمة والسلطان . ماظهروا به الآن . على من كان أعظم منهم جاها وأكثر مالا وأكبر دولة وأعظم صولة من حكومات أوروبا . ونعمت الطبيعة من معلم ماهر وحبذا المتعلم منها المتبع فى سيره أسرارها الحكيمة .

أما منظر هذا الوادى فرائق شائق قد اتصلت نضرة مروجه بخضرة الاعشاب التى نبتت على الجبال التى تحيط به .

هذا وقد صادفنا فى طريقنا بهذا الوادى أمراً جديراً بالذكر فانا رأينا أهل القرية التى تركناها وراءنا مشاة بين نساء ورجال وأطفال قادمين من بلدة سدروم وهى تبعد عنهم نحو نصف ساعة حيث كانوا يؤدون صلواتهم الاحدية بها ( لان ذلك اليوم كان يوم أحد ) وهم فرحون مسرورون وقد نظفت ملابسهم ولطفت أزياؤهم والفلاح منهم صار خواجه والفلاحة مادام . فسبحان من خصهم بهذا النظام .

فلما وصلنا البلدة المذكورة وجدنا خلقا كثيرا يخرجون من كنيستها وكأنهم كانوا حشروا اليها فعجبت من تمسك القوم بدينهم الى هذا الحد وتذكرت مصرنا والجمعة فيها وقد تخلف عنها بنوها وضعف فيها ذلك الدين القويم حتى أصبح مستهجنا عند بعض المتفرنجين منهم وأضحى المتمسك به ولو اسما ممقوتا في أعينهم مرذولا في مجتمعاتهم ملعونا في قلوبهم التى حشوها من السفه والعته والجهالة مايزيد فى شقائهم وبلائهم . ولقد فشت هذه البدعة

المشؤمة فى بلادنا وسار تيار تقليدها فيهم وخصوصا الشبان منهم بسرعة عظيمة وانتقل من الخاصة الى العامة فأريق دم الحياء من وجوهنا وفشت بين ظهرانينا المفاسد وارتكبنا كل جريمة . وافتخرنا بكل ذميمة . وكثر فينا التباغض والتحاسد فانحلت رابطتنا. وأفل نجم سعودنا. وتكدر صفو الايام أمامنا. حتى آل أمرنا الى مانحن فيه وقد ابتعدنا من الله تعالى فابتعد عنا ونسيناه فنسينا . ثم اذا وقعنا فيما لاطاقة لنا به وهو ما نراه كل طرفة عين شعرنا به أو لم نشعر دعوناه تعالى بألسنتنا وقلوبنا لاهية عنه فلم يستمع لدعائنا وقد سلط علينا من لا يرحمنا ولو لا بقية فى نفوس بعضنا يذكر بها اسمه تعالى لطهر منا الارض فى أقرب من لمح البصر . وجعلنا كمن سبقنا عبرة لمن اعتبر . فاللهم لا تعاملنا بأعمالنا وقوّم ما اعوج من طريقنا واهدنا صراطك المستقيم وهبنا منك مغفرة ورحمة انك على ماتشاء قدير .

ولم نزل سائرين حتى وصلنا الى ديسنتيس فى منتصف الساعة الاولى بعد الظهر وهى مدينة صغيرة على ارتفاع (١١٥٩) مترا وعدد أهلها (١٤٠٠) نفس تقريبا ويرتفع عليها دير كبير فى بطن الجبل قد بنى فى القرن السابع للمسيح وبه مدرسة للصنائع . وبها لوكندات كثيرة وقد ابتعدت احداها عن المدينة بنحو نصف كيلو متر وهي اكبرها بنيانا وأحسنها نظاما وقد سميت باسمها فنزلنا بها وتغدينا فيها والمسافة بينها بين اندرمات ٣٤ كيلو مترا .

وفى منتصف الساعة الثالثة ركبنا منها الى ايلنس فرأينا الوادى قد ضاق وصعدت الغابات بأشجارها الى أعالى الجبال من الجهتين مما جعل منظره . ثم عرجنا على دخلة فى الجبل سقط منها شلال عظيم وانحدر الى الرون. ومررنا على كوبرى من الخشب قد تعلق على بعضه وجمع بين طرفى مسقط الشلال

المذكور وطوله يبلغ خمسين مترا والماء من تحته على بعد ثمانين متراتقريبا. ولم نزل سائرين حتى مررنا بقرية سونڤكس. وهنالك أرادالعربجية ان يسقوا خيلهم فأوقفوها من غير استئذان منا وأتوا بصاع من دقيق لكل حصان وأذابوه فى جردل ماء وسقوها وذلك لترطيب حرارة بطونها مع ريها وتغذيتها في آن واحد. ثم اتبعنا سيرنا فمررنا على قريتى رابيوس وترونز وبجوارها ينزل من الجبل مجرى ماء عظيم يصب فى النهر وهنالك أخذت تكبر منحدرات الجبال ويقل ميلها فينفرج معها الوادى الى مايسمح للقوم بالزراعة عليه فكثرت المروج التى وصلت الى أعاليها وبها القمح وقد أشرف على الحصيد يزين خضرتها بروائه الذهبي . وبعد قليل عرجنا على شاطئ النهر وسرنا عليه بين غابات وأورمانات يتلو بعضها بعضا حتى وصلنا الى ايلنس التى يقسمها النهر الى قسمين يصل بينهما كوبرى من الخشب وهى على مسافة ٣٦ كيلومترا من ديسنتيس أوسبعين كيلومتراً من اندرمات . وهى قرية لطيفة على ارتفاع ٧١٨ مترا . ويبتدئ تاريخها من أول القرن الثامن وعدد أهلها ٨٠٠ نفس فبتنا فيها. ثم ركبنا عرباتنا الساعة الثامنة صباحا وقصدنامدينة كور أو (كوار) فسرنا على شاطئ الرون الذي ابتعدعنا وبعدنحو ساعة وجدنا الوادى قدأقفل أمامنا فتحولنا الى طريق في الجبل المقابل لنا وصعدنا عليه بين غابات كثيفة حتى وصلنا الى قرية فرسام وعدد أهليها ٤٠٠ نفس تقريبا وبها لوكندة. ومنها أخذنا نهبط الى واد منحط عنا جدا حتى اذا مانزلنا اليه وجدنا نهير رابيوزا على يميننا وقد وصل شاطئيه كوبرى من الحديد والماء سقط من تحته على مسافة مائة متر وعندها نزلنا من عرباتنا وسرنا عليه وهو يهتز تحت أقدامنا بنسبة اهتزازات قلوبنا التي راعهاهول منظره .

## ﴿ أعجب مارأيت فى هذا الطريق ﴾

ولقد رأيت اثناء سيرى في هذا الطريق شيئاً جديرا بالذكر وهو أنا كنا نرى على طول طريقنا هذا دخانا أبيض يتصاعد من منحدرات الجبال أشبه بدخان الحريق وما هو الا بخار الماء فيرتفع بسرعة كأنه مساق من تحته بقوة تدفعه الى مافوقه وقد تسلطت عليه أخرى تجذبه الى مايعلوه فلما وصل الى مايحاذي منتصف الجبل تكوّن على نفسه وانضم الى بعضه ووقف عن سيره وقد عاقته برودة الجو الذى صعد اليه فصار سحابا امتد على رؤسنا وحجب مافوقه من الجبل والشمس عن أبصارنا حتى اذا ماوصلنا الى الكوبرى المذكور وانعطفنا الى منحدر جبل ذلك السحاب سقط علينا المطر .وكأن الطبيعة أرادت ان تعرفنا ان ماتصعده من بخار الارض الذى قد انتشر على سطحها وليس به من فائدة تذكر ماهو الا لترده اليها أمطاراً تتكوّن منها أنهار تعظم قوتها وتحسن فائدتها ولا يمكننى أن أعبر لك عما اعترى فؤادى من سروري بهذا المنظر الطبيعى الذى انبسطت له النفس فحل فيها حلول النفيس لديها وقد أضفت هذه العملية الطبيعية الى نظريتها العلمية فوجدت حقيقة مايقولون ( وماراء كمن سمع ) .

ثم أخذنا نرتفع على شاطئ هذا النهير مما يلى الجبل فى طريق مخيف حتى اذا ما صعدنا الى ما يساوي سطح الجبل المقابل لنا الذى يرتفع على حافة ذلك النهير الاخرى وقفت الأعين حائرة بين منظرين متضادين : منظر سطح الجبل الذى عن يسارنا وهو من أجمل ما يشاهد زهرة ونضرة واياناساً حتى اذا انجذبت اليها أبصارنا بحسن روائها وكمال بهجتها جذبها اليه منظر تلك

الهاوية الموحشة التى سقط فيها الماء على بعد ٥٠٠ متر منا تقريبا فتضطرب خوفاً ورهبة وتحرك باضطراباتها أعصاب القلوب فتهتز خشية وهلعاً . ومازلنا سائرين بين هذين المنظرين المتناقضين اذا راقنا أحدهما بنضارته راعنا الآخر بوحشته حتى أحالت بيننا وبينهما غابة لطيفة قد انفرج لها سطح الجبل الذي نسير عليه وهى من شجر الآروكاريا وهو نوع من الصنوبر جميل المنظر وقد ضخمت جذوع أشجاره وامتدت فروعها وعلت قمم رؤسها حتى أصابت كبد السحاب الذي فوقنا وكأنه خيمة رفعت على هذه الأعمدة فما كان ألطفه من منظر جميل خصوصاً اذا نظرت الى الاشجار وهى تنزل من رؤس الجبال كأنها شعور مرسلة منها لتزيد من زينتها وتكمل من بهجتها . وفي منتصف الساعة الحادية عشرة وصلنا الى پانادوكس وهى مدينة صغيرة نزلنا منها الى واد زاه زاهر على شاطئ النهر الذي قد تمدن هو أيضاً وخلع عنه لباس بداوته ولبس حلة روائه وبهائه وسار من على يسارنا كأنه العروس . تسلم عليه الاعين وتحييه النفوس . وهنالك يرسم قوساً خفيفا يجتمع فى منتهاه بفرع آخر يقال له الرون الخارجى كما سمى الاول بالرون الداخلى فيجتمعان معا ويسيران فى مجرى واحد وقد انضمت قوتهما الى بعضهما وحفظت الاسم ( الرون ) ونبذت الصفة . ولقد قامت كبار من الحديد على طرفى كل من هذين النهرين ثم على نقطة اتصالهما بما كوّن جزيرة لطيفة جمل منظرها وحسن موقعها وتسمى ريشنو وقد قام عليها أبنية فاخرة تحيط بها بساتين عاطرة وهى وان كانت قرية صغيرة الا انها قديمة وبها كنيسة يبتدئ تاريخها من القرن السابع وفيها قبر أحد ملوك فرنسا شارل لوجرو وهو من أحفاد شارلمان الاكبر خلعه قومه فى ثورتهم عليه سنة ٨٨٧ فهرب الى هذا المكان حيث وجد به حتفه .

وقد هرب اليها أيضاً لويز فيليب ملك فرنسا فى سنة ١٧٩٤ اثناء قيام أهاليها عليه وعاش فيها زمنا من مهنة التدريس الشريف فى أحد مكاتبها وغير اسمه فيها وكان يعرف باسم (شابو) والأودة التى كان يسكن بها فيها موجودة الى هـذا اليوم على ما كانت عليه وبابها مفتوح لزائريها ولها خدمة يقومون بنظافتها . وهذه النقطة هى الطريق الى توزس التى منها طريق سان مورتس وهى قرية مشهورة بجمال هوائها وصفائه وجفافه وهى على ارتفاع ١٨٥٦ مترا فوق سطح البحر . ويقصدها كثير من المرضى والمتصحين تغييرا للهواء وترويحا للنفس وهى من أشهر نقط سويسرا الصحية . وفى هذا المكان وقف العربجية لاستراحة الخيل ونزلنا نحن الى النزهة على الكوبرى الذي وصل بين شاطئي النهر العمومى وقد كبر حجمه وانتفخت أوداجه وقل صفاء مائه وظهر صوت غليانه. وابتدأت معالم قوته وسلطانه. وبمجرد ماوصلنا الى حافته الأخرى مر علينا قطار ركاب يجره وابوران الى توزس لالكونه كبيرا ثقيلا ولكن للصعوبة التى يقابلها فى صعوده الى المرتفعات التى يعلو اليها وهنالك سكن جاشنا وهدأ روعنا وحمدنا الله تعالى على سلامتنا وقد علت على وجوهنا شارات البشر والفرح . وأخذ كل يهنئ صاحبه بوصوله الى ديار العمار والحركة تاركين وراءنا تلك الجبال بجمالها وجلالها وصفاء جوها وصحيح هوائها وجودة مائها وكثرة أنهارها لان الانسان يميل بطبعه الى الانس . الذي هو أكبر ماتشتهيه النفس .

ثم ركبنا عرباتنا وسرنا فى واد لطيف جداً حتى مررنا بقرية كبيرة اسمها إيمس وهى أكبر ماشاهدت فى سياحتى الجبلية وبها كنيسة كبيرة يظهر انها قديمة وكان على طول طريقنا هـذا أشجار التفاح وثمره من أكبر شئ فى

نوعه والكمثرى والكريز وهو أشبه شئ بشجر النبق. والجوز ويشبه شجر التوت وان كانت شجرته تكبر عنه حتى وصلنا الى مدينة كوار فى منتصف الساعة الاولى بعد الظهر والمسافة بينها وبين ايلنس ٣٥ كيلو متراً.

وبها انتهت سياحتنا الجبلية التى قطعنا من چنيف اليها أكثر من خمسمائة كيلو متر بعضها بالسكة الحديدية وأغلبها بعربات الخيل فى ثمانية أيام كما مرّ عليك ذكره تفصيلا.

## ﴿ من كوار الى فينا ﴾

وهذه المدينة من مدن سويسرا المهمة وعدد أهلها ١١ ألفا وابنيتها جميلة يخترقها نهير اسمه پلسور يصب في نهر الرين فبتنا فيها ثم ركبنا منها قبل ظهر اليوم الثانى قطار السكة الحديدية الى محطة راجتس ومنها أخذنا قطار الاكسبريس الذي يقوم من باريس الى فينا مارا على چنيف فعبر بنا نهر الرون وهو الفاصل بين سويسرا والنمسا من تلك الجهة ثم دخل بنا فى واد جميل جدا قد فرش ببساط أخضر مما علاه من الاعشاب النضرة. ثم أخذ الوابور يرتفع بنا الى سطح الجبل ماراً من نفق صغير الى آخر وقد هبط الوادى عن يميننا كما ارتفع الجبل عن يسارنا فكنت اذا نظرت الى الجبل خفت من علوه على رؤسنا وسلطته علينا واذا نظرت الى الوادى وقد انتثرت به القرى وجدته جمع بين خشية النظر من مرآه. ورغبة البصر في التمتع بجمال ما احتواه. خصوصاً وقد اعتاد على ما هو أبعد منه مسافة وأكثر خوفا فكنا كأننا سراة على هذا الصراط وذلك الوادى انما هو الفردوس فى غياضه ورياضه وقصوره التى ابتدأ يجري من تحتها نهر الطونه فى صفاء مائه. وكمال روائه. فسبحان من خص هذه

البلاد ببعض ماخص به جارتها سويسرا من جمال الطبيعة وان اختلف أشكالها وتغايرت مناظرها فيهما .

وما زلنا سائرين حتى مررنا بنفق أرا لبرج وهو يشبه نفق سان جوتار فى هوله . وان كان أقل منه فى طوله . ومسافة سير الوابور به ١٥ دقيقة .

ثم استمر سيرنا حتى رأينا النهر قد سقط الى هاوية تحتنا وقام عليه كوبري من الحديد لمرور القطارات فهالنا منظره . وراعتنا رؤيته . وتذكرنا مافاتنا من أمثاله وزاد فى خوفنا سرعة حركة مركبنا وتخيلنا الغرق وصعوبته . والموت وصولته . فأخذ كل يذكر الله ويطلب لطفه هذا يرجوه سلامته وذاك يسلم نفسه الى قدره حتى اذا ماتركنا الكوبري وتركناه اشتغلنا عما كنا فيه برؤية مافاجأ النواظر . من جمال تلك المناظر . وكنا على طول سيرنا نرى مجاري الماء تنزل من الجبال المحيطة بنا الى هذا النهر . ثم انبسط الوادى امامنا وكثر فيه الزرع وخصوصاً من البرسيم والبطاطس والقمح والذرة التى يسمونها عندنا بالذرة البلدى أو السبعينى ولولا ان غيط الذرة قد برزت كيزانه بجوار القمح وقد آن ابان حصاده لقلت انها قطعة مما بين فرعى النيل من أرض مصر على ان ذلك ليس بمانع عندنا ولكن العبرة بما جرت به العادة من ازدراءها بعد حصيد الغلال وعلى كل حال فهم فيه أسعد منا بكثير لامناوبة تعطله ولا دودة تستأصله ولا آفة سماوية أو بشرية ( اللصوص ) تأكله .

ثم وقف الوابور بنا على مدينة إنسبروك وهى من أحسن وأكبر مدن النمسا وعاصمة مديرية التيرول ومازلنا حتى وصلنا فينا فى مبدأ الساعة التاسعة صباحا من يوم أول أغسطس .

## الرسالة السادسة

### من فينا الى بودابست

ركبنا قطار السكة الحديدية من فينا الساعة التاسعة يوم الاربعاء صباحا فوصلنا الى بودابست فى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر وبمجرد مابارح القطار محطة فينا مرّ بنا في واد متسع جداً لاترى به أثراً للجبال وهو من أخصب بلاد النمسا فترى به الحقول متسعة الفناء .فسيحة الارجاء.حتى يتخيل للانسان أنه مسافر فى أرض الدلتا من مصر الى الاسكندرية.أما تربة الارض فكانت سوداء لافرق بينها وبين تربتها عندنا حتى اذا مررنا بحفرة فى طريقنا شاهدت ان هذه الطبقة السوداء لاتتجاوز فى سمكها نصف متر ويليها طبقة رملية صفراء سمكها متر ويلى هذه طبقة من الحصى الكبير الذي يعبر عنه عندنا بالزلط وعلى هذه الاراضى الغلال على اختلاف أنواعها وأخصها القمح والذرة وبعض شجر الفاكهة والارض منبسطة تماما وعلى غاية من الاعتدال . وفي اثناء الطريق شاهدت أناسا يحفرون خلجانا للمياه وهم كماثيلهم عندنا تماما فى جلوسهم واتكائهم ونومهم وأكلهم بشوكة آدم ( أي باصابعهم ) وجشوبة غذائهم وخشونة ملبسهم . وفي منتصف الطريق تقريبا شاهدنا نهر الدانوب على يسارنا والمراكب تغدو فيه وتروح بين شراعية وبخارية ثم أخذ له طريقاً غير طريقنا حتى اذا وافينا بودابست وجدناه امامنا فقطعناه من شاطئ الى آخر على كوبري من الحديد ثم وصلنا الى بودابست في منتصف الساعة الرابعة بعد الظهر .

## ﴿ بودابست ﴾

هى عاصمة بلاد المجر ومركز حكومتها وهى تنقسم الى قسمين أوبالاحرى الى مدينتين عظيمتين يفصلهماعن بعضهما نهر الدانوب . والقسم الذى عن يمينه يقال له بودا والذي عن يساره يقال له بست أو بشت . والاولى قديمة يصعد تاريخها الى القرن التاسع للمسيح حيث أتى اليها المجريون من أواسط آسيا تحت قيادة ارباط وحاربوا أهلها وأخذوها منهم فى نهاية القرن التاسع وجعلوها مركزا لهم ومقرا لحكومتهم الى الآن ولقد أقاموا بها سنة ١٨٩٤ معرضا عظيما هرع اليه الناس من جميع الاجناس تذكاراً لملكهم هذه البلاد مدة ألف سنة كاملة . وهذه المدينة واقعة في واد ضيق بين جبلين فلما ضاق بهم المكان اتصل البنيان الى أعالى الجبل الذي من جهة النهر ثم الى منحدره عليه . ولما كانت المدينة آخذة فى العمران وضاقت بأهلها انتقل بعضهم الى الشاطئ الآخر في وسط القرن الرابع عشر ولم ينته هذا القرن الا وكانت هناك مدينة جديدة سموها بست . ولقد وصل حكم التركىّ الى هذه الاصقاع ودخل كل من هاتين المدينتين فى قبضته من سنة ١٥٤١ ميلادية الى سنة ١٦٨٦ فيكون مدة حكمه عليها مائة وخمسة وأربعين سنة كان يجب على المجريين أن يستنزلوها من تذكار حكمهم للبلاد مدة الالف سنة التى أقاموا من أجلها المعرض المذكور أوعلى الاقل كان يجب عليهم أن يرمزوا الى ذلك بشئ يشير الى جلال هذا الاحتلال الذي ابتدأت به مدنيتهم اعترافا بالفضل لذويه والنعمة لاهليها .

وبصل المدينتين ببعضهما ثلاث كبار عظيمة من الحديد على كل منها ثلاثة طرق طريقان على جانبي الكوبري واحد للغادين وآخر للرائحين من

المشاة وطريق فى الوسط لمرور العربات وهى منفصلة عن بعضها بحاجزين على شبه دربزين من الحديد والخشب وهم يعملون الآن فى كوبرى رابع فمررت بالكوبري الذى فى وسط المدينة وهو أحسنها ويقال له كوبرى فرنسواچوزيف فرأيت على كل زاوية من زواياه الاربع تمثال أسد رابض مصنوع من الحجر فأذكرنى من بعض الوجوه كوبرى قصر النيل لولا أنه من الكباري المعلقة ويرتكز من وسطه على قاعدة واحدة مبنية من الحجر فى منتصف النهر على سعته وطوله .

وعلى جانبى هذا الكوبرى رصيفان على النهر من اليمين واليسار فى غاية من الاتقان وهما من أجمل ماشاهدت . والذي فى جهة بست منهما أوسع وأطول وفيه مركز الجمارك التي تؤخذ على البضائع الواردة من طريق النهر وبه مينا للركاب ترى بها على الدوام حركة عظيمة بين مراكب شراعية وبخارية غادية ورائحة على سطح الماء فاذكرنى ذلك تلك الحركة التى شاهدتها فى كولونيا وان كانت أقل منها فى جميع وجوهها . وأذكرنى من جهة أخري نهر النيل عندنا وفساد الملاحة فيه حتى أن من ينعم النظر فيما عليه من الجاريات يراها مأخوذة مما هو موجود للآن على الآثار القديمة ببلادنا من الرسوم التى لم يدخل عليها أى كمال حتى كأنا أردنا ان نبرهن للعالم كله أنا مقلدون لانعرف للاختراع اسما ولا للتفنن رسما . راضين ان نكون على الدوام مخلدين الى ذلك الحضيض الذى تأباه على نفسها أحط حلقات السلسلة التى ذهب اليها درون (١) وعلى

(١) هو من اكبر فلاسفة الانكليز وجد فى العصر التاسع عشر وذهب الى أن الانسان أصله من نوع من القرود « أورانجوتان » طرأ عليه الكمال فى نوعه فترقى فصار زنجياً ولم يزل يرقي من مرتبة الى أخرى حتى انتهي أمره بأن صار أوروبياً . واستدل

جانبي الكوبرى عمال يأخذون رسوم المرور على الراجل عشري الفرنك والعربة خمسيه .

## ﴿ مدينة بودا ﴾

وبودا مدينة على الجبل وهو يكتنفها من كل جهة ولها مينا على شاطئ النهر غاية فى الجمال وفيها حمامات نهرية لطيفة الوضع جميلة المنظر أحسن بكثير من مماثلاتها على البحر فى اسكندريتنا وأكثر نظاما منها والابنية التى على النهر من هذه الجهة ذات منظر لطيف وان كانت أقل من مقابلتها على الشاطئ الآخر فى الرونق والنظام وضخامة البنيان وفيها القهاوى واللوكاندات ومايماثلها من المجامع العمومية ويتلوها المساكن متدرجة على الجبل بشكل جميل ووضع لطيف يدهش النظار. ويأخذ بالابصار. يفصلها عن بعضها في كل مرتفع أقيمت عليه شارع عظيم يصعد اليها منه بطرق منحدرة يبلغ ميلها من عشرين الى ثلاثين فى المائة أو بسلالم فى جسم الجبل بين المساكن وهى طرق عمومية أيضا لاختصار المسافات فصعدت سلما من هذه به عشرون درجة ارتفاع كل

---

على ذلك بان بعض الولايات الامريكية كانت تقطع أذيال الكلاب فكان نسلها يولد صغير الذيول وما زالت على ذلك حتى أتي زمن ولدت فيه بتراء بالمرة. ولقد اعتبر هذا كمالا فيها وأخذه قضية مسلمة بني عليها مذهبه المشهور فى الكمال الذى طرأ على النوع الاورانجوتاني حتى وصل الى ماوصل اليه أرقى نوع فى الانسان الآن. ولكن المرحوم السيد جمال الدين الافغانى الفيلسوف الشرقي الشهير رد عليه حجته بعبارة لطيفة فى رسالته التى ترجمها الى العربية شيخنا الاكبر علامة مصره بل عصره مولانا الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية حيث قال : ان العرب تختتن من زمن بعيد جداً واليهود من قبلهم ولحد الآن لم يشاهد شخص واحد ولد مختونا . وعلى هذا فلا تكون حجة دارون دليلا على الترقي الكمالى الذى طرأ على النوع الانساني فى حلقات سلسلته التى ذهب اليها .

درجة نحو ثلاثين سنتيمترا فوجدت شارعا قام على جهتيه بنيان لطيف ثم صعدت من سلم آخر به نحو خمسين درجة الى شارع آخر عليه مبان جميلة ثم صعدت سلما غيرهما به مائة وخمس وأربعون درجة ينكسر على بعضه وهو من الحجر وعرضه نحو عشرة أمتار وفى نهايته أثر عظيم بناه الترك أيام احتلالهم لهذه الديار مسجدا جامعا فلما تركوا البلاد حوّله أهلها الى كنيسة والباب العمومى لها من الخشب المصفح بالحديد أما مدخلها فهو أشبه شئ بالمساجد عندنا وهى مبتناة على قبوات مرتكزة على ستة أعمدة متقابلة والمحراب تجاه الباب. ولها بابان صغيران فى جانبيها وأرضها من مربعات الاسمنت الصغيرة وفى منتصف الحائط التى على يمين المحراب صفّة صغيرة من الحجر قد صقلتها يد الايام وأظنها كانت محل قراءة السورة وهى على ارتفاع متر ونصف من الارض يحيط بها من جهتين شبه دربزين ارتفاعه متر. أما المنارة فلا شئ يشبهها فى حسن رونقها وجمال شكلها ولها ثلاثة أدوار وبابها من الخارج. وهى على أصلها لا صلبان عليها ولقد ابتنى القوم على يمين وشمال المحراب منارتين صغيرتين عليهما من الصلبان والاجراس ما يشير الى معابدهم وعلى باب المسجد الذى على يمين المحراب كرسى من الحجر ذو ثمانية أضلاع ملتصق بالحائط بضلع من أضلاعه وهو أشبه شئ بكرسى العشاء الارضى على الطراز التركى وأظنه على هيئة كرسى المصحف الشريف.

وقد سموها كنيسة سان متياس وهنالك تذكرت الترك وما كان لهم من ملك جسيم. وأثر عظيم.

والمدينة مما يلى هذا الجامع بسيطة البنيان وأرضها كلها من الحجر وهى قطعة واحدة وهذه الجهة هى أعلى مرتفع فى الجبل ومنها ترى النهر على

منظره الشائق. ومأنه الرائق. وكذلك مدينة بست بجلال مرآها وجمال صورتها شئ يصغر اللسان عن تعبيره. ويقف القلم عن تصويره. وماهو الامكان يحق للشعراء ان تقف فيه لتستمد من رب الخيال. ماتنظم به ذلك السحر الحلال. فى وصف منظر عديم المثال. لايعترى النفس ولا العين منه أى ملال. ومن هناك ترى شارعا يخترق سطح الجبل يحيط به أبنية بسيطة وان كان شكلها جميلا. وطوله نحو سبعين متراً يقطعه شارع آخر وينتهى الى غيره على نهاية سطح الجبل وعلى جانبه الاول أبنية جميلة ليس لها أبواب عليه. ومن جانبه الثانى دربزين من الحديد المتين اللطيف ارتفاعه نحو متر وربع على طوله. وهذا الشارع يبلغ عرضه نحو عشرين مترا وقد فرش بالرمل الاصفر وغرست على جانبيه الاشجار وهو فى غاية النظافة لاتسير فيه العربات لانه أعد لنزهة القوم. وقد وضع على طوله كنبات من الخشب تحت ظلال الاشجار لجلوسهم بين كل كنبة وأخرى عشرة أمتار. ومن هناك تري منظر باقى مدينة بودا على منحدر هذا الجبل الذى يتصل بالوادى الذي يليه. وينزل من هذا الشارع بواسطة سلم من الحجر الى شارع آخر للعربات وللمارة ومن دونه غيره بنيت على جانبيه المساكن ومن دون هذا آخر مثله وهكذا حتى تنزل الى الوادى الذى يكتنفه جبل آخر قد ألبسته الطبيعة حلة خضراء غاية فى الجمال وقد نثرت على ميله المنازل والمساكن الخلوية وقد أحاطت بها الرياض والبساتين ونظام المساكن فى هاته الجهة يقرب من الشكل التركى ان لم يكن هو بعينه وما هى الا المنازل الحديثة فقط التى تراها على الطراز الافرنكى الذى لايخلو من الهيئة التركية على كل حال. وبودا كبيرة ولكنها منتظمة جداً وفى غاية النظافة ولقد وقع شكلها في عينى موقعاً كبيراً أثر على نظري تأثيرا عظيما لأنه مخالف

فى وضعه نظام كل بلد رأيته بل أثر على اكثر من بست نفسها على أن لا نسبة بين هذه وتلك من فخامة بنيان وأنيق رسم ولطيف كسم ومافيها من اللطائف والزخارف لانى شاهدت مثل بست ان لم أقل أحسن منها ولم أر ما يقرب من بودا فى وصفها الا اذا اعتبرت القلعة بمصر جزأ منها وكيف وانك ترى كل شارع من شوارعها المحيطة بها وأرضه موازية لسطح الأبنية التى ارتفعت على جانبى الشارع الذي هو من دونه على انها لا تقل في ارتفاعها عن أربع طبقات وقد زرعت الاشجار والرياض حول أغلب المساكن مما يكسبها رونقا زاهرا ومنظرا باهرا. وعلى سطح هذا الجبل قلعة هائلة متسلطة على المدينتين الا أنها خلو من المدافع ان لم أقل من كل مدافع عن حوزتهما منذ دخلت البلاد تحت سيطرة النمساويين الادبية. وفى بودا مسجد يقال له جلبابا موجود للآن بمنارته أثر عن الترك وهو صغير ويقصده سنويا كثير من البشناق لزيارته والتبرك به. وفيها قصر الملك وهو على أعلى قمة منها وليس به من ديار. الا حفظة مافيه من الآثار. وهو معد الآن لاقامة امبراطور النمسا وملك المجر اذا عن له أن يزور هذه المدينة وهم لا يعتبرون وجوده الآن الا لفكرة منطوية فى زوايا أفئدتهم وهى ان يكون مقرا لملكهم الذى تخفيه الايام حتى اذا سنحت الفرصة باستقلالهم الذى لابد منه فى زعمهم أظهرته على منصة جلاله وعظمته.

## ﴿ بست ﴾

وعلى الشاطئ الأيسر من النهر هذه المدينة العظيمة التى هى من أجمل مدن أوروبا ان لم أقل أجملها. وجلها أو كلها من المبانى الهائلة التى جمعت بين ضخامة البنيان. ووطيد الاركان. وبين جمال المنظر وكمال الرسم وجلال الهيئة

ترى بها من الزخرف مالا تراه لغيرها من مماثلاتها من مدن أوروبا الشهيرة . وشوارعها واسعة شاسعة غاية فى النظافة عليها الترمواي والمركبات من جميع الاصناف والاشكال وتحت سطحها الترموايات الكهربائية التحت أرضية ولها محطات مخصوصة على تقاطع الشوارع ببعضها. وينزل اليها بسلم حتى اذا ماتركت به سطح الارض بما عليها من ضوء النهار. قابلك باطنها بما فيه من تلك الانوار (أنوار الكهربائية) فتركب القطار. وتسير الى حيث تشاء وتختار. فانظر وفقك الله الى هؤلاء القوم كيف انهم لم يكفهم ان ينتفعوا بظاهر هذه البسيطة فقط حتى تساموا ولا أقول تنازلوا الى باطنها للانتفاع به وعدم تركه من غير أن يستمدوا مما فيه من الخيرات الجمه. والفوائد المهمه. واكبر شارع فى هذه المدينة يقال له شارع اندراشى (١) وهو وان كان من أكبر شوارع العالم

(١) اندراشى رجل من أكبر سواس المجر ولد سنة ١٨٢٢ وكان سنة ١٨٤٨ من أكبر دعاة الثورة المجرية ضد حكومة النمسا طلبا لاستقلال بلادهم فلما ظهرت النمسا عليهم بمساعدة جيوش الروسيا لها فر زعماء الثورة الى الاستانة العلية ولجؤا اليها فوجدوا من السلطان عبد المجيد صدرا رحيما وحنانا كريما ووعدا صادقا بمساعدته لهم ثم صدر عليهم حكم حكومتهم بالاعدام وطلبت من الدولة العلية تسليم هؤلاء العصاة اليها وعضدتها الروسيا فى طلبها فامتنعت الدولة وأبت كل الاباء وكاد ذلك يجر الى حرب بين الباب العالى والدولتين المذكورتين .

وبعد ذلك أقام اندراشي عشر سنين خارجا عن بلاده ثم عفى عنه وأذن له بالرجوع اليها فعاد الى بودابست سنة ١٨٥٩ وفيها انتخب وكيلا لمجلس الامة فى بلاد المجر ثم رئيسا لمجلس وزرائها وحضر وهو فى منصبه الاخير تتويج فرنسوا جوزيف ملكا على المجر. وفى سنة ١٨٧١ عين وزيرا لخارجية النمسا والمجر . ولما قامت الحرب التركية الروسية سنة ١٨٧٧ لزم الحيادة ظاهرا ولم يساعد الدولة العلية رغما عن ميل المجريين الى ذلك وكان هذا الامر سببا فى نفرة المجريين منه ووصفهم له بالخائن خصوصا لما اختلس من الاتراك ولايتى البوسنه والهرسك من غير حق وكان أساسه فى ذلك لائحته المشهورة فى عالم السياسة ( بلائحة اندراشي) وهي المتعلقة بطلب تشكيل لجنة فى هاتين الولايتين نصفها من المسلمين والنصف

الا انه أحسنها رونقا وأبهاها منظرا وكيف وعلى جانبيه تلك العمارات الهائلة بجمالها وجلالها التى بناها القوم على نسق واحد تنسيك ضخامتها ونخامتها أواوين الاكاسرة . ويكبو بك جواد فكرك ولسانك ويراعك فى ميادين المناظرة اذا أردت المكابرة . فى استحسان أيها عن الآخر وهو محل نزهة القوم وعلى جانبى نصفه الاول كثير فى المحال العمومية أما النصف الثانى فليس به غير منازل سراة القوم . وينتهى هذا الشارع الى بساتين عمومية تسر العين بمرآها . وتبهج النفوس بعبير رياها . وتشرح الصدور بمبناها ومعناها . فترى بها الموسيقات تصدح بنغماتها الشجية . ومن أغرب مافي ذلك انهم يضربون الادوار على النوتة الافرنكية ولكنهم لايستعملون أوراقها وقت ضربهم بل يحفظون أدوارها عن ظهر قلب ونغماتها تميل كثيرا الى الالحان التركية وان شئت فقل الشرقية مما يصيخ اليه سمع المصري وتميل اليه عواطفه وخصوصا اذا أدرت بصرك فى وجوه وجوه القوم حولك فانك ترى سيما شرقية . وحركات تركية . تذكرك بأصلك وفصلك مما تجد معه نفسك بين انجذاب الى عامل اذنك . وميل الى عالم بصرك . فتتسع ويتسع معها صدرك ويعظم بذلك سرورك . ويكبر حبورك . وفى هذه المدينة كثير من الابنية العمومية الهائلة وأحسن مبانيها البرلمان وقد صرف على بنائه خمسة وأربعون مليون فرنك وليس اكبر منه فيما يماثله الا برلمان لندره . وبها كنائس عظيمة ومن أحسن مبانيها قصر العدلية وغيره مما لم يسمح لى زمنى بزيارته . وبها

---

الآخر من المسيحيين لمراقبة تنفيذ تعهدات الدولة العثمانية للمطالب التى كانت طلبتها أهاليها منها بايعاز من النمسا ولم يزل في مركزه الاخير حتى أبرم مع المانيا وايطاليا التحالف الثلاثى المشهور واستقال من أعماله سنة ١٨٧٨ ومات سنة ١٨٩٠

شارع على النهر من أحسن شوارع الدنيا ان لم يكن هو أحسنها وأجدر بواصفه أن يقول انه فريد فى بابه وكيف وانك ترى على جانبيه من لطف البنيان . ماتقر به العينان . وقد وضع من تحته القهاوى والنوادى من كل نوع على أحسن نظام واكمل ترتيب وأتم نسق . ومن الجانب الآخر ترى النهر بصفائه وروائه حتى اذا جن الليل وغابت شمس النهار برزت تلك الشموس الكهربائية على ضفتى النهر مما يجعلها زينة للناظرين تذكرك بتلك الزينات التى تقام فى مصرنا لأكبر الاحتفالات . وهنالك ترى بهذا الشارع رجال الامس وقد أتوا اليه لاستنشاق ريح الصبا . وتذكر أيام الصبا وماقاموا به فيها من أعمال جليلة تمجد صنعهم وتحيي ذكرهم ثم ترى أبناء الشبيبة وهم رجال اليوم قد أتوا اليه بعد فراغهم من أشغالهم لترويض النفس وإراحة الجسم والفكر بتلك المناظر البواهر بعدماعانوا طول يومهم من مشقة العمل . الذي يحقق لهم كل أمل . فيأخذون مقاعدهم فى تلك المنتزهات وقد أخذ كل بكتابه أو بجرنااله حتى لايعدم فى زمن استراحته فائدة ما وكيف والزمن عندهم ثمين واستعماله أثمن . ثم ترى تلك الغانيات وقد برزن من خدورهن بعد مزاولة أعمالهن فى بيوتهن وقيامهن بما يجب عليهن فى داخلية أزواجهن وقد جلسن بين مسامرة ومحاضرة وأخذ بعضهن بأطراف الجرائد العلمية أو السياسية ليقفن على حقيقة علمية . أودقيقة كونية . وفى أيدى بعضهن أطفالهن وقد أخذن يعلمنهم آداب المجالس والمجامع ويريهم ماذا عمل الشيخ وكيف يعمل الشاب ويشوقهم الى حسن العمل والمثابرة على الشغل ويعرفهم ماهى الفضيلة وكيف تكون الرذيلة آمرات بالاولى ناهيات عن الثانية فيشب الطفل على مافيه خير لنفسه ووطنه حتى اذا ماجاءت الساعة العاشرة مساء

وجدت تلك الامكنة وليس بها تقريبا من هؤلاء الجماعات الا أرباب المحلات فكهذا تكون الامم الحية العاملة على خيرها وفائدتها.

وقد استولى الاتراك على هذه المدينة أربع مرات. أولها فى سنة ١٥٢٦ وتركوها ثم عادوا اليها واستولوا عليها فى سنة ١٥٤١ ورحلوا عنها ثم استولوا عليها سنة ١٦٠٣ ثم خرجت من حكمهم الى أن وقعت فى قبضتهم سنة ١٦٨٤ وتركوها بعد أن أحرقوها سنة ١٦٩٩ وفى سنة ١٨٣٨ طغى عليها النهر فقوّض أركانها وهدم بنيانها وجعل عاليها سافلها واذاً فهذا العمران. الذي تراه الآن وقد اندهشت له العينان . وبهت امام عظمته هذا الانسان . انما يصعد تاريخه الى أقل من ثلثى قرن ولا غرابة فان فى ذلك أكبر برهان على مافى القوم من شدة العزيمة وقوة الارادة التى بها حياة الامم ومدنية الشعوب . والمجريون مشهورون بشدة البأس وقد أضافوا اليه رقة الطبع فتراهم حسنى المعاشرة لينى الجانب ولكنهم لايقبلون اهانة ولايتحملون ضيما ولذلك فان المبارزة ( الدويل ) شائعة فيهم وهى عندهم أشد قسوة منها عند غيرهم فالمبارز منهم لا يكتفى بأن يكون جارحا أو مجروحا ولكنه يقدم عليها قاتلا أومقتولا.

والمجريون من عنصر تركى وفد على هذه البلاد من أواسط آسيا فى القرن التاسع للمسيح وأقاموا بها واعتنقوا الديانة المسيحية ويكفيك معرفة أصلهم للدلالة على شدة بأسهم وقوة بطشهم وهم يميلون الى العظمة والفخفخة والتأنق فى الملبس والتفاخر فى المأكل وفيهم كثير من اليهود قد تجنسوا بجنسيتهم وهم على كل حال أغناهم ثروة وأكثرهم نشاطا . ولغتهم تميل الى لغة الاتراك وتشترك معها فى كثير من الكلمات وهم يميلون الى اللون الاحمر وهو الشعار التركى فتراه كثيراً فى ملابسهم وخصوصا ذلك الشريط الاحمر

الذى تراه على قبعاتهم كماتري الاخضر على قبعات الاسبانيين (لميلهم الى العرب) والمجريون يحبون الاتراك (١) ويذكرون احتلالهم لبلادهم بالجميل .

وأول عائلة منهم حكمت هذه البلاد هى عائلة أرباط فانها تقلدت الملك الى سنة ١٣٠١ وانتهى حكمها بموت آخر ملك منها وهو اندريا الثالث . ومن بعده انتخب المجريون وانسلاس فاضطرب الملك فتنازل عنه فانتخبوا أوطون فتنازل أيضاً . ثم انتخبوا شاروبرت (شارل روبرت) سنة ١٣٠٧ وفي مدته ارتفعت شؤن هذه الدولة واتسع ملكها ودخل تحت رايته بلاد دلماسيا (فى الجنوب الغربى للمجر وغرب كرواسيا) وكرواسيا (في الجنوب الشرقي من المجر وغرب

---

(١) كان تعلق المجريين بالعثمانيين ومحبتهم لهم من أيام حكم الدولة العلية لبلادهم الذى كان زمنه كله خيرا وسعادة عليهم ولقد زادت هذه المحبة ولاء واخلاصا منذ لجأ الي الاستانة الزهراء رؤساء الثورة المجرية الاخيرة فلقوا منها كل اعزاز واكرام . وعاش كثير منهم فى ظلها حتى أتاهم عفو حكومتهم عنهم

فلما ظهر عداء الروسيا للدولة العلية اثناء انعقاد مؤتمر الاستانة تجمهرت الشبيبة المجرية فى بودابست وعقدوا جمعيات تداولوا فيها فى الامر الذى يعربون به عن ولائهم للدولة العثمانية فقرروا بارسال وفد منهم الى الباب العالى ليبلغه اخلاص ولاء المجريين وسافر أعضاء الوفد حاملين معهم سيفا مرصعا هدية منهم الى عبدالكريم باشا قائد عموم الجيوش التركية فوصلوها سنة ١٨٧٧ وطلبوا مقابلة الباشا المشار اليه ولما تمثلوا بين يديه ألقى واحد منهم خطابة بليغة أعرب فيها عن ولاء المجر للدولة العلية ومنيتهم فى نصرتها على الروس أعداء الحرية . ثم قدم اليه السيف فاقتبله بكل سرور وارتياح وهنالك قام صفوت باشا ناظر الخارجية العثمانية وألقى خطابا مؤثرا أتي فيه على ما كان من سابق الارتباط بين الامتين العثمانية والمجرية وتأسف على اصغاء هذه الى الدسائس الاجنبية التى كانت سبب انفصالها عن الدولة العلية واختتم قوله بما ترجمته هذه العبارة الحقة « ان انفصال الايالات المسيحية عن حكم الدولة العلية واحدة بعد أخرى لم يكن الا نتيجة حسن معاملتها لاهلها المسيحيين وعدم اجبارها لهم على اعتناق الدين الاسلامي واحترامها لديانتهم وعوائدهم وأخلاقهم وطقوسهم » .

البوسنه) والبوسنه والصرب وفالسيا (الأفلاق) وترانسلڤاسيا (فى الجنوب الشرقى للنمسا) وملدافيا (البغدان) وبلغاريا . وقد استولى ابنه لويس الاول على غربى بلاد الروسيا ويقال لها الروسيا الحمراء ولبس تاج بولونيا سنة ١٣٧٠ وفى مدة حكم مارية ابنته اضطربت أحوال البلاد وقامت قيامة أهلها واضطرم لهيب الثورات ونتج من ذلك تكوين مجلس الأمة والايات الهوسار . وفى مدة متياس سنة ١٤٥٨ تقدمت المعارف وأنشئت كلية برس برج وكتبخانة بودا ثم وقعت البلاد فى قبضة التركى تحت حكم لويس الثانى بعد قتله في واقعة موهكس الشهيرة سنة ١٥٢٦ الى ان وقعت فى أيدى النمساويين سنة ١٥٧٠ تحت حكم مكسيمليان الثانى . وفى سنة ١٦٨٦ أعلن رسميا ان ملك هذه البلاد انحصر فى بيت ملوك النمسا . ثم استولى عليها الترك بعد ذلك جملة مرات وتركوها سنة ١٦٩٩ على مقتضى معاهدة بساراڤيا واستمرت في قبضة النمسا حتى أرادت ان تضيق على أهلها فى حريتهم فقامت ثورتهم سنة ١٨٤٨ طلبا لاستقلالهم والتهبت نيران الحرب بينهم تحت امرة قوادهم الشجعان بيم وكلايلا وجورجى وابريش كوسوت وكادوا ينجحون فى حربهم لولا مساعدة الروسيا للنمسا بجيوشها الجرارة . فلما رأوا أن لا طاقة لهم بعدوهم ألقوا سلاحهم فى وجهه سنة ١٨٤٩ ومن ثم أصبحت بلادهم ولاية نمساوية الى سنة ١٨٦١ حيث أعطى لها بعض شئ من حريتها بترتيب مجلس نظار فيها رؤساؤه منهم ينظرون فى شؤنها ومجلس أمة يشتغل لفوائدها وصوالحها فهدأت أفكار المجريين نوعا وخمدت نيران ثورتهم حتي اذا انكسرت النمسا فى حرب سادوا سنة ١٨٦٧ امام البروسيانيين فلم يضيعوا هذه الفرصة وطلبوا نظامها الحالى وهو عبارة عن استقلالها فى ادارة حكومتها استقلالا محضا وان لا يكون للنمسا عليها سوى

اسم الملوكية فقط وهم مع ذلك غير راضين بهذه السلطة الاسمية ولاشك فانهم يترقبون كل فرصة ينالون فيها كمال استقلالهم حتى يمسحوا به وصمة هذه التبعية الوهمية وترى هذا الفكر منبثا فى قلوب الاطفال منهم قبل الشبان وهؤلاء قبل الشيوخ فتراهم جميعا يكرهون النمساويين لهذا الألم المعنوى الذي لا يبرح من أفئدتهم الا بالدواء الوحيد الفعال . وهو ذلك الاستقلال . ولاشك انه غاية سامية وغرض شريف لابد من وصولهم اليه مادامو اعلى هذا الاحساس وتلك الحياة ان لم يكن اليوم ففى الغد .

﴿ حديث فى بودا بينى وبين رجل من أهالى البوسنه ﴾(١)

بينا كنت استطلع مبانى بودا اذ نظرت بجوار قلعتها التى مر بك ذكرها شخصاً لابسا طربوشا وعليه ثياب بين الافرنكية والتركية جالسا على كرسى عمومى فاندهشت لرؤيته وظننته عثمانيا فتمحكت أو تحكمكت به وجلست بجواره وكلمته بالعربية سائلا اياه عن أثر كان أمامنا فأجابنى بشغف ولهف بالتركية قائلا . انه لا

(١) البوسنه هى بلاد البشناق وعدد سكانها مليون ومائة الف نفس وأرضها جبلية وفيها وديان كثيرة يزرعون بها شجر الفاكهة وخصوصا البرقوق الذى هم من أكبر ثروة البلاد وفى أرضها معادن كثيرة منها الرصاص والحديد والفحم الحجرى . وأهم مصنوعاتها الاسلحة البيضاء والنارية وقصبتها مدينة سرايفو التى ابتناها المجر سنة ١٢٦٣ وهى المشهورة الآن باسم ( بوسنه سراى ) ( أى محل حاكم البوسنه ) وأخذت هذه التسمية من سراى قد ابتناها بها خسرف باى حاكم البوسنه سنة ١٥٣٠ وفى هذه المدينة أكثر من مائة مسجد وكثير من الكنائس والمعابد وعدد سكانها نحو ستين ألف نفس أغلبهم من المسلمين .

وقد استولت الاتراك على هذه البلاد فى مبدإ القرن الخامس عشر ولم تخرج من تحت سلطتهم الا لما احتلت عساكر النمسا بلادها وانتقلت ادارتها الي أيديهم بناء على قرار معاهدة برلين .

يعرف لغتى فسألته بالقليل الذي أعرفه من التركية عما اذا كان يعرف الفرنساوية فأجابنى بها قليلا فسألته من أى بلاد هو فقال انه من البوشناق وبعد ان أخبرته بأنى مصري وفدت على هذه البلاد للنزهة سألته عن احوال بلاده فقال انها منذ طلبت حريتها من الدولة العلية بتقرير من النمسا كانت متمتعة بكمالها ولكن لم نعرف طعمها اذ ذاك لان المتمتع بالنعمة لا يعرف لذتها الا اذا حرم منها وألقى بنا سوء الحظ بين يدى الحكومة النمساوية فاحتلت بلادنا حسب قرار مؤتمر برلين وأخذت تبث الشقاق بين رؤساء العشائر الذين يقال لهم عندنا البكوات فقطعت الحديد بالحديد وما هى الا بضع سنين حتى أخذت تولى فيهم وتعزل وأخذت منهم السلطة الادارية وضربت على أيديهم ثم انتهكت حرمتهم وجعلتهم فى ذل مقيم مع عزهم وضعف مع قوتهم واستسلام مع أنفتهم ثم نظرت الى المسلمين وكانوا سراة البلاد فضربت عليهم الضرائب الباهظة التى أثقلت كواهلهم وضيقت عليهم الخناق فى داخليتهم وسلبت نعمتهم وغصبت أملاكهم وأتت من الخارج بمسيحيين فأقطعتهم أرضهم وسلمتهم غاباتهم ظلما وعدوانا ثم التفتت الى الدين والقضاء الشرعى فرأته فى يد بعض العلماء الذين كانت ترسلهم الدولة العلية بما لها من حق الولاية على المسلمين عموما وأهل هذه البلاد خصوصا حيث لم يكن للنمسا فيها من الحقوق الشرعية شئ اللهم الا هذا الاحتلال الذى كان الغرض الظاهرى منه بث المدنية فى البلاد وترقية شؤن القوم العلمية والمالية فسعت النمسا لدى الدولة حتى قطعت حبل هذه الصلة بينها وبيننا ومن ثم أصبحت العلماء آلة في يد الحكام النمساويين وهم الآن يقررون باسم الدين القويم كل مايوحى اليهم به هؤلاء الحكام فاختل نظام الدين ودرست معالمه ثم التفتوا الى التعليم فوضعوا بروجرامات لمدارسنا تكفل عدم النجاح

والفلاح فى دين ودنيا وهانحن الآن فى شدة لم تكن بعدها شدة والامر لله وحده الذى أراد أن ينتقم منا بأيدينا لتلك الدولة العلية التى كفرنا بنعمتها ونبذنا تبعيتها ولا حول ولاقوة الا بالله .

فقلت وهل عدد المسلين كثير في هذه البلاد فقال قد كان منذ خرجنا من حكم الدولة العثمانية اكثر من نصف مليون ولكنه الآن يقل كثيرا لكثرة المهاجرين الذين يفرون من البلاد طلبا للحياة السعيدة في أراضى الدولة .

فقلت ولكنكم اذا جمعتم كلمتكم وسرتم فى عملكم واشتغلتم بما يكون فى فائدتكم الشخصية فهل تعارضكم الحكومة فى ذلك ؟ فقال ان علينا الآن حاكما عاما مجريا وهو ظلوم غشوم لايعرف الاالعسف والجور وهولايخشى الا المسلمين الذين يراهم متمسكين بالدين كل التمسك فأمر بأن تكون أحياؤهم محاطة على الدوام بالبوليس الذي يقبض على كل من يراه منهم في طريقه ولو من غير ذنب يرتكبه أوجناية يقترفها فيودع في سجن عميق من دون تحقيق وربما قضى به حياته العزيزة ولذلك ترانا وقد سدت الدنيا أبوابها فى عيوننا لانعرف لنا حياة نسعى وراءها بما يفيدنا فى معاشنا ومعادنا فتاجرنا بضاعته كاسدة وصانعنا صناعته فاسدة وعالمنا أجهل من دابة ولا عمل له الا النفاق والرياء وتقرير مامن شأنه ان يخرجنا من تهلكه ليلقى بنا فى أسحق منها ونحن فيما بين ذلك كله فى أسوأ حال .

فقلت ان الحكومة التى تحتل بلادكم تتظاهر بحب الدين ومساعدة الانسانية وبنيها فلم لاتشكون أمركم اليها وتعلمونها بحالكم فانها لو عرفت ذلك من تبعتها وخصوصا اذا كانوا منها أقرب من حبل الوريد أنصفتهم وسعت فى رفاهيتهم لاسيما وأنتم فى وسط أوروبا التى تلهج على الدوام فى أنديتها

وعلى لسان جرائدها بمساعدة الانسانية ونصرتها فيسمع صوتها سكان المعمورة من قاص ودان .

فقال كم شكونا اليها وأوفدنا الوفود عليها استرحاما فلم نر الا آذانا صماء ووجوها مقطبة وأيديا قداستعدت للفتك بنا وها أنا أحد رجال هذه الوفود الذين خابوا فى مسعاهم فلم أر لى وجها أرجع به لقومى لانى أخشى لو عدت قبض علىّ وحوكمت بما يقضى به على اكبر الجناة السياسيين .

فقلت أليس عندكم جرائد يسمع صوتها العالم الاوروبى المتمدن فقال وما ذا تريد من جرائد قوم لاتتكلم الا بلسان الحكومة ولا تكتب الا بقلمها .

فقلت وهلا يفد على بلادكم أناس على سبيل السياحة يعلمون منكم مايخبرون به عنكم فقال ان الحكومة تضيق كل التضييق على من يفد الى بلادنا من العثمانيين فلو شمت رائحة التركى قبضت عليه وحاكمته مختلقة له جنايات لم يرتكبها ولم يدر فى خلده شئ منها . فان كانت تلوح عليه هيئة الامارة ضيقوا عليه الخناق حتى كأنه فى سجن الى أن يتركها فرارا من ذلك الضغط الذى يحدق به من غير ان يعرف من أمرها شيأ . أما الاجانب غير العثمانيين فلاشك انهم يرون فينا النقمة نعمة والافلاس فلوساً والموت حياة.

ثم سألته عن احساس الاهالى نحو الدولة العلية فقال كله اخلاص وولاء وندم على مافرط منهم فى حقها .

فقلت ساعدكم الله على ما أنتم فيه وبصرنا لما به الاحتماء من شر مثاله وسلمت عليه وانصرفت وفؤادي كله ألم على مايصادفه الاسلام والمسلمون الذين هم فى لهو عما هم فيه من سوء الحال وفى غفلة عما ينتظرهم من شناعة المستقبل اذا داموا بهذه التفرقة وهذا الكسل والقعود عن العمل .

## الرسالة السابعة

### من بودابست الى بوخارست

ركبنا وابور الاكسبريس من بودابست الساعة التاسعة مساء ومازلنا سائرين عليه طول ليلنا حتى اذا أصبح الصباح نظرت فوجدت نفسى بين مروج خضراء وان لم تكن فى الاعتناء بها مثل سابقتها وهذه هى بلاد هنجاريا ويكثر بها شجر الفاكهة وخصوصا الخوخ وكذلك البنجر . والغلال وأخصها القمح والذرة وتربة الارض جيدة سوداء وفلاحوها أشبه بفلاحى الاتراك وهم يلبسون سراويل بيضاء وعليها قميص بلونها مع قدم حاف ورأس عليها قبعة من خوص ويتحزمون فى الغالب بأحزمة صوفية كبيرة عريضة ونساؤهم يلبسن الجلاليب وعليها شبه مرايل وعلى رؤسهن مناديل يربطنها من تحت شعورهن المرسلة على ظهورهن على هيئة ضفائر . أما حيواناتهم فالغنم وهى كثيرة والخيل وهى مشهورة والابقار وهى كبيرة ( وحجمها أكبر من التى عندنا ) وألبانها غزيرة وقرونها طويلة تخرج من الرأس وتتجه أفقيا على كل جهة من جهتيها الى مايبلغ أربعين سنتيمترا تقريبا. ويكثر عندهم الجاموس ولم أره الا فى هذه الجهة بأوروبا كلها اللهم الا فى بساتين الحيوانات فيها وهو فى هذه البلاد أقل منه ارتفاعا عندنا ويستعملونه والبقر فى أعمالهم الزراعية . وما زلنا سائرين ونحن نمر في طريقنا على قرى صغيرة أشبه بقرى فلاحينا لولا نظافتها ونظام وضعها حتى وصلنا الى محطة براسو في نهاية الساعة الثالثة بعد الظهر وهى من البلاد المشهورة . وهنالك ابتدأت جبال البلقان على يسارنا وعليها الاشجار من جميع الانواع بشكل جميل ونسق لطيف وأهمها شجر الصنوبر والسنديان والبقس

وغيرها ويتلوها على سفح الجبل أشجار الفاكهة وهـذه هى أحسن الغابات التى رأيتها على طول طريقنا من فينا اليها حيث كانت الارض عارية عن الاشجار الا ما كان منها من فاكهة أو مما لا قيمة له تذكر كشجر الصفصاف.

والمجاري المائية التى تنزل من هذه الجبال قليلة جدا وضعيفة مما يدل على ضعف أصلها وشجر الغابات يغطى سطح الجبل كله حتى لا يمكن للعين ان ترى أرضه وكنا كلما سرنا بجوار هذه الجبال ارتفعت بنا الطريق حتى أذكرتنا جبال سويسرا وهى وان شابهتها فى نضرتها وبهجتها الا انها تقل عنها كثيرا فى ارتفاعها ومجارى مائها. وما زلنا سائرين وسط هذه الجبال بين منظر جميل ومرأى نخيم حيث امتـد البصر لا توقفه غير خضرة زاهيـة وحيث ارتفع لا يرى الا سماء صافية ارتكزت مما يلى أفق الدين على جبال زاهرة باهية وبعد مسافة يتصل الجبـلان ببعضهما وقد حفر القوم فى نقط اتصالهما نفقا تسير القطارات فيه وهنالك رفع الوابور عقيرته اعلانا بالدخول اليه وقد كنت مشـتغلا بمشاهـدة اتصال الجبلين ببعضـهما حتى انى لم أفكر فى اقفال شبابيك غرفتى التى لم يكن بها غيرى وما هو الا أن خطا بنا القطار من باب هذا السرداب الذي مكثنا تحت سمائه نحو عشر دقائق حتى امتلأت غرفتى بالدخان لدرجة أنى كدت ان أختنق به فلما خرجنا من تحت هذه السماء السوداء سألت فوجدت ان كثرة الدخان من استعمالهم الخشب فى وقود القطارات بدل الفحم. ومادخلنا الى محطـة بريوپوپال التى هى الحـد بين المجر ورومانيا حتى أتى الشيالون وأنزلوا السفار بأمتعتهم الى صالون داخل المحطة بوسـطه شبه طاولة مستديرة وضعوا عليها المتاع وفى داخل هذه الدائرة عمال الجمرك فأخـذوا في فتح الشنط والصناديق وفتشوها تفتيشا جيـدا وحصلوا رسم

الجمارك على مايستحقه منها حسب قوانينهم ثم أخذونا الى محل الپاسپورتات وبعد ان صدقوا عليها توجهنا الى مكتب آخر بجواره فقيدناها فيه وأخذت هنالك رسوم المرور على من لم يكن دفعها فى الجهة التى استخرج فيها پاسپورته وقدرها خمسة فرنكات عن كل شخص وهى عملية كبرى لم أشاهدها في غير هذا المكان وهو مما يدلك على التدقيق الشديد فى الدخول الى أراضى هذه الحكومة ( حكومة رومانيا ) ثم رجعنا الى قطارنا بأمتعتنا وسار بنا بين مروج عن يميننا وجبال البلقان عن يسارنا .

والفلاحون فى رومانيا يلبسون بنطلونا أبيض وقميصا يتحزمون عليه بكمر من جلد وجلهم أو كلهم حفاة الاقدام وهم أشبه شئ بالاعراب عندنا لولا اختلاف قبعاتهم . ونساؤهم يلبسن الجلاليب وعلى رؤسهن مناديل يربطنها الى ما تحت الذقن . ولو كان النساء الفرنساويات فى جمال المجريات أو الرومانيات الطبيعى وقد عززنه بما انفردن به من الجمال الصناعي لأبين على أنفسهن الارض وطنا والسماء سكنا ولما اكتفين بأن يكن لاصحاب الخلاعة وذوى الشهوات انصاف آلهة كما كان عند أجدادهن الرومان بل آلهة كاملة . والمنازل أغلبها من خشب وبعضها من دورين والارضى من الحجر والثانى من البغددلى غالبا ومعامل الخشب كانت كثيرة على طريقنا وكنا نرى بمحطات السكة الحديدية تلالا من الالواح الكتل وغيرها من خشب الحريق .

وقد رأيت على طريقنا جملة مجارى ماء جافة وأخصها نهر كبير عريض ليس بذى عمق كبير أقيم عليه كوبرى طويل وهو أشبه شئ بحر قشيشة عندنا مدة التحاريق لولا أنه يجرى فى جهة منه سلسول من الماء فى هذا الأوان ( أول أغسطس ) أما اذا وافى الشتاء بامطاره وسيوله ونزلت اليه مجاري المياه

من جبال تلك الجهات انتفخت أوداجه وعظم عجيجه . وعلى شاطئه الايمن معامل كبيرة لعمل القطران ومعادن للبترول وهى عبارة عن آبار يحفرونها الى مايبلغ عمقه خمسمائة متر أو يزيد وهنالك تنفجر تلك العيون النيرة التى ترى من خلال أشعتها الثروة الطائلة. وفى مصر نا معادن البترول وقد عثر على شئ منها جناب المستر بلمر مدير البنك الاهلى المصري في الصحراء الواقعة على البحر الاحمر فيما بين القصير والسويس فكوّن شركة للحال ( من بنى قومه طبعا ) وطلب التزامه من الحكومة لمدة سنتين وكان ذلك للآن ( والحكومة أدرى بما اذا كانت مدة الالتزام قد انتهت أولم تنته بعد ) وحيث انه عثر على شئ من هذا القبيل فى بلادنا فلابد وأن يكون بها كثير غيره قد نام عنه الوطنى وتنبه له غيره ممن لا تثنى عزيمتهم صعوبة ولا يكبى جواد همتهم مانع عن كل ما يعود عليهم بخير أو يكون من ورائه منفعة لهم .

ونحو الساعة السابعة انفرج الوادي وابتعدت عنا الجبال وبدأ القوم يزرعون فيه الغلال وعلى الخصوص الذرة وقد ابتدأت فى سنبلها وكلما سرنا تغيبت الجبال عن أعيننا واختفت تحت الافق حتى كأنا مسافرون في أرض مصر بالوجه البحرى في شهر سبتمبر الى ان وصلنا الى محطة بلووشت وهي أهم محطة رأيناها على هذا الطريق ومنها اتجهنا الى جهة الشرق فى سهل مرمل حتى وصلنا الى بوخارست نحو الساعة الثامنة مساء وعلى طول هذا الطريق كنا نري النساء يشتغلن فى عمل الدريسة وفى ملاحظة الابواب التى على الطرق القاطعة للسكة الحديدية .

## ﴿ بوخارست ﴾

هى عاصمة حكومة رومانيا وهى مدينة لطيفة جداً وابنيتها من ذات الطبقة الواحدة تعلو بدروما أومن ذات الطبقتين والثلاثية منها قليلة جدا ومع ذلك فان أبنيتها مزخرفة ونظيفة وأغلبها جديد وأهم مبانيها البوسطة وسراى الملك وهى وسط المدينة وكتلة البنيان فيها على شكل ثلاثة أضلاع مستطيل قاعدته محل اقامة الملك وجانبه الايمن محل التشريفات والايسر للحرس والخدم والحشم وبين هذين زهرية لطيفة يتلوها سور مما يقابل القاعدة من حجر على ارتفاع متر يعلوه دربزين من الحديد وبوسطه باب السراى وبنيانها بسيط جداً وهى من ذات الطبقتين ومسطحها فى عين الرائى لايزيد عن خمسة أوستة آلاف متر وفي المدينة تياتر وأوبرا صغير بنى حديثاً وبها كثير من اللوكندات والكنائس والاديرة العتيقة وفيها جملة مطابع ومكتبات ومتاحف عمومية ومجمع علمى وفيها عدد كبير من المدارس الابتدائية والعالية ومنها مدرسة للطب والقبالة والفنون الجميلة والهندسة والقانون وذلك عدا مالبنات منها وجميع مدارسها منتظمة ولها اهتمام عظيم بالتعليم الذى هو أكبر أمنية حكومتها بل الغرض الوحيد الذي تريد ان تبنى عليه مدنيتها التى انما هى تسلك طريقها الحديث بعناية تامة واجتهاد فائق جاعلة تعليم الاهالي أكبر سلاح تقطع به مايعترضها في طريقها من الصعوبات والموانع (التى أوقفت سير غيرها ممن لم يسلكوا سننها مع أنهم أعظم جاهامنها وأكثر ثروة وأوسع نظاما) وليست هذه الحركة التعليمية فقط فى عاصمة البلاد ولكنها منبثة فى جميع انحاء المملكة فان فيها أكثر من خمسة آلاف مدرسة منتظمة لايزيد ايرادها كلها عن

ثلاثة آلاف جنيه فى السنة من مصاريف أولاد الامراء والرساء أما الباقون فمجانيون يتعلمون على نفقة الحكومة . واذا أردت البرهان على ذلك قلت لك ان ايراد هذه الحكومة لايبلغ الخمسة ملايين جنيه فى السنة تصرف منها على نظارة المدارس مايربو على ربع مليون . واذا أمعنت النظر فى ميزانية الحكومة المصرية مثلا وهى التى يقال انها سلكت سبيل الاصلاح والفلاح ترى ان ايراداتها تبلغ مايقرب من اثنى عشر مليونا لاينال نظارة معارفها منها سوى مائة الف أو تزيد قليلا على ان أغلب هذه منصرفة على هذه المرتبات الباهظة والادوات المدرسية التى ان اعتبرتها مهمة فى بابها فانها ليست الا من الكماليات وماهى الا ورنيش يطلى به البناء بعد تكوينه وليس بضرورى لصاحب الحاجة الى مايؤويه من البرد والحر . أو يحميه من مهلكات البحر وضاريات البر . وكان الاولى بنا أن نبث التعليم فى انحاء القطر ونوجد فى البلاد الرئيسة مدارس تجهيزية على الاقل . وفى عاصمته الثانية ( وهى مدينة الاسكندرية ) من المدارس العالية مايوفر على أهلها وماجاورها مشقة الانتقال الى مدارس القاهرة لتكميل دراستهم بها ولعل حكومتنا السنية تفتكر فى ضرورة ذلك وكبير فائدته خصوصا اذا تنازلت ونظرت الى ذلك الكتاب الضخم الذى تراه فى كل قاعة من مصالحها ألا وهو احصائية البلاد الاخيرة ورأت بكل أسف نسبة المتعلمين الى غير المتعلمين بل استغفر الله نسبة الذين لهم بعض الملم بالقراءة والكتابة الى هؤلاء الذين لايفرقهم من الحيوان الا اختلاف اللسان . أو صورة الانسان .

وشوارع هذه المدينة لطيفة منها الضيق الذى على جانبيه الدكاكين والمغازات والقهاوى والبيرات وهى فى ضيقها وأهمية التجارة فيها كشارع الموسكي

عندنا وهذه هي الشوارع القديمة ومنها الشوارع الواسعة وهى الجديدة التى قامت على جوانبها القصور الباذخة والدور الجميلة قد أحاطت بها البساتين النضرة وانتهى بعضها الى مكان نزهة القوم وهي على مثال البراتا فى فينا وان كانت لاتصل اليها فى استعدادها وفيه بعض القهاوى والنوادى العمومية وفى بعضها موسيقات أهلية وأهمها فيه موسيقى الحكومة ولكن هذه لاتضرب الا كل ساعة دوراً واحداً مما يؤخذ منه قلة ميل القوم للموسيقى كغيرهم من بنى قارتهم .

فاذامالت الشمس الى الغروب خرج القوم للنزهة هذا في عربته وذاك في عربة أجرة وغيره على القدم وخلافه على حصانه وهكذا وفى أيام القمر يخرجون اليها بعد العشاء الى منتصف الليل .

وفى هذه المدينة الانوار الكهربائية ونور الغاز . والتجارة لها حركة عظيمة فيها خصوصاً الحبوب لاسيما الذرة منها والدخان وغاز البترول والاصواف والشمع والعسل والخمور والماشية والدهن والسجاجيد والانسجة الصوفية والكتان وأغلب تجارهم من اليهود والارمن واليونان وحركة تجارتها مع الروسيا والمانيا وتركيا ولقد اشتهرت صناعتها فى صياغة الاسلاك الذهبية والفضية والمنسوجات الكتانية وبعض أدوات الحديد وعمل الغراء وأغلب صناعهم من الالمان .

وأهل المدينة يشربون من الآبار الآسنة ولذلك تكثر فيها الحميات وخصوصاً التيفوس فى مدة الصيف فلذا شرعت الحكومة فى استجلاب الماء الى المدينة من نهر الطونة الذي يبعد عنها جنوبا بنحو ٤٨ كيلو مترا ولكنها رأت ان هذا المشروع يكلفها مصاريف باهظة تثقل مالية الحكومة فأرجأت تنفيذه حتى يتوفر عندها مايقوم بنفقاته ولم ترد أن تحنى رأسها تحت ثقل سلفة تستقرضها

لهذه الضرورة قائلة ( المعدم لا يلزم ) .

أما اهالى هذه المدينة فأخلاقهم هادئة . والطبقة الوسطى منهم فما فوقها يلوح عليهم توقد الذهن وان كانت حركاتهم ليست فى نشاط القوم فى أوروبا الغربية . والطبقة السفلى تلوح عليهم الغباوة وعدم التربية وهم أشبه شئ بالطبقة السفلى من اليونان فى أخلاقهم لا فى اجتهادهم ونشاطهم . وأهل العاصمة بالطبع هم الذين يمكنك أن تحكم بهم على حالة البلاد كلها لانهم بمثابة الرأس من كل الدولة . فانك اذا نظرت اليهم رأيت رؤسا مستديرة وجباها عريضة وعيونا متوقدة وأيديا ابتدأت تتحرك للعمل وأرجلا تخطو ببطء نحو المدنية الغريبة عنها بل التى لم تعرفها وربما لم تسمع باسمها الا من زمن ليس ببعيد . ولذلك ترى الامة منقسمة الى ثلاثة أقسام . الطبقة العليا وهم قليلون وقد سارروا بسرعة فى جادة التمدن . والطبقة الوسطى وقد ابتدأت تتحرك اليها . والطبقة السفلى وهم على ما كانوا عليه من الهمجية بل البهيمية . الا أن اهتمام الحكومة بتعليمهم ووجوب تعميمه فيهم يضمن لهم سرعة الانتقال . عن هذا الحال . الى أحسن مآل . ومدينة بوخارست واقعة على بعد ٤٤٥ كيلومترا من الشمال الغربى للقسطنطينية وقد أنشئت فى أواخر القرن الثالث عشر والذى اختطها هو رادول الترنسلفانى (١) حيث أخذ بلاد الفلاخ (الأفلاق) وقد فتحها العثمانيون فى أواخر القرن السادس عشر وفى سنة ١٧٨٩ استولى عليها النمساويون ثم استردتها الدولة الى حكمها فى سنة ١٨١٢ وفى السنة التالية تسلط عليها طاعون شديد فهلك من أهلها بسببه نيف

(١) نسبة لترانسلفانيا التى كانت حكومة من حكومات أوروبا واقعة غربي مملكة رومانيا الحالية وكانت ضمن أراضي الدولة العلية فدخل جزء منها تحت حكم النمسا والجزء الآخر فى حكومة رومانيا

وسبعون ألفا فى مدة شهر ونصف . وفى سنة ١٨٤٧ شبت فيها نار هائلة دمرت قسما كبيراً منها . وعليه فان عمران هذه المدينة العظيمة لا يبتدئ الا من نحو نصف قرن فقط . ومازالت هذه المدينة عاصمة لبلاد الفلاخ التى كانت ولاية عثمانية حتى صدر فرمان سلطانى بضم ولايتى البغدان والفلاخ الى بعضهما وجعلهما ولاية واحدة في سنة ١٨٦١ تحت اسم ولاية رومانيا يديرها اسبيدار واحد ( يطلق هذا اللفظ على الحاكم في هذه البلاد ) محل اقامته هذه المدينة على ان يدفع خراجا للدولة كل سنة قدره ٣٦ ألف جنيه انكليزى تقريبا . ومازالت تابعة للدولة العلية حتى كان ما كان من مؤتمر برلين حيث قرر استقلال هذه البلاد سنة ١٨٧٨ وجعل حاكمها ملكا عليها وهو الملك الحالى الذي هو أول السلسلة المالكة لهذه البلاد .

وحكومة هذه المملكة دستورية وبها مجلس للامة ومجلس للشيوخ وهما ينظران فى كل اصلاح يعود على الامة بالخير والفلاح . ويتركب الاول من ٧٠ عضوا لكل مديرية اثنان مع عضوين للنيابة عن المدارس الكلية يعرضان على المجلس كل ما من شأنه ترقية العلوم والفنون فى البلاد . وثمانية أساقفة يدافعون عن الدين فيه . وأما الثانى فيتركب من ١٤٥ نائبا ينتخب منهم ٦٥ من البغدان والباقى من الفلاخ . ويشترط فى عضو مجلس الامة ان يكون قد جاوز الخامسة والعشرين وان يكون سبق له أنه دخل فى خدمة علمية أو عسكرية أو ملكية وان يكون دخله على الاقل ٤٠٠ جنيه انكليزي سنويا . وعضو مجلس الشيوخ يجب ان يكون سنه على الاقل ٤٠ سنة .

وايرادات هذه الحكومة هى من المكوس التى تضربها على البضائع والضرائب التى وضعتها على الاطيان وهى لا تزيد عن ستة فى المائة من دخل

الاراضى وهو شئ لايذكر بجانب ماتحصله حكومتنا المصرية من ذلك حيث انها تأخذ من الفلاح مايزيد عن ثلث محصول أرضه لان الفدان الذى يساوى ايجاره خمسة جنيهات انكليزية في السنة تجبى من صاحبه ١٦٤ قرشا سنويا سواء صحت زراعته أو لم تصح وفى هذا من الغبن على الفلاح المسكين مالايخفى عليك اذا قارنته بغيره . والأدهى من ذلك أن الفدان المزروع نخيلا تجبى عنه أموال النخيل وضريبة الفدان معا على ان زرع النخيل بالارض يقلل من قوتها حتى أنه لو زرع فيها شئ يكاد لايثمر وان صح فانه لايكافئ قيمة التقاوى فضلا عن المصاريف والاتعاب الزراعية التى استلزمها زرعه .لطف الله بعباده .

ومن أحسن مايذكر لحكومة رومانيا قرارها بعدم جواز ملكية أرضها الى غريب مطلقا ولذا فان ملكية جميع أراضيها محصورة في شخص أهلها وهذه خدمة من أجل الخدم للاهالى والحكومة معا لانها بذلك حصرت ثروة البلاد فى بنيها . ومن جهة أخري وفرت عليها تلك المشاكل السياسية التى كانت تجعل لبعض الدول حق التداخل فى أمور الحكومة بدعوى حماية مصالح رعاياها .وأظنك أيها المصرى تعرف هذه الفائدة اكثر من غيرك لان الاجانب قد شاطروك أرضك وعقارك وصارت بذلك الحكومات الاجنبية محتلة لبلادك ونسبة احتلالها من بعضها على نسبة ما امتلكته رعيتها من أراضيها وبذلك كان لهم حق التداخل فى أمور الحكومة الذي نشأ عنه تقرير امتيازات الاجانب التى لم يتمتع بشئ منها أهل البلاد أنفسهم ولا حول ولا قوة الا بالله .

وجيش هذه الحكومة يبلغ نحو ٦٠ ألف جندى في حالة السلم و ٩٥ ألف مقاتل فى حالة الحرب وكان دينها سنة ١٨٨٣ يبلغ ٢٨ مليون جنيه انكليزى تقريبا وعدد سكانها نحو سبعة ملايين من النفوس منهم نصف مليون من

اليهود وثمانية آلاف من الارمن وستة آلاف من الروس وألفان من المسلمين وكان فيها مسلمون كثيرون قبل استقلالها فهاجروها حيث قضت معاهدة ادرنه سنة ١٨٢٨ باخراجهم منها. ولا يخفاك مافى ذلك من التعصب الدينى البين الذي ينسبه الافرنج على الدوام الى المسلمين زورا وبهتانا على ان بلادهم محشوة بمن غصت به منهم على اختلاف مللهم ونحلهم وهم متمتعون بكل مافيه أنواع الراحة والامن والطمأنينة والرفاهية فضلا عما لهم من الامتيازات وبالجملة فان هذه الحكومة سائرة فى طريق التقدم بسرعة تحقق حسن مستقبلها وادارتها غاية فى الانتظام وهى اكثر نظاما من جميع حكومات البلقان.

أما جوّ هذه البلاد فهو شديد الحرارة والرطوبة في مدة الصيف وقارس البرودة كثير الثلوج فى مدة الشتاء حتى انى حين كنت بها فى منتصف شهر أغسطس كنت أتمنى أن لو كان لى أجنحة وطرت منها هربا الى حرارة مصر على انها واقعة فى النصف الشمالى من أوروبا.

ولقد شاهدت بعاصمة هذه البلاد شيأ جديرا بالذكر وهو ان جميع العربجية فيها روسيون ومطوّشون فسألت عنهم فعلمت انهم يسمون بالاسكوبتس وهم طائفة من الروسيا قد نفتهم الحكومة الروسية فلم أزل أبحث حتى عثرت على شئ من أمرهم نورده هنا لاطلاع القراء على نبأ لم يسمعوا به بل لم يدر فى خلدهم شئ منه.

## ﴿ الاسكوبتس ﴾

وهى طائفة فى بلاد الروسيا تدين بدين النصرانية وقد اتخذت لها مذهبا فيه غريبا فى بابه بل جديرا بأن يعلمه كل من يدين بأي دين كان ليعرف كيف ذهب

الخبط والشطط ببعض المتدينين الي الحد الذي يغضب الله وينفر لسماعه الناس أجمعون .

ابتدأ ظهور هذه الطائفة بأوروبا فى النصف الاخير من القرن الثامن عشر الميلادي الذى يسمونه بقرن النور والعرفان والمدنية الكاملة فى مدينة بطرسبورغ عاصمة بلاد الروسيا بدعوة رجل اسمه سليفانوف كان يبث تعاليمه بأن روح الله قد حلت فى جسمه أو تجسمت فى شخصه فتبعه خلق كثير .

وأول أساس بنى عليه تعاليمه أن الانتاج من الزوجين جناية كبرى لا يغتفرها الا استئصال أعضاء التناسل منهما . ذهب هذا الدين الجديد الى ان الجسم الانسانى مكان للفساد ومحل للنقائص والشهوات التى تشغل الفكر ويضطرب منها العقل . وذهب هذا المتشرع الواضع له الى ان الحياة تعيسة يلزم قطع أصلها حتى يخرجوا منها الى حياة جديدة سعيدة . موهما مريديه أن الله لا يتجلى الا على الملائكة أو ما شاكلهم فأمر بالتشبه بهم بأن يكونوا لا ذكوراً ولا إناثا . وأطلق عليهم اسم اليمامة البيضاء . جاعلا أساس تعاليمه الآيات ٤٣ الى ٥٠ من الاصحاح التاسع لمرقص وهى بحروفها « ان أعثرتك يدك فاقطعها خير لك أن تدخل الحياة أقطع من أن تكون لك يدان وتمضى الى جهنم النار التى لا تطفا حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ . وان اعثرتك رجلك فاقطعها خير لك ن تدخل الحياة أعرج من أن تكون لك رجلان وتطرح فى جهنم فى النار التي لا تطفأ حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ . وان أعثرتك عينك فاقلعها خير لك أن تدخل ملكوت الله أعور من أن تكون لك عينان وتطرح في جهنم النار حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ لان كل واحد يملح بنار وكل ذبيحة تملح بملح. الملح جيد . ولكن اذا صار الملح بلا ملوحة فبماذا

تصلحونه » .

بالغ أصحاب هـذا الدين الجـديد فى تمسكهم به حـتى انهم لا يستأصلون أعضاءهم التناسلية الا بعد ان يصيروا رجالا حيث يكون الخطر والهلاك فى الغالب . تغالوا فى مذهبهم حتى أنهم لم يوقفوه على عدم الانتاج بل جعلوه يتناول عدم التغذية الطبيعية فاذا استأصلوا من الرجل أعضاءه التناسلية ومن المرأة رحمها قطعوا أيضا ثدييها ويسمون أثر هذه الجراح بخاتم الابرار وعلامة الاخيار . وذهب بعضهم الى ضرورة الزواج لكى يأتوا ببنين يكونون سعداء أخياراً باتباع شريعتهم والعمل على سنتهم فاذا أعقب أحدهم ولداً قطع لنفسه خصيتيه وهو الطهر الاول عندهم أو قضيبه معهما وهي الطهارة الكاملة وقطعت الام ثدييها واستؤصل لها رحمها (١) أما ولدهما فيشب ومصير أمره بين عينيه فاذا كبر واتبع شرعة آبائه كان منهم وان جمح ورغب فى حياته التعيسة أصبح غرضا لاضطهادات ذويه وعشيرته ومحلا لاساآتهم معرّضا للفتك به منهم حيثما كان

---

(١) لاشك انك تذهب بك الغرابة من ذلك كل مذهب ولكنك اذا عرفت ان هذه الفرقة انما تعمل ذلك باسم الدين عذرتهم وخففت من حدة لومك لهم وشدة انتقادك عليهم خصوصاً اذا عرفت أن بعض الفرنساويات حليفات الروسيات قد ذهبن الآن الى استئصال أرحامهن ( لارحمهن الله ) ومبايضهن بعملية جراحية يتحملن صعوبتها لا لضرورة مرض يستوجبها ولكنما هو لعدم الانتاج حتى يحفظن بذلك نظام أجسامهن واعتدال قوامهن ونضارة وجوههن وغضاضة شبابهن واستدامة جمالهن ولذلك فانك لو اطلعت على استاتستيك البلاد وجدت ان عدد القوم يقل قلة فاحشة من سنة الى أخرى لاشك انه ينقرض معها النسل الفرنساوي يوما ما .

وكذلك مايعمله الطليانيون فى روما الى هذا العهد حيث يأخذون الغلمان حسني الصوت ويعلمونهم الغناء بين تراتيل كنائسية وأغاني قومية فاذا نجحوا فى ذلك طوشوهم ليحفظوا بذلك لين نغمات أصواتهم ورنينها اذا صاروا رجالا .

وأينما سار. ومن ذلك أن أحد ابناء هذه الطائفة كبر فهاله مصير أمره واشفق على نفسه ووجد له سبيلا للهرب فهجر أهله وفرّ الى جهة بعيدة أقام بها وتزوج فيها ثم أخذه الحنان الى وطنه وأهليه فعاد اليهم ودخل على أبيه وقد أحنته السنون وانكب على يديه يقبلهما فلما عرفه أبوه لم يمد له الايد القاتل الفاجر التى خر معها ذلك المسكين يتضرج في دمائه وذهب ضحية التمسك بهذا الدين الوخيم. ولعمرى كم جرّت هذه الفئة الطاغية الباغية على الانسانية من أنواع الهلاك وكم شوّهت هذه اليد الغشومة من خلقة بنيها وبناتها وأفقدتهم بجهلها مزية الوجدان الحيوى الحقيقى فبئس مايصنعون وقبح مابه يدينون.

يعتقدون انه اذا بلغ عددهم ١٤٤ الفا أرسل البارئ (سبحانه) من السماء رسلا يتولى قيادتهم مسيحهم الجديد (سليفانوف) فيملكون الارض ويملّكونهم اياها ولذلك فهم يجتهدون على الدوام الى بلوغهم هذا العدد. ولا يقتصرون بمزاولة بدعتهم على بنيهم بل تراهم يخدعون كل من عثروا عليه من الاولاد الاغرار تارة بالحيلة وأخرى بالمال فيستأصلون ثلاثيلتهم بيدهم الاثيمة من حيث لايعلم بأمرهم أحد.

ومن ذلك ماحكى من ان شابا حسن الخلقة على وجهه نضارة الشبيبة اسمه سالتيكوف جمعه احد نوادي مدينة موسكو بشيخ منهم لم يكن الشاب يعرفه وكان هذا ينظر الى امرأة جميلة بالقرب منه فقال له الشيخ ان العذاري فقط هن اللواتى يتجلى عليهن الباري (سبحانه) يوم القيامة أما الشبان الذين ينظرون اليهن بعين الشهوة فلا ينظر الله اليهم ولا يزكيهم ولا يدخلهم في نعيمه فقال له الشاب وماذا نعمل اذاً فقال الشيخ اتبع الانجيل وسرد له الآيات التى مر بك ذكرها واعقبها بقوله يجب على الانسان ان يقتل جسمه وان يتشبه بالملائكة بأن يبيض

نفسه (يجعل نفسه يمامة بيضاء) فقال الشاب وكيف ذلك فنهض الشيخ وقال للشاب اتبعني أعرفك ذلك السر المكنون وذهب به الى بيت فطرق بابه فدخلا وسار به الى مكان سحيق مظلم فرأى به أناسا لابسين اردية بيضاء فأمسكوا ذلك الشاب وربطوا عصابة على عينيه وسدوا فمه وألقوا به على الارض وجيء الى الشيخ بسكين قد حمى نصلها فى النار الى درجة الاحمرار فقطع بها أعضاءه التناسلية ثم خيره بين الكتمان أو الموت. وكانت نتيجة سؤال هذا المسكين ما رآه من النكال والوبال .

ومن مذهبهم انهم لايشربون الخمر ولا الدخان ولا يأكلون اللحم ويقولون ان اللحم ملعون لعنة انتاج البنين والبنات .

ولهذه الشيعة رسل وأنبياء على مايزعمون وأهمهم النبية حنارامانوفيا . وهؤلاء هم الذين وضعوا نظام هذا المذهب أو بعبارة أجلى خلله ويعتقدون ان هذه النبية فى قدرتها ان تحول الانسان منهم الى عالم الملائكة بيدها القادرة .

ومن معتقداتهم ان مسيحهم الجديد سليڤانوف هو الرب المخلص المنجي للانسانية بقطعه لآلاته الثلاث لابموته مصلوبا وهذا هو معنى التثليث عندهم. (قبحهم الله)

وهم يعتقدون ان عيسى المسيح ابن الله الا انهم يثبتون من الانجيل انه لم يكن الا مبشرا بمجيء سليڤانوف ويقولون ان عيسى كانت تعاليمه كلها مبنية على الخصاء والتطويش فتنوسيت تعاليمه وانقطع العمل بسنته ولزم على ذلك أن جاء المسيح الجديد لاقامتها ونشرها .

وهذا المسيح الجديد الذى ينتظرون ظهوره ثانيا للعيان لم يظهر أمره

أول مرة الا فى عهد حكم كاترينا الثانية ويقال انه رجل ساقط التربية منحط الاخلاق من المتشردين الاميين الذين ليس لهم الملم بشئ من العلم طلب الى الجندية ففر منها وأخذ يبث تعاليم مذهبه الجديد وكوّن مجتمعا من السذج وادعى فيهم بألوهيته فكثر تابعوه وعظمت رهبته . واشتهر أمره وعرفت بدعته . فقبضت عليه الحكومة ونفته الى ايركوتسك بسيبريا الوسطى ولم يعد منها الا فى زمن بولس الاول وهنالك لم يقف عند حد دعواه الاولى من كونه ابن الله بل ادعى دعوى أخرى وسمي نفسه اله الآلهة وملك الملوك .

وتابعوه يزعمون أن بولس الاول لم يستحضره من منفاه الا لما علم بحقيقة ألوهيته على أنه لم يعف عنه الا بمساعى بعض أتباعه من ذوى الحيثيات حيث حقق للقيصر بأنه مجنون . ولما حضر من منفاه سجن فى مارستان بطرسبورغ ولم يفرج عنه الا فى زمن بطرس الاول وبعد ذلك قضى ثمانى عشرة سنة في بيت أحد تابعيه بهذه العاصمة بين عبادة قومه له وتمجيدهم اياه وكان في هذه المدة ينشر تعاليمه حتى كان من يقدّم اليه ليقطع منه ثلاثياته بيده الشريفة ( قطعها الله ) يرى فى نفسه انه أسعد الناس جميعا . ثم قبض عليه سنة ١٨٢٠ وسجن فى ديرسوزدال وبقى فيه الى ان مات سنة ١٨٣٢ .

وتابعوه يعتقدون بأنه لم يمت بل يعيش الآن فى فضاء سيبريا ليعود على رأس الوفود السماوية التى ستأتى لتكوين مملكة الابرار والقديسين الاخيار كما ذكرناه . أما أبناء هذه الشيعة فيكاد يعرفهم كل من نظر اليهم : أصوات حادة ووجوه مغبرّة ولون أصفر وبشرة متجعدة وأذقان منحولة ومشية معوجة ونظر لاثبات له .

وهم مشهورون بالاستقامة والصدق فى معاملتهم ولهم حذق فى الحساب

والصرافة لايذكر بجانبه حذق اليهود فيهما .

وهم أغنياء وثروتهم محفوظة فيهم فمن لم يكن له أولاد يتبنى منهم من يوصى له بأمواله ولهم أعمال خيرية كثيرة حتى ان أحدهم ترك مبلغ خمسة ملايين روبل فى أواخر حكم اسكندر الثانى وأوصى بأن يصنع بها ملجأ للعجزة والاطفال فى بطرسبورغ وهو موجود بها الى الآن ويسمى ملجأ تيمنكوف .

وفي حكم نيقولا كانت الحكومة تضطهدهم وتسجن من يقع فى يدها منهم وتأخذهم فى العسكرية حتى جعلوا منهم فرقة المحافظين بمدينة ماران في قوقاسيا مدة طويلة . أما الآن فانها ترسل بهم الى سيبريا الشرقية ومن الذين نفوا اليها منهم فى حكم اسكندر الثانى سنة ١٨٧١ التاجر الشهير بلوتنسين . وكان رئيسا لفرقتهم فى ولاية تامبون وكان مشهوراً بكثرة الاحسان والاعمال الخيرية وله كنيسة كبيرة أقامها من ماله وكان له منزل كبير فى مدينة مورشانكس شاسع الارجاء واسع الفناء وبه مكان رحيب تحت الارض له باب من حديد وفيه آلات القطع التى يطوّشون بها من يأتون به اليها من الاطفال الذين يغررون بهم بكل الطرق حتى اذا دخلوا هذا الباب أوصدوه عليهم وعملوا لهم عملية الخصاء بين صراخهم الذى لايبلغ الاسمع من يحيط بهم من أولئك الوحوش الكاسرة بل أولئك القساة الفجرة ويبقون فيها الى أن يتم شفاؤهم ومن يموت من هؤلاء الابرياء حفر له فيها حفرة وألقى فيها غير مأسوف عليه الا مما يمس جسمه من التراب الذي يهال عليه .

فبلغ الحكومة أمر هذا الطاغية فقبضوا عليه وهجموا منزله ورأوا فيه ما يقشعر منه قلوب خلق الله من جماد ونبات وحيوان . فحكم عليه مع عشرين من مشاركيه فى هذه الجنايات التى تبرأ منها الجنايات نفسها بالنفى الى شرق سيبريا

ومن ثم وجد له مفراً الى سان فرنسيسكو (مدينة مشهورة غرب الولايات المتحدة من أمريكا) على سفينة ركبها من هناك سنة ١٨٧٩ بعد ان أعمى عنه عين حراسه وأغل أيديهم بالمال الوافر . وفى هذه السنة نفسها حكمت محكمة ايكاترينبورغ بالنفى على اثنين وأربعين شخصا منهم بين نساء ورجال ومن ثم أخذت الحكومة تطارد هذه الفئة العاثية حتى ان محكمة سمفيروبول (فى القرم) حكمت سنة ١٨٧٦ على نيف وثلاثين شخصاً منهم وكلهم من التجار والصناع .

ومن الغريب أنهم ما كانوا يتخذون لهم محامين أمام هذه المحاكم بل كان الواحد منهم اذا سئل امام القاضى عن جريمته فانه يكتفى بذكر آيات الانجيل التى تأمره بهذا العمل على حسب زعمه وقد مرّ بك ذكرها فلما رأوا عداء الحكومة الروسية لهم أخذوا فى الهجرة من بلادها الى الممالك الاخرى وعلى الخصوص الى رومانيا .

ولقد عملت الحكومة الروسية إحصائية عنهم فرأت أنهم يزيدون عن بضعة آلاف ولكن سألت عن عددهم الحقيقى من بعض من يخبر ذلك حيث كنت فى أودسا فأخبرنى انهم يبلغون مائة الف نفس .

والقانون الروسى يقضى على كل مطوّش منهم ان يكتب على باسابورته صفته حتى يراقبه البوليس كل المراقبة .

ويحتم على كل شخص يستخدم أحدهم عنده أو يسكنه فى منزل له ان يخطر عنه الحكومة حالا حتى تلاحظه فى سيره وأموره . ومع اضطهاد الحكومة الروسية لهم كل هذا الاضطهاد فانك ترى الكثيرين منهم يتنزهون فى عواصمها وقد عمى عنهم البوليس الذى اذا أراد ان ينظر اليهم ألقموه ماتستحى معه عينه من أن ترمقهم الاّ بما ترمق به غيرهم .

ولهم للآن فى عاصمة البلاد الروسية بنك شهير اسمه بنك الاسكوبتس ورئيسه منهم ولقد أرادت حكومة القيصر ان تقبض عليه ولكنها انتهت بأن اغتفرت له خطيئته واختلقت له عذراً بأن القوم أخذوه صغيراً وفعلوا به مافعلوا رغم أنفه وانه الآن ليس منهم ولم يكن على مذهبهم ولا من تابعى شرعتهم .

ولهم للآن اجتماعات سرية أشبه بالاجتماعات الماسونية ولهم اشارات يتعارفون بها فيما بينهم ومنها أنهم يضعون منديلاً أحمر على ركبهم اذا تجاذبوا الحديث معاً (كأن ذلك اشارة الى الدم الذى سال عليها وقت اجراء عملية القطع).

وقد فطنت الحكومة الروسية الى عدم امكانها محو هذا المذهب بالقوة فمالت الى الحيلة وكتبت اليهم أخيراً بمنشور تقول فيه ان رئيسهم نيكونوف المشهور باسم سيليفانوف كان عسكريا ولقد أوصى بالخلافة من بعده الى اسبورنيك وهو يرى ان العفاف خير من قطع هذه الاعضاء وعليه فانه يخبرهم انه خير لهم ان يمضوا حياتهم في الرهبانية من أن يصنعوا بأنفسهم مايؤدي فى الغالب الى حتفهم وشقائهم .

ولست أدرى اذا كانت الحيل تنجع فى القوم مع هذا الاعتقاد الشديد الذى نما في قلوبهم خصوصاً اذا كان من ضمن نظاماتهم الاساسية انهم لابد وان يبلغ عددهم ذلك المبلغ الذي يظهر معه المسيح كما تقدم لك شرحه .

ويقال ان هذا المذهب موجود فى أمريكا وربما ابتدأ فيها منذ هرب اليها بلونتسيين .

ومع ذلك فبلاد الروسيا فيها مذاهب كثيرة غير هذا وكلها شيع نصرانية اكثر قسوة وخشونة فى مزاولتها من مذهب الاسكوبتس فان منهم من يرى ان هذه الحياة لاخير فيها فيلحق نفسه بالحياة الأخرى بيد الانتحار

ومنهم من يرى ان المسيح قد قتل فيقتل نفسه تشبها بربه فى مطلق القتل ومنهم من يري ان ابراهيم قرب ابنه اسحاق أو اسماعيل الى ربه بالذبح فيأتي بفلذة كبده ويذبحه بيده الاثيمة وهو يضحك مسرورا من كونه شابه الخليل فى قربانه وابنه ماثل ذلك الذبيح في قربه من مولاه .

وهكذا مما ليس له موضع فى رحلتنا هذه وانما سقت لك ماسقت وشرحت ماشرحت لكى أضيف الى معلوماتك شيأ لم تكن تسمع به فى دين النصرانية مما ألبس ذلك الدين أشنع الصفات بنسبته اليه . وان أردت الوقوف على تفاصيله فعليك بكتاب عنوانه مملكة القياصرة والروسيين تأليف أناتول لوروا بوليه

" L'Empire des Tsars et les Russes Par Anatole lerroy - Beaulieu "

المطبوع فى باريس سنة ١٨٩٨ فانك ترى فيه المعجب والمطرب بل المغضب والمرهب .

وعلى ذلك فقدكان الاحرى بهذه الدول الاوروبية التى ترسل الرسل والمبشرين بدين النصرانية الى أطراف المعمورة لبث تعاليم دينهم بين خلق الله تعالى ممن لم يعرفوا لهم دينا أو يقفوا لهم على حقيقة مذهب ويخاطرون بأنفسهم بين هضاب وصعاب وأنياب سباع وذئاب ويعرضون بحياتهم الى الاهوال والاخطار مع مشقة بعد الديار وجشوبة المأكل وخشونة الملبس وصعوبة المحمل بفرض تيسر وجود ذلك لهم . أن يرسلوا هؤلاء الرسل لفتح دينهم المسيحى بين ظهرانيهم ومحو آثار ما اعتراه من هذه البدع التى تجنى على الانسانية بما تقترفه باسم الدين من هذه الوحشية والهمجية مما لم يسمع بمثله فى تاريخ أى دين من الاديان ولا أى مذهب من المذاهب . بل مما لم تقترفه يد أي باغية طاغية فيكون

لها من الانسانية الشكر ومن الله الاجر

يأيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم

وكان الاجدر بكتاب الغرب الذين وفدوا على بلاد الروس وعرفوا ماهى عليه من هذه الاضاليل أن يشنعوا على هذه الطوائف الخبيثة عدوة الدين والانسانية ولكنما حصروا تشنيعهم فى الشرق وعلى الشرقيين حتى ان جناب الدوق داركور عقد فى كتابه الذي ألفه باللغة الفرنساوية (مصر والمصريون) وتكلم فيه عن المصريين وعوائدهم وآدابهم بابا فى الكلام على الاقباط شركائنا الاعزاء في الوطنية نسب اليهم فيه رذائل كثيرة منها ما يختص بموضوعنا هذا وقد ذكرت ترجمته فى العدد ٣٠ من السنة الاولى لمجلة التوفيق الغراء وهو بنصه :

« والاغرب منه أنه توجد فصيلة منهم بجهة زاوية الدير بالقرب من أسيوط كان ينسب اليها مدة العزيز محمد على أمر منكر ألا وهو أمر تحضير الخصيان اذ كانوا يأتون بالصغار من بنى السودان الذين يبلغون من العمر من التاسعة الى الثانية عشرة ولا ريب أن نصف هؤلاء الصغار كان بالطبع معرّضا للموت أثناء العملية وقبل ان يصلوا الى دور الشفاء فكيف يسوغ لنا اذن ان نعتبر من كانت هذه مهنتهم المذمومة نساكا بل كيف نعتبرهم مجرد «نصارى»

وقال الموسيو « هامون » صاحب كتاب «مصر مدة محمد على» انه سأل يوما أحد هؤلاء الادنياء كيف انه يتجارى الي تعاطى مهنة كهذه فكان جواب الراهب مايأتى : - « انه في كل عصر وأوان وجدت الخصيان وسيوجد منها الى ماشاء الله واذا أضربنا نحن عن هذا العمل فيخلفنا آخرون فيه ويرتاب انهم يصلون الى درجة حذقنا فيه ومع كل ذلك أتظن ان أولئك الخصيان يستحقون الرثاء كلا . انظر تجد منهم الكثيرين فى السرايات والقصور يديرون

الاعمال وبيدهم الحل والعقد فى المسألة الهامة وقد بلغوا فى القسطنطينية الى رتبة قائد الألاي والفرقة فضلا عن انهم يتشحون بأفخر الازياء ويكللون بالذهب ويركبون الجياد المطهمة واذا قلت انهم يجهلون الملاذ التى لها المكانة الاولى عند بنى الانسان قلت وهم في نظير ذلك خالون من الافكار والهموم التى تنخر عظام العائلات الكبرى » انتهى

ولقد رد أحد الشبيبة القبطية ردا محكما فى الجريدة المذكورة تحت اسم « محب للاصلاح » على جميع مانسبه هذا الدوق اليهم من المساوي الا انه حفظه الله لم يتعرض له بكلمة واحدة على هذا الموضوع الذى نحن بصدده.

ولقد كان يجمل بكتاب الافرنج دعاة الحرية الذين يتحاملون على الدين الاسلامى ويتهمونه بما ليس فيه ويلصقون به ماهو براء منه لحكمة أو بعبارة أخرى لنقيصة هم أدرى بها منا أن يبدؤا بتقويم أنفسهم وان يجعلوا غرضهم الوحيد فى خطبهم وكتاباتهم زحزحة تلك المنكرات عن دينهم فاذا وصلوا الي هذا فهم الحكماء والا فكيف لايخجلون من وصفهم لنا الدواء على مرض موهوم وفيهم من الامراض الحقيقية ماتتألم له الانسانية على الدوام وحسبنا الله ونعم الوكيل.

## ﴿ من بوخارست الى چاسى ﴾

قد أمضينا ليلة واحدة فى هذه العاصمة ثم ركبنا القطار فى منتصف الساعة التاسعة من صباح اليوم الثانى قاصدين مدينة چاسى فانحدرنا الى محطة بلوشت ومنها اتجهنا الى جهة الشمال وكان الجبل يظهر على بعد منا من الجهة الغربية أما الشرقية فكنا نراها وقد تعرى سطحها من الغابات والاشجار الا ما كان من

عبل وصفصاف وطرفاء وقدزرع القوم بها الغلال وخصوصا الذرة حتى انا كنا نسير نحو نصف ساعة بالوابور فى جانب مزرعة واحدة ليس فيها الا ذرة وهى لاتنمو كثيرا كالتى تراها عندنا بل هى بمثابة مايزرعه الفلاح المصري مما يسمونه بالذرة الشامية (الصفراء) وهكذا ترى الارض التى اخترقناها على طريقنا كلها مزارع واسعة منها تعلم انها بمثابة چفالك لاغنياء البلاد ولم نشاهد على بعد نظرنا غيطانا صغيرة تدل على أن فقراء الفلاحين يمتلكون شيأ اللهم الا ماتراه منها حول القرى وهو شئ لايذكر .

وفي وسط هذه المزارع ابنية بسيطة أشبه بالعزب ويستعملون لدرس الغلال آلات لوكوموبيليه ولكنها لاتدرس القش ومنه تعلم أنهم لايستعملون التبن غذاء للمواشى كما تراه عندنا ويكثر فيها زراعة القنب والتيل الافرنكى وخصوصا البنجر والجوز والبطيخ وهو جيد جداً وأشبه شئ بالبطيخ اليافاوي ان لم يكن أحلى منه . أما خضراواتهم فالبامية وان لم أشاهدها فى أوروبا الا في هذه المدينة والقرع والباذنجان الاسود والقوطة والخيار وهو رفيع يبلغ قطره سنتيمترين على الاكثر ولكن طوله يبلغ نحو ثلاثين سنتياً . ولقد رأيت أيضاً في طريق هذا شادوفا مركبا على بئر قام عليه رجل يستقى به وترى على هذه الاراضى بعض شجر الفاكهة من تفاح وكمثري وقراصيا ومشمش ولكنها ليست بجيدة كما تراه منها فى وسط أوجنوب أوروبا .

وترى بها كثيرا من الاغنام والابقار وهذه تشبه التى رأيتها في بلاد المجر ولكن لونها كلها أبيض تقريبا لانى رأيت بها جملة قطعان منها لم أر فيها غير واحد فى المائة تقريباً من الاسود . أما الاحمر منها فليس له أثر فيها البتة وخيلها ليست بذات أهمية الا مايرد اليها من بلاد الروسيا .

وجميع البلاد التى مررنا عليها فى هذا الطريق عبارة عن قرى صغيرة بهامنازل صغيرة جدامتخذةمن الخشب وسقفها امامنه أومن قصب الذرة ولكنه بصفة لطيفة منتظمة مضغوطة ضغطا شديدا حتى لا تمكن النار من الاشتعال بها وهى مصنوعة بميل محكم تنحدرعنه مياه الامطار بسرعة .

وأهم البلاد التى مررنا عليها هى ترجول وفريموس ورومان وهى مدينة كبيرة تكاد ان تكون ثالثة مدن رومانيا أهمية وعظما وعدد أهلها نحو أربعين الفا .

وهى واقعة على نهر صغير رأيت عند مرورنا عليه شيئاً جديرا بالذكر وهو انى شاهدت فيه أناسا يستحمون بمياهه وهم عرايا الاجسام فعند مامر القطارقريباً منهم هرعوا اليه للتفرج عليه أوبعبارة أخرى لنتفرج عليهم وليس فيهم من ستر عورته بشئ من لباسه اللهم الا رجلا من رجال البوليس كان معهم فوضع قبعته على رأسه وأسرع نحونا عريانا . وكأنى به قد افتكر انه ربما كان بالقطار شخص من رؤسائه حتى اذا بصر به رفعهاله اجلالا واحتراما فانظر كمل الله أدبك الى هذه الآداب الاوروبية واحكم بعقلك على همجيتهم أوالهمجية التى ينسبونها الينا ظلما وعدوانا وقد عموا عماهم فيه منها .

وأغلب الرجال فى هذه الجهة يربون شعورهم ويرسلونها تحت قبعاتهم وأكثرهم من اليهود ويظهر من رثاثة هيآتهم وكآبة منظرهم انهم أشقى بنى نوعهم فى انحاء العالم وان كانت يهود الروسيا أتعس منهم حالا ومآلا ولقد رأيت الرومانيين يكرهونهم لشدة بخلهم وهم كاخوانهم يعيشون من فائدة نقودهم . ومازلنا سائرين حتى وصلنا الى محطة چاسى فى الساعة السادسة مساء .

## ﴿ مدينة جاسى ﴾

وهى مدينة لطيفة بنيت على مرتفع واتصل البنيان الى منحدره من كل جهة ولذلك تري شوارعها صاعدة من جهة منحدرة من أخرى ومبانيها على الطراز الشرقى وهي قليلة الضخامة عديمة الزخرف وشوارعها ضيقة ولكنها نظيفة وبها من اللوكندات مايكفل راحة السياح ولهذه المدينة حركة تجارية عظيمة وهى تقريبا الوصلة بين الروس وحكومة رومانيا ولقد كانت مدة مديدة عاصمة لحكومة دارغوشه التى سميت باسم ملدافيا نظراً لنهر يخترق بلادها يسمى بهذا الاسم ثم لما هاجر اليها فى القرن الرابع عشر كثير من المجر تحت رئاسة شخص يقال له بغدان وتوطنوا بها واستولوا على حكومتها سميت أخيراً ببلاد البغدان نسبة الى هذا الفاتح الجديد ولم تزل عاصمة لحكومتهم حتى دخلت تحت حكم الدولة العلية فى مبدإ القرن الخامس عشر ومن ثم صارت قصبة ولاية البغدان حتى انضمت الى الأفلاق تحت اسم مملكة رومانيا كما مر بك ذكره فى بوخارست وهذه المدينة قديمة جدا وتبعد عن بوخارست ٣٢٥ كيلومترا وعدد سكانها ١٢٠ الف نفس وفيهم كثير من اليهود واليونان والارمن والروس ولغتهم أصلها الرومانية القديمة ثم دخل عليها كثير من الكلمات التركية . والديانة الغالبة للبغدان كالافلاق هى النصرانية الارثوذوكسية ولم تدخل اليها هذه الديانة الا بعد القرن الثانى عشر للمسيح خصوصا بعد هجرة المجريين اليها وفى هذه المدينة كثير من المدارس الابتدائية وبها مدرسة كلية ومدارس عالية وكتبخانة ومتحف وهي أهم مدينة فى رومانيا بعد بوخارست وفيها الترامواي الكهربائى وعربات الركوب وهى

وعربجيتها مثلهما فى بوخارست وتنار شوارعها بالغاز وبعضها بالكهرباء وهيئتها تقرب من دمنهور البحيرة عندنا لولا ان أرضها حجرية وشوارعها أوسع وبنيانها أمنع ومدنيتها أرفع .

## الرسالة الثامنة

### من چاسى الى أودسا

أقمنا فى هذه المدينة ليلة ثم ركبنا القطار فى الصباح ميممين أودسا فما هى الا ساعة واحدة حتى مررنا على نهر البروث وهو الفاصل بين أملاك رومانيا وبين ولاية بيسارابيا التى هى من أملاك الروسيا الآن ولقد كانت ولاية من ولايات الدولة العلية تارة بمفردها وأخرى منضمة الى بلاد البغدان حتى آلت الى الروسيا بعد حرب عوان بينها وبين الدولة انتهت بمصالحة بوخارست سنة ١٨١٢ على ان تكون هذه البلاد تابعة للدولة الروسية . وبعد بضع كيلومترات من النهر وصلنا محطة أوچين وبها مقر محافظ الحدود الروسية وخدمتها وعمال جماركها . هنالك نزل الركاب وخرجوا من باب بالمحطة قد أغلق بعد خروجهم منه وقصدوا بابا آخر لها وقد أحاط بهم البوليس للدخول منه اليها ثانية للتفتيش على أمتعتهم والتصديق على باسابورتاتهم وهناك رأيت من التحقيق والتدقيق على الداخل الى بلاد الروس مانسيت معه تدقيق رومانيا على من يدخل بلادها فمكثنا بهذه المحطة ساعتين تقريبا حتى فرغ عمال الحدود من عمليتهم مع السفار ثم ركبنا القطار وكل قد حمد الله على نجاته من حدود تلك الحدود . وفى هذه المسافة كنت أرى من خلال الفواصل الخشبية التى كانت تحجزنا عن أهالى المدينة وتحجزهم عنا أن القوم ليسوا سوى وحوش كاسرة

قد قعد بهم الخمول والفقر عن الحركة والنشاط الأوروبى بل لاتلمنى اذاقلت انهم أقل حياة ورفاهية ممن يسمونهم بمتوحشى أفريقيا وكيف وأنت أينماوجهت نظرك نحوهم لاترى غير ملابس رثة قد تدثرتها أجسام خشنة وهيآت كئيبة وسيما مذعرة لاتنبئ الا عن بهيمية محضة .

وما زال القطار سائرا بنا فى واد كثرت تلاله ومستنقعاته وقلت رجاله ومزروعاته لانك لاترى بها الا بعض مزارع حقيرة من الذرة الصغيرة قد اكتنفتها الاعشاب التى تسومها الابقار حتى وصلنا نحو الساعة السادسة بعد الظهر الى محطة جوشنوف وهى عاصمة هذه الولاية .

## ﴿ مدينة جوشنوف ﴾

وهذه المدينة هى التى أمر جلالة القيصر نيقولا الثانى بأن تحتفل بقدوم سيدنا ومولانا خديو مصر عباس حلمى الثانى بصفة شبيهة بالرسمية حيث شرفها سموه أثناء سياحته الغير رسمية فى نفس هذه السنة فأقامت حكومتها لحضرته الفخيمة اكبر احتفال كما قام أهلوها لذاته الشريفة من مظاهر الاعظام والاجلال بأعظم ماتستقبل به الملوك والامبراطرة بل الاقيال والقياصرة مما نشر بتفاصيله حينذاك فى اكثر جرائد أوروبا

ولما كان القطار يقف هناك نحو ثلاث ساعات فى انتظار خلو السكة الحديدية من القطارات القادمة اليها من أودسا ( لان الخط مفرد ) نزلنا الى المدينة للتفرج عليها ومررنا بأغلب شوارعها فوجدت ان المدينة تنقسم الى قسمين . قسم قديم وهو غير منتظم فى تخطيطه . وقسم مستجد وهو في غاية الانتظام : شوارع واسعة وأبنية فخيمة من ذات الطبقة أو الطبقتين والثلاثية منها

نادرة جدا والابنية الحديثة على الشكل الافرنكى والقديمة على الطراز الشرقى وهى حقيرة فى ظاهرها وان كانت تشف عن نظافة باطنها وجل ساكنيها من اليهود وعدد سكان هذه المدينة ١٣٠ ألفا بين رومانيين وروسيين ويهود يظهر من سحنتهم أنهم أقوى ارادة من اخوانهم فى رومانيا وهم وان كانوا يلوح على وجوههم الكسل واضمحلال الحال الظاهرية ولكن بلغنى أنهم ذوو ثروة طائلة وانما تكلف هذا الشظف وتلك الخسة في المأكل والملبس مقصود لهم لتحامل حكومة الروسيا عليهم وفى الساعة العاشرة قام بنا الوابور فوصلنا أودسا فى الساعة السادسة صباحا .

## ﴿ أودسّا ﴾

وهى مدينة عظيمة فى الشمال الغربى من البحر الاسود (١) وواقعة عليه بين

(١) والبحر الاسود ويقال له بحر نبطش وبنطش والعرب يسمونه بحر طرابزنده أو بحر القرم ومعظم طوله من الشرق الى الغرب ٧٠٠ ميل ومعظم عرضه ٤٠٠ ميل ومساحة سطحه ١٨٠ ألف ميل مربع ومتوسط عمقه يبلغ ٥٠٠ متر ويصب فيه انهار كثيرة منها الطونه ودينيبر ودينسبر ودون وبوغ من جهة أوروبا ويصب فيه من آسيا نهر كوبال وقزل ارماق ونهر سكاريا فينشأ عن ذلك فى مياهه حركة عظيمة مستديمة ينبعث عنها تيار شديد يمر ببوغازى القسطنطينية والبوسفور الى بحر الارخبيل . وكثيرا ماتهب على هذا البحر رياح شمالية شديدة خصوصا فى مدة الشتاء وتثير عليه معها من الارض تلك الرمال التى تغطى جوه وهنالك يسود سطحه ويضطرب ماؤه وينعكس فى مرآته هذا الجو المعتم فتراه وقد اسودت صحيفته وزاد فى سوادها خيال تلك الغيوم التى تلبدت فوقه وأخذت ترسل اليه بكثيف أمطارها « وهذا هو علة تسميته بالبحر الاسود » وبعضهم ينسب سواده الى كثرة مافيه من الاسماك السوداء . وبعضهم يقول انما سمي بذلك لان أرضه صخرية ذات لون أسود .

وقد كان لهذا البحر أهمية كبرى قبل اكتشاف رأس الرجا الصالح « جنوب الكاب »

مصبي نهري دينسبر ودينيبر وتبعد عن القسطنطينية بمسافة ٣٨٥ ميلا وهى مبتناة على هضبة عالية ترتفع عن البحر بنحو خمسين متراً ويصلها به طريق منحدر أو ينزل اليه منها بواسطة سلالم يبلغ عدد درجاتها مائتى درجة ولها عليه مينا عظيمة جداً يسع رصيفها نحو أربعمائة سفينة بخارية .

ولقد كانت من عهد غير بعيد قرية صغيرة حقيرة على البحر الاسود تعرف باسم حاچى بيك فنظرت اليها كترينا الثانية امبراطورة الروسيا سنة ١٧٩٥ بعين الاهتمام وأمرت باتساع عماريتها ومدنيتها وسمتها أودسا تذكارا لاسم المستعمرة اليونانية القديمة (أودسوس) التى كانت على مقربة منها فى محل مدينة أوشتاكوف الحالية . فلما تقررت بها معاهدة أودسا مع الباب العالى التى قضت بأن تكون ولاية بيسارابيا تابعة للروسيا تحققت هذه الامبراطورة الحازمة من أهمية موقعها فقوت حصونها وزادت فى عماريتها وتبعها فى الاهتمام بها الدوق ريشليه حيث كان محافظا عليها سنة ١٨٠٣ .

وقد حصلت بها موقعة شهيرة سنة ١٨٤٠ بين الجنود الروسية وجنود الدول التى اتحدت مع الباب العالى على حربها وهى فرنسا وانكلترا وسردينا ( ايطاليا ) تخربت معها حصونها وتهدمت قلاعها وهذه الحرب هى المشهورة بحرب القرم .

وهذه المدينة الآن من أشهر مدن الروسيا وأهمها موقعا وهى ميناها الوحيدة الجنوبية ومحل حركتها التجارية بينها وبين بلاد الشرق وجنوب

---

لانه كان الطريق من أوروبا الى بلاد الهند وآسيا الوسطى . وقد استولت عليه الترك زمناما وأخرجت ما كان به من المراكب الاوروبية واحتكرت الملاحة فيه ولم تفتح أبوابه لحرية الملاحة الا سنة ١٨٥٦ على مقتضى معاهدة باريس التى انتهت بها حرب القرم

أوروبا . وعدد أهلها يبلغ نحو نصف مليون بين روسيين وأرمن وطليان ويونان وكان عدد هؤلاء الاخيرين كثيرا جدا فيها وكان فى أيديهم ثروة البلد التجارية فتألب عليهم الروسيون واضطهدوهم بمساعدة حكومتهم لهم وحولوا الى أيديهم حركة بلادهم التجارية والصناعية حتى أصبح اليونان ولا عيش لهم فيها اللهم الا ماحصلوا عليه في الزمن الغابر الذي كانت عين الاهالى والحكومة معا غافلة عنهم فيه وهكذا شأن الحكومات التى تسهر على مصالح أهليها التى هى عين مصالحها لطف الله بنا كما لطف بهم وأرانا مافيه خيرنا ووفق حكومتنا السنية لارشادنا ومساعدتنا الى مافيه نفعنا فان ذلك ليس بعزيز عليه تعالى كما انه لم يكن بالمستحيل علينا أن نفطن الى هذه العوامل الاجنبية التى ماوفدت على بلادنا الا لتمتص دماءنا ونحن فى غفلة عنها بل في ارتياح منها .

وفى هذه المدينة كثير من المدارس الابتدائية والكلية ومدارس للصناعة وللتجارة والفنون الجميلة وبها مجلس علمى أنشئ سنة ١٨٦٥ وفيها جمعيات للعلوم الطبيعية والحقوقية والزراعية والتجارية وبها كثير من الآثار الجميلة خصوصا الكنيسة الكبرى وهى قليلة الزخرفة من الخارج على شكل كنائس الاقباط عندنا لانهم على مذهب واحد (المذهب الارثوذكسى) وبها نور الغاز والكهرباء ويؤتى بماء الشرب اليها من نهر دينسبر بواسطة آلات رافعة وضعت عليه سنة ١٨٢٣ وفى هذه المدينة مركز شركة البواخر الروسية .

أما ابنيتها فهى افرنكية تميل فى ظاهرها الى الطراز الشرقي وأغلبها من ذات الطبقتين وشوارعها منتظمة فى تخطيطها كل الانتظام وان كنت تراها على الدوام بين صعود وهبوط بل عروج وسقوط والاشجار على جانبيها مما يدلك على شدة حرارة هذه المدينة فى مدة الصيف وأرضها مرصوفة

بالحجارة رصفا غير منتظم بمعنى ان عجل العربات يصطدم على طول سيرها مع قطع الحجر أو الزلط التى تبرز من سطح الطرق فالسير فيها على الاقدم متعب لعدم استواء أرضها وهو فيها بالعربات أكثر تعباً .

أما ميناها فهى من أكبر مين الدنيا وهى حرة للتجارة من سنة ١٨١٧ وحركة السفن فيها بين شراعية وتجارية تفوق الوصف . وصادراتها الحبوب وغاز البترول والسكر والخمور والصابون والحديد والجلود والصوف والغزل والمنسوجات الكتانية والقطنية والزجاج . وعلى الخصوص الدقيق الذي يعرفه المصريون لاسيما الاسكندريون وهو من أكبر عوامل كساد تجارة الغلال في مصر .

أما أهلها فاغلبهم من الروسيين وهم طوال الاجسام عظيمو الخلقة تنوء سيقانهم تحت حمل أثقال جذوعهم ووجوههم يلوح عليها الرزانة والذكاء .

وأخلاقهم فيها هدوء تام بعظمة فى أنفسهم وثقة بمستقبل سعيد في أيامهم ويقين من كونهم أكثر عصبية وأعظم قوة وأوسع أملا كا من باقى سكان المعمورة فتراهم يمشون مرحا مع التؤدة التامة بهذه الاجسام الهائلة وقد كادوا يخرقون الارض أو يبلغون الجبال طولا حتى يتخيل لك انهم يتكلفون المشى في نشاطهم كانهم يريدون ان يجعلوا لهم فى بطء سيرهم من الزمن مايستعملون فيه أفكارهم التى تعلق بابرازها الى حيز العمل ماتراه فيهم من تلك الارادة القوية . واعتقادهم فى دينهم قوي جدا حتى لاترى أحدهم يمر أمام أية كنيسة من كنائسهم صغيرا كان أو كبيراً عزيزا أو حقيراً الا وهو ينحنى امام عظمتها وشفتاه تلعب بشئ من صلواتهم ويده ترسم على صدره صورة الصليب وهذا أكبر دليل لك على قوة دينهم التى نشأت عنها قوة رابطتهم القومية وعصبيتهم

الجنسية وخصوصا وقدتوحدت عندهم السلطة الدينية والملوكانية فى شخص القيصر .

ونساؤهم أشبه شئ برجالهم من حيث السير والحركة وان كن أضعف منهم أجساما وأحلاما وهن منهم فى ذلك على نسبة المرأة الشرقيـة من بعلها ولـكنهن ابتعدن عن الخلاعة والدلاعة وسرن فى طريقهن بعظمة القاهر وكبرياء القادر ومن يتدللن منهن فانما يقلدن فيه حليفاتهن من الفرنساويات وان كن فى تقليدهن اياهن أقل بكثير ممـا يقلدهن فيه بعض شبانبا الذين لم يأخذوا من التقليد للافرنج الا بالطرف الذى يهين ويشين . لا بما ينفع ويزين . وملابسهن بسـيطة جدا وهى على الطـراز الشرقى ( جلاليب أوما فى معناها ) أوالطراز الافرنكى في الغالب .

أما البوليس عندهم فهو فى غاية التحفظ والتيقظ وخصوصا على الحدود فانه لايدع ماراً أيا كان يدخل اليها الا اذا كان حاملا تذكرة محررة من وكيل الدولة الروسية فى الجهـة التى قام منها مكتوبا فيها اسمه وجنسيته ووجهته ومدة اقامتـه بها والغرض من قدومه اليها ولا يكفى فى ذلك البسابورت الذى يستخرجه المسافر من حكومته ممـا ليس له لزوم بالمـرة فى جميع حكومات أوروبا اللهم الا فى بلاد الدولة العلية ورومانيا وكذلك فى البوسنه والهرسك الآن ممـا لاتراه فى حكومة النمسا نفسها المحتلة لهما على ان جميع هذه الحكومات الاخيرة لم تكن فى تحفظ الروسيا وتدقيقها وتحقيقها .

وربمـا كان البوليس عندهم من أحسن بوليس الدنيا تيقظا ونظاما وهو يتخلل كل جهات المدينة والبوليس السرى فيها كثير جدا حتى انه ربمـا يتخيل لك أن الناس كلهم جواسيس على بعضهم وأصحاب اللوكندات ليسـوا الا عبارة عن

عيون ترمق جميع من ينزل بها من الاغراب وربما فتشوا أمتعتهم بصفة سرية فاذا اطلعوا من أحدهم على مايشتبه فيه من أوراق سرية أوأسلحة أو غيرها سارعوا باخبار الحكومة بطريقة مستترة فيأتى رجالها ويقبضون عليه بعد التحقق من أمره من غير أن يعلم ان اللوكندة لها يد فى ذلك .

ومع كل هذا فانك ترى ضباط البوليس منتشرين فى اللوكندات بعضهم بصفة انهم نازلون فيها والبعض الآخر يمضون ليلهم ونهارهم بين غدوّ ورواح منها واليها بقصد زيارة اخوانهم ظاهراً والتجسس باطناوفعلا .

وعلى كل غريب وصل الى أي مدينة من بلاد الروسيا ان يتوجه تواً الى ادارة البوليس ويريه بسابورته ويخبره بالايام التى يقيمها فيها وفي أي مكان يقيم فيؤشر على بسابورته بذلك فاذا انقضت هذه المدة وأراد أن يطيلها توجه اليها وأعلنها بارادته وبالمدة التى يرغب أن يسمح له بها ويكتب كل ذلك على البسابورت ويحفظ بادارة البوليس ويعطي اليه تصريح بذلك يسمي بتصريح الاقامة فاذا انقضت هذه المدة توجه الى الادارة المذكورة وسلمها تصريحها وأخذ منها ورقة مروره بعد ان يكتب عليها الجهة التى يقصد التوجه اليها ويصدق عليها منها وان مضت تلك المدة ولو بيوم واحد ولم يتوجه اليها سقط حقه فى استرداد البسابورت وأمضى حياته بهذه البلدة كأنه منفىّ فيها لايستطيع الخروج منها أبداً لانه ليس معه تذكرة مروره ولايجد أمامه من يشغله ولا من يؤويه أويطعمه ان نفد ماله وهو في أثناء ذلك كله مرموق بعين العسس التى لاتنام عنه محاط أينما سار وحيثما أقام بعوامل التضييق والتشديد الى أن يقضى الله به أمراً كان مفعولا .

وحكومة هذه البلاد استبدادية لادستورية والقانون والدستور هو

ماقال الامبراطور .

ومديرو ولاياتها ومحافظوها بأيديهم السلطة الدينية والسياسية والقانونية والمالية والادارية بما فيها البوليس ولذلك فهم مطلقو السلطة عظيمو الرهبة والهيبة وجميع هؤلاء الحكام من رجال الجندية فترى الوالي مشيرا والمدير فريقا ووكيله لواء وهكذا حتى انك لترى مستخدمى السكة الحديدية كلهم من الجنود درجاتهم على حسب درجات مراكزهم ووظائفهم حتى اذا وقعت البلاد فى حرب انقلبت سككها الحديدية الاهلية ( فى زمن السلم ) عسكرية في ذلك الوقت وأمن عليها من الارتباك خصوصا بتغيير المستخدمين الملكيين بغيرهم من العسكريين الغير المتمرنين على أشغالها مما يؤدى الى ضرورة التأخير وعدم النظام فى العمل كما حصل فى حرب فرنسا الاخيرة مع المانيا. والحكومة تضيق على الاهالى كثيراً بتعسسها وتجسسها على أحوالهم وتقييدها حريتهم القولية والتحريرية حتى أنها لاتسمح بصدور أي عدد من جريدة مهما كانت الا بعد قراءة مايكتب فيها فى إدارة المطبوعات ومحو مالا تراه موافقا لمشربها منه . وكذلك جميع المطبوعات من كتب وجرنالات تردها من الخارج فانها يؤتى بها من البوسطة مباشرة الى هذا القلم وبعد فحصها وبحثها ترسل لاربابها ان لم يكن بها شئ يمس الحكومة الروسية والا حفظت به من حيث لايعلم بها أصحابها أوقطع منها كل مايمس هذه الحكومة وأرسلت اليهم بتراء أوطليت الورقة المكتوب ذلك فيها بطلاء أسود لايمكن أن تقرأ معه عبارتها أبدا.

ولا شك أن هذا التقييد المطلق مقيد لسرعة تقدم القوم فى مدنيتهم ولذلك فان معلوماتهم قليلة وصناعاتهم منحطة وانما وصلوا الى ماوصلوا اليه منها بما فيهم من الاستعداد الطبيعى وقوة الارادة . وفكرة الحكومة الروسية

فى عدم اباحة الكمال العلمى ونشره بين افراد رعيتها انما هى لشدة خوفها من نتيجته التى هى اكبر مؤثر على انتقال الناس الى حالة تمكنهم من تغيير النظام وقلب الاحكام واسقاط الحكومات والحكام وكانت حليفتها الآن فرنسا اكبر معلم مرشد لها فان حكومتها الامبراطورية والملوكية لم تتقوّض أركانها ويهدم بنيانها الا بيد العلماء والخطباء فرغبت حكومة القيصر أن تجعل لها من سلطة جهل بنيها عليهم اكبر ساعد وأقوى نصير . ومن ذلك أظنك لم تسمع معى لحد الآن بأحد(١) من الروسيين قد اشتهر بعلم أو ذكر باختراع أو نشر اسمه بخدمة عامة للانسانية .

أما جنديتهم فليست من الترتيب على مايرام ولقد شاهدت استعراض فرق منها مرسلة الى حرب الصين وهم كالوحوش لانظام ولاهندام: أجسام ثقيلة وحركات بطيئة وملابس قذرة ولم أر فيهم من شئ عظيم . سوى رهبة عددهم الجسيم . وأبهة ملكهم الفخيم . ولقد كان فى عزمنا ان نتوجه الى مدينة سواستيپول قصبة بلاد القرم للتفرج على حصونها وقلاعها فهاج علينا البحر الاسود الى الحد الذى لم يتمكن الناظر اليه من الشاطئ ان يري ماءه أوسماءه فعزمنا على الرحيل آفلين من هذه المدينة بعد ان أقمنا بها يومين الى بوخارست من طريق آخر ومن هذه الى بودابست .

---

(١) اللهم الا فى هذه الايام الاخيرة التى حملت الينا فيها التلغرافات العمومية والجرائد الاوروبية اسم ذلك الكاتب الروسي الشهير وهو الكونت ( تولستوئي ) الذى اضطهدته الحكومة الروسية كل الاضطهاد لما شاهدت من حدة أقواله وسمعت من صرير قلمه تلك الحرية التى ينشدها القومه . وقامت من أجل ذلك قيامة التلامذة وطلبة المدارس من كل فج فى المملكة الروسية ضد الحكومة التى قابلتهم بتلك القسوة الهائلة والمعاملة الشديدة حتى ان كثيرا منهم ذهب ضحية كفاحه ومقاومته لنصرة العلم والحرية .

فركبنا قطار السكة الحديدية الساعة السادسة مساء قاصدين جهة الجنوب الغربى فوصلنا محطة رودنى الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالى وهى مدينة صغيرة على نهر الطونه فانتظرنا بها الى منتصف الساعة السابعة مساء ثم ركبنا منها أحد وابورات النهر البخارية التابعة للحكومة الروسية صاعدين على النهر الى الشمال الغربى. وكنا فى أثناء سيرنا فى أرض الروس ورومانيا نرى قطعانا من الأوز المنزلى كما كنا نرى مثلها من البط فى بلاد المجر تغدو وتروح وحدها بين المساكن والمزارع . وما زلنا سائرين وبلاد رومانيا على يميننا وشمالنا وهى بين مزارع وغابات صغيرة ومستنقعات كثيرة حتى وصلنا الى مدينة غالتس فى مبدإ الساعة التاسعة وهى على الضفة اليسرى للنهر ومن أشهر مدن رومانيا وعدد أهليها سبعون ألفا وبها ترامواى كهربائى وابنيتها صغيرة جدا وهى من ذات الدور الواحد أو الدورين على الاكثر وشكلها شرقى لولا سقفها المائلة وبعضها من الخشب والبعض الآخر من الحجر الا أن شوارعها غير منتظمة وعربات الركوب فيها رديئة جدا وسحنة أهاليها تلوح عليها البهيمية ولم نمكث بها الا ريثما قطعناها بسرعة العربات من جهة الى أخرى لنأخذ (١) قطار

(١) قطارات السكة الحديد فى رومانيا والروسيا من أدنى أمثالها درجة وأحطها منزلة وأقلها نظاما وهي بمنزلة قطارات خط شبين الكوم وفاقوس من مصرنا لولا انك ترى مكتوبا على جدر عربات الاولى من الداخل هذه العبارة « الرجاء عدم البصق على فرش العربات وعدم توسيخ جدرانها وتشويه طلائها » ومن هذا تعلم من هم المسافرون فى هذه الخطوط عادة وماهي حالتهم .

أما القطارات باوروبا فى غير هاتين الحكومتين فهى فى غاية النظام وعلى الخصوص فى حكومة البلجيكا وهي فى عمومياتها لا تزيد كثيرا فى حالتها ونظامها وهيئتها عنها بين الاسكندرية ومصر لولا أن بها عربات مخصوصة للمدخنين لا يمكن التدخين فى غيرها ولا يخفاك مافي هذا من راحة غير المدخنين من المسافرين .

السكة الحديدية الذى قام فى الساعة العاشرة ووصل بنا الى بوخارست فى الساعة السادسة صباحا . فقضينا بها ليلة ثم تركناها وعدنا الى بودابست . وريثما استرحنا بها من عناء هذا السفر الاخير قصدنا تريستا وركبنا منها احدى بواخر المساجرى قاصدين وطننا العزيز من طريق آخر غير الذي أتينا منه فأخذنا طريق بيرا ومنها الى مصر . وأول محطة رست عليها سفينتنا هذه هى مدينة برندزى التى هى احدى مين أوروبا المشهورة بل هى أقرب مدينة بين أوروبا الغربية وبلاد الشرق ومنها واليها صدور وورود البوسطات التى برسم أوروبا الغربية والوسطى والتى منها الى الشرق . وبينها وبين تريستا يومان بالبحر .

## الرسالة التاسعة

### برندزى

وهذه المدينة واقعة فى الجنوب الشرقى لايطاليا على مبدإ البحر الادرياطيقى وقد كان لها مركز كبير سابقا حيث كانت المينا البحرية بين الرومان واليونان وفيها للآن آثار طريق واسع قد اختطه الرومان منها الى مدينة رومه وقد كان خاصا بمرور الجنود التى ينقلونها اليها ومنها الى البلاد التى يريدون فتحها أو حربها .

ولم تزل أهمية هذه المدينة الى القرن الثالث عشر وقد بلغ عدد سكانها الى ستين ألفا ولكن قد اضمحلت حالها حيث انقطعت عنها المواصلات التجارية وغيرها وأصبحت كبقية القرى الصغيرة الحقيرة التى بجوارها ولم تدب فيها روح الحياة نوعا الا لما تقرر جعلها المركز التجاري بين بلاد الانكليز والهند وتبع ذلك بوسطات المشرق وعدد سكانها الآن يبلغ سبعة عشر ألفا .

ولما كان الوابور الذي كنا عليه يقف في ميناها نحوست ساعات نزلت اليها على سبيل رؤية ابنيتها ومبلغ عمرانها وناسها فما هو الا أن نزلت الى رصيف المينا الذى رسا عليه وابورنا حتى أحاطت بى سلسلة تأملت جيدا فى حلقاتها فلم أجد الا أوباشا من الطليان ذوى هيئة كئيبة وسحنة مخيفة وملابس رثة وبرانيط معوجة على رؤس تشف عن غباوة تامة والكل يتكلمون معى في آن واحد بألسنة مضطربة وعبارات مختلفة فهذا يسألنى عما أريد وغيره عما أشتهى وسواهما يقدم الىّ صورا جميلة ومنهم من عرض علىّ ... فلم أر الا الاعراض عنهم وصرخت فيهم فتفرقوا من حولى وسرت حتى تركت الرصيف فرأيت شارعا واسعا وهو أهم شوارع المدينة ويقال له شارع همبرت (اسم الملك) وهو الموصل الى محطة السكة الحديدية فسلكته فرأيت به الدكاكين والمغازات والقهاوى العمومية والمنازل التى عليه ليست مهمة في بابها والناس فيه تمثل لك صورة الفقر والفاقة فترى هذا حافي الرأس أو القدم وغيره يكاد ان يكون عريانا والغالب منهم يتسول أو يتلصص فى طريقه وان كان في يدك عصا أو شمسية يسألك حملها لك وليس فى تلك القهاوى البسيطة الكئيبة التى لم تكن الا عبارة عن دكاكين وضع بها عدد من الكراسى والترابيزات الخشب سوى بعض النساء أو الرجال والكل فى أسوإ حال .

فعنّ لى ان أشتري شيئا فدخلت دكانا أشبه بدكاكين الريف عندنا ( وهو من أحسن دكاكينهم ) وبعد ان أطلعنى صاحبه على ما أريده وأخبرنى بثمنه قلت له ان أردت ان تبيعنيه بنصف ماقلت أخذته والا فلا فقال لا بأس خذه وانقدنى ثمنه . ومن ذلك تعرف انهم هناك يساومون فى مشترواتهم ومبيعاتهم التى يكثرون من الالحاح على المشترى ترغيبا له فيها كبلاد الفلاحين عندنا . وفى هذه المدينة

لوكندة واحدة على البحر لاحركة بها تقريبا لان السياح الذين يقصدون السفر من أوروبا أو اليها من طريق هذه البلدة قليلون جدا وذلك لعدم نظام الطرق الحديدية فى ايطاليا وعدم أمن المسافر فيها على متاعه وتضييق الحكومة على المسافرين فى التفتيش عليهم أملا فى عثورها على ماتأخذ عليه جمركها المشهور بشدته فى بحث الامتعة وكثرة الرسوم التى تؤخذ عليها .

وفى الميعاد المحدود قامت بنا مركبنا قاصدة الشاطئ الشرقى من البحر الادرياطيق فوقفت على مينا ايابسرندا ( سرندوس ) والاروام يسمونها سنت كواره وهى اسكلة تركية فى بلاد الارناؤود المشهورة باسم ألبانيا يسافر منها أهل هذه البلاد أو بلاد الجبل الاسود المشهورة باسم قره طاغ وهى مركبة من لفظتين تركيتين قره ( اسود ) وطاغ ( جبل ) .

وهذه الاسكلة ليست الاعبارة عن رصيف صغير للفلائك فقط من ورائه بناء لجميع عمال الادارة والجمرك ومن حوله بعض العشش التى يسكنها الفلائكية وبجوارها مكان قديم مهدم من عهد الحرب التركية اليونانية الأخيرة فان اليونان لما انهزموا فى دومكو وما بعدها غلت صدورهم حنقا على الاتراك وأرسلوا دونمتهم الى تلك الجهة سنة ١٨٨٤ فقذفت عليها خمسة وستين قنبلة فأخطأت كلها الغرض الا واحدة منها أصابت المنزل المذكور فحطمته من احدى جهاته ثم أنزلوا فيها عساكرهم ولما لم يعرفوا الى أي طريق يلقون بأيديهم فى هذه البلاد التى قدلفظتهم اليها سفنهم وفكروا في شدة آلها وبطش رجالها التى ترتعد فرائصهم من مجرد ذكرهم . استولى عليهم الخوف والرعب وعادوا الى مراكبهم وركبوها الى حيث حبسها الاتراك وأغرقوا بعضها فى خليج بريفيزا مما هو معلوم فى تاريخ هذه الحرب التى دارت

عليهم رحاها . وحلت بهم بلواها .

وفي هذه المينا حركة تجارية مهمة والتجارة التي ترسل اليها والسفار الذين يقدمون عليها تحمل على بغال أوخيل يستأجرونها الى الجهة التى يريدون التوجه اليها وأهم جهة قريبة اليها هى مدينة اسكودره وهى قصبة ولاية تركية تسمى باسمها وتبعد عن هذه المينا يومين على البغال . فى درب مطروق فى الجبال .

ولقد نزل الى مركبنا من هذه الاسكلة كثير من أهل القره طاغ ومن الالبانيين وكلهم تقريباً كانوا من ركاب الدرجة الثالثة فصعدوا بأمتعتهم الى ظهر الوابور وكان عليه كثير من اليهود واليونان وكان فيما بينهم بعض قاطنى مصر من الاروام المعروفين فينا بطول الباع وكثرة الشهامة وعرفت أحدهم وهو يقال بالعباسية فوالله ماهو الا أن صعد أولئك الوافدون وألقى كل برحاله حيثما وقفت به رجلاه حتى حمل كل من أولئك المحتلين قبلهم متاعه وهرب من وجههم الى مايقرب من بيت النار وبئس القرار . وتركوا لهم المحل خاليا والجوّ رائقا وكأنهم يقولون فى أنفسهم (ياجالسين الله يكفيكم شر القادمين) . فاندهشت لهذه الحركة ونظرت الى القادمين فوجدتهم كأنهم من الجان وهم وان كانوا أقل إزعاجا منهم فى هيآتهم الاّ أنهم أكثر شرا في غضبهم . وأهل الجبل الاسود يلبسون شبه بنطلون رجلاه ضيقتان تكادان تكونان ملتصقتين على سيقانهم وسلطة حمراء وشبه طربوش قصير من غير زر ملفوف عليه شريط أسود وأغلبهم مسيحيون والالبانيون يلبسون ذلك البنطلون بنفسه وسلطة سوداء أوبيضاء فى الغالب وطربوشا طويلا أولبدة بيضاء خفيفة من الشكل الذي يسميه فلاحو بلادنا (باللبدة الافرنكى) وجلهم من المسلمين . وهذان الجنسان وان اختلفا دينا الا أنهما اتحدا طبعا فترى فيهم لين الخلق مع الشهامة

الكاملة حتى ان من يقصدهم بشر ولو بكلمة واحدة تشعر باهانة خفيفة فلا يجد منهم جوابا عليها سوي سكين مسلولة أو غدارة مصوبة نحو مقتله وهم أسرع من اليونانيين عندنا فى ذلك الا أنهم لاجبن فيهم ولا يترددون فيما يقصدون . ولكل من النوعين لغة خاصة به بين الصربية والبلغارية ويتكلمون باللغة التركية لداعى تبعية أحدهما للدولة العلية وسابقية تبعية الآخر لها . وقد ظهر لى من تكأكئهم على بعضهم ومن خشونة مأكلهم ومشربهم وجشوبة ملبسهم وعدم نظامهم فى حديثهم ومجالسهم ونومهم أنهم كالبدو في جميع أطوارهم لا ترتيب ولا مراعاة لقواعد مخصوصة فى ذلك كله فترى فى مجالسهم هذا نائما وذلك قائما وغيرهما مضطجعا ومن بينهم من يأكل أو يدخن والكل يتكلمون معاً ونساؤهم ينزوين الى جانب وحدهن . وهم أبعد عن الاعراب من أن يكونوا تحت أية سلطة نظامية وهذا طبع فيهم أبدىّ وأظنك سمعت به وقت حرب الدولة العلية الاخيرة مع اليونان اذ لولا عدم نظامهم فيها لكانت رجال الدولة المحروسة قبضت من غير شك على ولىّ عهد الحكومة اليونانية الذي كان القائد العام لجيوشها فى هذه الحرب .

وكانوا يغنون فى كثير من الاحيان وأغانيهم حماسية وهى أشبه بأغانى مراكبية الصعايدة عندنا تماما فى نغماتها وضربها لا يفهم منها الا أنها صوت من الاصوات .

وكلهم صغيرهم وكبيرهم يحملون السلاح وربما كانت نساؤهم تحمله أيضا لانى لم أتمكن من رؤيتهن لشدة ماضربن به عليهن من خمرهن .

وجميع هؤلاء كانوا يقصدون الاستانة طلبا للرزق بها حفظها الله كعبة للاسلام على مدى الايام وملجأ لكل يائس بائس .

## ﴿ مدينة كورفو ﴾

ثم وقفنا فى مياه هذه المدينة وهى مدينة كبيرة يبلغ عدد سكانها أكثر من عشرين ألفا وبها رصيف صغير على البحر بجواره حمام بحرى الا أن السفن لا ترسو عليه بل تقف بعيداً عنه بنحو نصف كيلومتر فتنتشر الفلائك حولها مما لا يحصى عدده لنقل الركاب والبضائع الى البر أو منه اليها وأهل هذه المدينة يظهر أنهم فقراء فان أغلبهم من الفلائكية وبعضهم يصعد الى السفينة للتسول أو التلصص ومنهم من يبيع التبغ أو العصى الخشب التى يرسم فى يدها صورة حيوان بالحفر وهكذا مما لا قيمة له . وأبنيتها جميلة على الطراز الغربى وترتفع الى ست طبقات وهى مبنية على سفح جبل ومدرّجة عليه مما يكسبها شكلا جميلا وفيها سراي الملك وهى التى كانت بنتها الانكليز مقرا لمدير الجزيرة وعلى جانبها الغربى طابية متصلة بالمدينة وفى الجانب الشرقى جزيرة صغيرة فيها قلعة وقشلاقات للجنود ابتنتها الانكليز أيضا يصلها بالمدينة كوبرى متحرك وفى مياهها غالبا ترسو الدونانمة اليونانية .

وهذه المدينة هي عاصمة جزيرة كورفو المشهورة قديما باسم كورسيرا ولهذه الجزيرة أهمية عظمى فى موضعها لانها فى مدخل البحر الادرياطيقى بل هى مفتاحه الوحيد ولذا كانت تتلقفها الدول فكانت لليونان ثم أخذها الرومان ثم الفنيقيون ثم النورمانديون ثم الاتراك ثم الفرنساويون الذين لم يتركوها الا سنة ١٨١٤ بعد أن أقاموا فيها أكثر من عشر سنوات ومن ثم كوّنت هذه الجزيرة مع ست جزائر أخرى حكومة تسمى جمهورية جزائر الارخبيل تحت حماية الدولة الانكليزية الى ان تنازلت الانكليز عنها الى ملك اليونان سنة ١٨٦٣

وهذه الجزيرة تبعد عن برندزى بنحو ١٢٠ كيلو مترا وعن أراضى ألبانيا بنحو عشرة كيلومترات ومساحتها تبلغ ١٠٩٢ كيلو مترا مربعا وعدد سكانها ١٦٥ ألفا ويغرس بها البرتقال واليوسف افندى والكرم والتين والزيتون كما تزرع بها الذرة والشعير والقمح وجوها كثير البرودة فى الشتاء شديد الحرارة فى زمن الصيف .

وبعد ان وقفنا فى مياهها نحو ساعتين سار بنا الوابور حتى وقف بنا فى مياه بتراس وهى مدينة كبيرة أبنيتها على شكل قوس على ميناها ويكتنفها الجبل من شرقيها وتنتهى من جهة البحر برصيف المينا الذى لا ترسو عليه السفن الكبيرة ومن هذا الرصيف يمتد رصيف آخر عرضه نحو عشرة أمتار داخلا فى البحر عموديا عليه الى مسافة مائة متر تقريبا وفى نهايته فنار صغير يوجد بأسفله قهوة تحيط بها كراسى وطرابيزات وأظن هذا المكان هو المحل الوحيد لنزهة القوم في الصيف .

أما المبانى فليست بذات أهمية وهي شرقية لولا انها تميل كأهلها الى الالتصاق بالغربى من حيث ميل سقفها على انها لا نظام بها لانك ترى منها الكبير والصغير والحقير والفخيم وكلها بجوار بعضها وطبقاتها تختلف من واحدة الى أربع وهى المينا الغربية لبلاد اليونان وبينها وبين أثينا عاصمة البلاد ١٧٠ كيلومترا يقطعها وابور السكة الحديد فى خمس ساعات ويرسو على هذه المينا مراكب البوسطة التى لحكومة اليونان وغيرها من البواخر الاوروبية التى تسير من موانى أوروبا عن طريق القسطنطينية وأودسا أما المراكب الشراعية بها فعددها فوق الحصر .

وهذه المدينة قديمة جدا ولها ذكر فى التاريخ القديم وعدد أهلها الآن يبلغ ٣٥ ألفا ولها تجارة مشهورة فى الزبيب والرمان والبرتقال والليمون ولقد

استولى عليها الترك فى سنة ١٧٧٠ ثم أخذها الفرنسويون سنة ١٨٢٨ ومنحوها نعمة الاستقلال الا أنه لم يدم كثيراً حتى انضمت الى حكومة اليونان وهى الآن رأس مديرية من مديرياتها وبها آثار رومانية ويونانية .

ثم بعد ان أقمنا بها بضع ساعات أقلعنا منها الى مياه بيرا وهى مدينة كبيرة أشبه في وضعها بالمدن المصرية من بعد وهى تبعد عن القسطنطينية بمسافة ٣٦٠ ميلا وعن ازمير بمسافة ٢١٠ أميال ولها خليج كبير يمتد عليه رصيف ميناها من الجهة الجنوبية الشرقية تتلوه الابنية على هيئة قوس عظيم وفيها أبنية كثيرة ملطخة بالطين مما يدلك على فقر أهليها . ويبلغ عدد سكان هذه المدينة ٣٥ ألف نفس وتبعد عن أثينا بنحو ثمانية كيلومترات وهى قديمة جدا ولكنها بما تكون قد أخذت فى عمران جديد لاهمية موضعها وحركة التجارة بها ولكونها هى الميناء الشرقية لبلاد اليونان . ولما كان من الضرورى انتظارنا بها الوابور الذي يقلنا الى مصر نزلت اليها بفلوكة وطفت في شوارعها فوجدت الجديدة منها مخططة تخطيطا جيدا وبيوتها جديدة ومتوسطة والمصريون اكثر الناس معرفة بأخلاق هؤلاء اليونانيين الذين يطلق عليهم اسم الاروام عندنا . ولقد رأيت الوشم ( الدق الاخضر ) شائعا عندهم في ايديهم وعلى صدورهم « كما رأيته شائعاً في رومانيا على الجهة الانسية للساعد ( باطنه ) ورأيت شيأ منه فى بلاد الروس والمانيا » وربما كان ذلك غير ممقوت فى نظرهم كما هو ممقوت فى نظر الكثير من المصريين .

والقوم فى غاية الفقر المدقع الذي قعد بهم عن العمل فتراهم كلهم أوجلهم لا عمل لهم الا التشرد فى الشوارع أو الجلوس على القهاوى وهم حفاة في الغالب يكادون أن يكونوا عراة فتذكرت حالتهم فى مصر وكيف انهم

يهربون اليها فيكرمهم أهلوها ولا يمضى عليهم الزمن اليسير حتى يكونوا اكثر الناس ثروة وأعظمهم جاها فينسون ما كانوا عليه وماوفدوا به الى هذه البلاد من الذلة والحقارة والهوان ويستبدون بخلق الله وينتقمون من الزمن الذي كان ألصقهم ببلاط أرض بلادهم فى شخص المصريين الذين أكرموهم وأغنوهم من فضلاتهم وأسعدوهم من جوارهم ومع ذلك كله ففيهم من القسوة عليهم مالا يمكن وصفه فانهم لا يحسنون الى فقرائهم ولا ينظرون اليهم بشئ مما أخذوه منهم سواء بحق أو بغير حق . وعساك تتذكر المثري الشهير أوثوروف الذى مات بالاسكندرية وترك من الأموال ماترك وكتبها كلها الى خيرات بلاده وبنى قومه ولم يتذكر أولئك المصريين الذين جمع ثروته من دمائهم بل ولم يفتكر هذه الارض المصرية التى ضمت جسمه فى حياته وبعد مماته بشئ من هذه المبرات يكون أثرا فيها من بعده تحمده عليه مصر والمصريون . ثم أقلعنا من مياه هذه المدينة ميممين وطننا العزيز فمررنا شرقى جزيرة كريد وهى تبعد عنها بمسافة ١٩٥ ميلا ولم نزل سائرين حتى وصلنا قبيل ظهر يوم ٢ سبتمبر الى مياه الاسكندرية بسلام .

## ﴿ التبغ (الدخان) والمشروبات الروحية بأوروبا ومصر ﴾

التبغ كثير الاستعمال بأوروبا والقوم بالنمسا يدخنونه كثيرا خصوصا فى چبقات يبلغ طولها نحو ٤٠ سنتيمترا كثيرة الانحناء من أعلاها وهو شائع عندهم فى الرجال والاطفال وخصوصا الطبقة السفلى منهم والطبقة العليا تدخنه غالبا فى السيجار أو السيجارات وكذلك أهل ألمانيا والبلجيك الا ان چبقاتهم قصيرة ولقد رأيت كثيرا من البلجيكيين يمضغونه كالبدو والبرابرة عندنا الا

انهم لا يأخذون معه الملح الذى يسمونه بالنطرون . وفى فرنسا يدخنون السيجارات فى الغالب والدخان يردها من بلاد الغرب والنشوق شائع عندهم حتى انى مذ كنت بالمعرض رأيت أحد رجال البوليس يحادث سيدة فقدم لها علبته فأخذت جانبا منها وسحبته الى خياشيمها من غير ان يعطسها فأخذت من ذلك أنها معتادة عليه الا ان التدخين على وجه عام من معايب النساء فى أوروبا وهو جريمة لا يغتفرها لهن التمدن الحديث وأنعم بها من مدنية صادقة .

والتبغ المستعمل فى أوروبا رديء جدا بحيث انك لا تستطيع استعماله وهو أشبه شئ بتدخين التبن ولذلك فان الدخان المصرى عندهم غال جدا وهو من أحسن ما يهدى اليهم فان الخمسة والعشرين سيجارة منه التى يبلغ ثمنها فى مصرنا قرشين صاغا ثمنها هناك خمسة فرنكات أو اكثر وذلك لارتفاع قيمة الجمارك التى تؤخذ عليه خصوصا فى ايطاليا التى تأخذ على الكيلو الواحد ما يقرب من عشرين فرنكا وفرنسا لا تقل عنها فى ذلك الا شيأ يسيرا وكذلك باقى ممالك أوروبا لا سيما بلاد الانكليز .

أما سويسرا فانها أكثر الجميع اعتدالا في ذلك ولذا فالدخان المصرى اكثر شيوعا فيها وأقل ثمنا منه فى كل أوروبا .

والسجاير الرومانية والروسية مع شهرتها تراها أقل قيمة وثمنا من السجاير المصرية والروسية منها غالية جدا حتى ان العشرين سيجارة الرفيعة التى نصفها من الورق والنصف الاخر من الدخان تساوى ثلاثة فرنكات وجميع أنواع السجاير الاوروبية ليست محكمة اللف مثل المصرية .

وكل صنوف الدخان الافرنكى من سيجار وغيره تراها فى مصر أرخص منها فى بلاد أوروبا وذلك لاحتكار حكوماتها اياها حتى ان السجاير التى تباع

هنا بقرش تعريفة لا يمكنك أخذها هناك الا بنصف فرنك والكبريت فيها غال جدا وخصوصا فى فرنسا فان العلبة الواحدة يبلغ ثمنها فيها أكثر من عشرة أمثالها بمصر لاحتكار الحكومة له أيضا . أما الشيشة فانى لم أر هناك استعمالها مطلقا على ان الافرنج شعروا الآن بما يعتري البنية الصحيحة من الفساد والتسمم من كثرة استعمال التبغ واخذوا ينصحون ويصيحون بالتباعد عنه ويعددون البلايا والمضار التى تنجم منه .

ومع كل فانك ترى المصريين يتهافتون على شربه كبارهم وصغارهم حتى اعتبره كثير من نسائهم الآن من متممات تمدنهن وقد يفقن الرجال فى استعماله .

وأما المشروبات الروحية فهى وان كانت عمومية عندهم لكنهم لا يستعملونها الا على قدر الحاجة اليها للاستعانة بها على برودة بلادهم والسواد الاعظم منهم لا يشربها الا على المائدة فالفرنساويون يشربون خصوصا نبيذ العنب والنمساويون والالمانيون يشربون البيرا والاروس مشروب يشبه البوزة المعروفة بمصر الا أن الجميع معتدلون فى شربها وعلى كل حال فربما كان القدر الذى ينفد من جميع صنوفها وأنواعها في أوروبا كلها يساوى ما ينفد منها فى مصر وحدها على ان الاوروبيين فطنوا الآن الى مضرة هذه المشروبات وقامت فيهم جمعيات كثيرة تنادى بعدم استعمالها بالمرة لما فيه من الضرر بالصحة أما نحن فمع استعمالنا لها في بلادنا الحارة التى لا تخفى شدة ضررها فيها فضلا عن تحريم الشارع لشربها نراها بالعكس من متممات التمدن الحديث حتى ذهب بنا الخبط الى الحكم على من لم يشربها منا بأنه ليس بمتمدن وهكذا شأن البلاد التى تسير القهقرى

يقضى على المرء فى أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

## ﴿ الحكومة والاهالى بأوروبا ومصر ﴾

ان هيئة الحكومات فى أوروبا سواء كانت الحكومة ملوكية أو امبراطورية أو جمهورية محترمة للغاية مادامت تعمل في صالح الاهالى والأمة راضية عنها ومعنى عملها فى صالح الاهالى ان ادارتها تكون منتظمة عادلة وسياستها سائرة على محور مستقيم ولذا فانك ترى مراكز الوزراء لاتعطى الا الى أكبر الناس عقلا وأمتنهم علما واكثرهم حزما وأعلاهم قدرا وأقواهم كياسة وأحسنهم سياسة فاذا أتوا بما ليس فى خير أمتهم انسحبت عليهم ألسنة الاهالى وأقلام كتابهم وطلب مجلس النواب إما اسقاطهم أو الاقتراع عليهم فان كان لهم فهم على حالهم وان كان عليهم استقالوا من مراكزهم وحلها غيرهم

والهيئة الحاكمة لاتتداخل بالمرة فى شؤن الافراد الخاصة بل تعمل للخير العام فتترقى الامة بعملهم ويرتفع شأنها على نسبة جدهم واجتهادهم وسهرهم على مصلحة البلاد والعباد

ومع هذا فان الامة نفسها لم تتنازل بأن تسلم للحكومة زمام أفرادها تقودهم به الى حيث تشاء وتختار ويكون منها بمثابة الآلة تحركها كيفما تريد ولكنهم يعملون معها على خيرها فترى الناس يجتهدون فى ترقية شؤنهم الخصوصية كل فيما هو ميسر له : فالنجار يفتكر فى ترقية صناعته والحداد لايألو جهدا فى تقدم حرفته والتاجر لايعمل الا فى ترويج بضاعته والزارع لايشتغل الا بتنمية زراعته والعالم لادأب له الا فى نشر معرفته والسياسى لايهمه الا نجاح سياسته ولذلك فانك ترى الواحد يعمل لنفسه وللكل فى

آن واحد واذاً فالكل يشتغل فى خير الكل من غير ارتكان على أحد منهم ولا على هيئة الحكومة فيهم حتى كأن كل فرد من أفرادهم في عمله حكومة وحدها مستقلة لاتربطها مع هيئة الحكومة سوى النظامات القانونية والاوضاع الرسمية التى بها حفظ كيان الرابطة القومية وذلك كله فى أحوال مخصوصة يكون الباعث عليها من الاهالى أنفسهم الاما كان يختص بجباية مال . أومايدخل فى الفائدة العمومية على كل حال .

ولذلك ترى الاهالى محترمين فى عين الحكومة حتى ان رأي الأمة وهو مايسمونه بالرأي العام له وحده كل التأثير في خطة سياسة الحكومة ونظام ادارتها وحفظ كيانها .

فالهيئة الحاكمة لاتهتم بمساعدة زيد على عمرو وانما كل اهتمامها فى ايجاد تلك المشروعات العمومية على ماتسمح به ماليتها فان قصرت عن ذلك ألقتها الى مابين يدي الامة . فسككها الحديدية وبواخرها التجارية وغيرها مما فى معناها ان لم تكن بيد الحكومة فانما هى بيد الشركات الاهلية أو الاجنبية (وقليلا ماتري ذلك فيها) ان لم تستطع الاهالى لها سبيلا . وكأنها أرادت بذلك ان تجعل للاهالى من أنفسهم مرغبا وهاديا الى مافيه خيرهم وما يعود عليهم نفعه . فيشب كل على العمل واستقلال الفكر وليس له من غير نفسه وازع ومرشد أمين فتكونت الشركات فى سائر الحكومات من أهليها . هذه للصناعة على اختلاف أنواعها وتلك للتجارة . وغيرها لترقية الزراعة والمعارف . ومن ذلك المدارس فانك تري الحكومات لها مدارس حسب ماتسمح به ميزانيتها ولكنها على كل حال لاتقوم بحاجة الاهالى وأغلبها من المدارس الابتدائية التى انما تربى فيها أولاد الفقراء والتعليم فيها على غير مايرام لذلك ترى الاهالى فيها وقد تكاثفت وتكاتفت

على انشاء مكاتب التعليم الابتدائى والثانوي والعالى ونظمته بترتيب يوافق مصلحتها ويكفل نجاح بنيها وهى عندهم تجارة من أكثر التجارات ربحا لما يعرف القوم من قدرها وجليل نتائجها مما أغفلناه فى بلادنا وحصل على الفائدة منه الجزويت والفرير والامريكان فيها على ماهم عليه من السياسة فى مقصدهم من تغيير الدين واضعاف اليقين ممن بين أيديهم من أولئك الناشئين ولولا أن هذه الفكرة اصبحت معروفة عنهم فى بلادنا لكانت مدارسهم أوسع نظاما واكثر طلابا وأسعد حظا مما هى عليه الآن .

وغاية مايراه الاوروبيون من مساعدة حكومتهم لهم انها ترشدهم الى مالم يخطر على فكرهم مما عساه يكون فى مصلحتهم أو تعيرهم يدمعونتها فى نشر الصناعة ورواج التجارة سواء فى دائرتها أو خارجا عنها . فتراها ترفع قيمة الجمارك على البضائع التى ترد من الخارج الى الحد الذي لايكون من ورائه ربح لاربابها وربما كانت فيه الخسارة عليهم فكسدت بذلك واردات الحكومات الاخرى وهذا هو اكبر عامل على ترويج تجارتهم وصناعتهم يعقبه بلا شك تقدمها وترقيتها ورفعة شأنها . وعدا ذلك فانها تساعد الاهالى على نشر أعمالهم فى الخارج سواء فى مستعمراتها أو فى غيرها وهذا هو الحرب المستمر بين الدول وبعضها .

أما عندنا فترانا على الدوام ناقمين على الحكومة لانا لانعرف لنا أما غيرها ولا مربيا سواها بل ولا ربا الا إياها فترانا نؤاخذها على الصغيرة قبل الكبيرة حتى اذا اشتكى أحدنا من وجع فى يده أوفى ضرسه منعه عن العمل أوالاكل فربما ألصق سببه بالحكومة ونقم عليها وسلقها بلسان أحد من الحديد القاطع .

ترانا على الدوام ناقمين عليها فى عدم انشائها معامل للصناعة أومدارس

للتجارة نلعنها فى كل ثانية على تضييق دائرة المدارس وحصر المواد التى تدرس بها فى حثالات علوم أوبقايا فنون أو قشور معارف لا تسمن ولا تغنى من جوع .

نظن أن لنا هـذا الحق فيما يختص بمستقبل أولادنا الذى نسميه على الدوام بالمستقبل المظلم . حتى كأن أولادنا اشترتهم الحكومة منا أووضعت قانونا يلزمنا بتعليمهم فى مدارسها ومنعت اشتغالهم بالصناعة التى يستمد منها العلم أبوابه .

اذا تحقق ماتقولون فيما بينكم وما تكتبونه فى جرائدكم مما يتردد صداه كل يوم فى جميع الاندية المصرية وغيرها فلم تضيعون وقتكم فى نقمتكم على الحكومة التى لا تعيركم أذنا ولا تقبل منكم رجاء ؟ ولماذا تترك تربية أبنائنا الى هذه اليد القاسية التى تقودهم الى حيث يكون الشر كل الشر على زعمنا ؟ ولم لا نتدارك أمرنا ونعقد الخناصر ويكون لكل منا من أخيه أقوى ناصر ونشيد مدارس تكفل الصلاح والفلاح لفلذات اكبادنا وتربيتهم فيها على القواعد التى تضمن لهم سعادتى المعاش والمعاد ؟ لم لا يجتمع تجارنا وأغنياؤنا وفلاحونا ويفتتحون معامل للصناعة ومدارس للتجارة والزراعة يربون فيها أبناءهم حتى ينشؤا أحرارا أخيارا يزاولون مهنتهم بترتيب ونظام وسعادة وسلام .

أما أنا فلا أقول بمؤاخذة الحكومة على نظامها التعليمى مهما ساءت حالته وهى لم تضيقه في وجه الاهالى ولم تقلل من مواده الا لما رأت من انهم يريدون ان يكونوا على الدوام عبيدا ارقاء لها باستخدامهم فى مصالحها حتى ان فكرتهم العمومية من حيث حياتهم المعاشية والادبية تنحصر فى خدمة الحكومة . ويرون ان ذلك انما هو منتهى السعادة والرفاهية . ترى الرجل منا يتوهم ان تعليمه وحسن تربيته لابنه الذى شب على فكرة التوظف في مصالح الحكومة لا ينتجان

نجحه الا اذا درج فى سلك موظفيها ولو بأخس الوظائف من حيث درجتها ولايكون له اعتبار ولا احترام الا بذلك بين من عرفه ومن لم يعرفه وقد فشا هذا الداء فى جميع الطبقات حتى أن الباشا أو البيك مثلا اذا تمم ولده الدراسة بالمدارس تراه يأخذ عربته ويقصد الدواوين ويمضى نحو سنة أو أكثر بين غدو ورواح من بيته اليها ومنها الى بيته مترجيا ملتمسا بل مستغيثا فى ايجاد وظيفة لابنه يشغل وقته فيها او بعبارة أخري يضيع أيامه الثمينة فى التشاغل بها فى نظير أجر زهيد لايقوم بنفقات ركوبته اليومية اليها .

ترى الرجل الفقير اذا أخذ ولده الشهادة الدراسية النهائية ولم يسعده الحظ بخدمته فى الحكومة يندب حظه ويطرد ولده قائلا انه قد خابت فيه تربيته وضاعت أيامه وسعادته وتأبدت شقاوته .

وحقيقة فانه يمضى أيامه من غير ماعمل لانه لايرى للحياة معنى الا في طريق التوظف ويكون عالة على أهليه طول حياته الشلاء وهو مع ذلك مسكين أى مسكين . لا تمر عليه لحظة الا ويندب فيها حظه ويبكى شبابه ويأسف على أوقاته الثمينة التى قضاها فى مزاولة العلم الذى يراه يضيع منه سدى على طرا بيزات القهاوى فان كان على النفس رفيع الهمة فربما تخلص من عيشته السوداء بالانتحار أو الالتجاء الى ديار غير هذه الديار .

ترى السيدة اذا قصدها أحد التجار المشهورين بالثروة والمال وحسن السير والسيرة وطلب الى والدها زواجها تشمخ بأنفها مع أهلها ويحتقرون هذا المسكين وليس ذلك لذنب ارتكبه أو لجناية اقترفها ولكن لكونه غير موظف فى مصالح الحكومة لا بفكرة أنه يخدم مصلحة الاهالى خدمة عامة ولكن ليقال الافندى توجه اليوم الى الديوان أو حضر منه أما اذا قيل توجه البيك الى الدكان فهى

جريمة لا تغتفر وحقارة ليس بعدها حقارة . هذا ياقوم سبب تأخرنا الى الحد الذي لا يمكن ان نرى لنا معه مدنية حتى بالمكر سكوب أو التلسكوب . وهذا ولا شك علة احتقار الحكومة للناس عموما وللموظفين خصوصا لانها اذا استغنت عن واحد من هؤلاء وجدت على أبوابها ألوفا يتمنون لو كانوا فى محله ويقومون بعمل أكثر من عمله بأقل راتب منه .

فعلينا اذاً أن نعلم ابناءنا العلوم والمعارف على انها مرشدة للخير وداعية للرشاد وهادية الى السعادة ومفتاح لابواب الرزق مهما تشعبت مسالكه واختلفت طرقاته . فيصبح الموظف عزيزا . والصانع متفننا . والفلاح عالما . والتاجر عارفا بدقائق تجارته وهنالك يسعد حظ المستخدمين منا . وينفتح امامنا باب الاختراع . وتقوم الفلاحة من حضيضها فى بلادنا وهى زراعية محضة كما تعلمون ويتسع نطاق التجارة بين الاهلين فيتبادلون معا ثروتها التى هى الآن فى أيدي الاجانب .

أفيقوا رحمكم الله من غفلتكم بل قوموا من رقدتكم ولا تقولوا الصيف ضيعت اللبن ولا تفتكروا ان الوقت قد فات بل مات فانما كل ميسر لما خلق له ومن طرق الباب دخل . ومن سار على الدرب وصل .

وان لكم اسوة حسنة فى بعض شبابنا العاملين الراشدين العاملين الذين تركوا خدمة الحكومة أخيرا الى مزاولة المحاماة أو التجارة أو الزراعة ممن يعدون على الاصابع وما منهم الا من عائلة شريفة قد جاهدها فى ابراز مشروعه الى حيز الوجدان فقد فتحوا لكم الباب جزاهم الله خير الجزاء .

## ﴿ الاهالى والمدنية عندهم وعندنا ﴾

كنت اذا سمعت لفظة أوروبا افتكرت انها عالم آخر غير عالمنا وناسها

غير ناسنا وأرضها غير أرضنا وسماؤها غير سمائنا وتخيلت انها اذا كانت مصدر العرفان ومحل نشأة العلوم والمعارف الحديثة ومهد الصناعات ومكان تلك القرائح التى أورى زندها عن هذه المخترعات التى تدهشنا بمرآها فتستطيل الاعناق منا الى مشاهدتها في مكان علاها وكنت مع هذا كله أحسب أن كل من أقلته تلك الغبراء وأظلته هذه الزرقاء فى الطبقة العليا من عالم الانسان اذا اعتبرنا أنفسنا في الدنيا منها أونها أرقى حلقة فى سلسلة الانسانية . فلما توجهت اليها وجبت أرضها وجست خلالها فاذا عالمهم كعالمنا وناسهم كناسنا وهم وان اختلفوا عنا فى بعض أزيائهم الا أنهم اتحدوا معنا فى جميع مراتبهم فتجد فيهم العالم والجاهل والعامل والخامل والنبيه والبليد والذكى والغبى والمؤدب والبذيء والغنى والفقير والرزين والطائش والعاقل والمجنون والشغال والبطال وبالجملة فانك لا تكاد تري الفضيلة الا وبجوارها تلك الرذيلة .

انظر الى عاصمة العواصم وزهرة البلدان ومصدر العلوم والعرفان ومنهل المدنية والرفاهية ألا وهى مدينة باريس فترى أهلها قد تحلوا بلباس الآداب والمدنية والحضارة لا يمكنك الا أن تأخذهم مثالا فيها . وبجوارهم من أهل المدينة أولئك الذين تهرب من وجوههم الوحشية وتأبى أن تلتصق بهم الخشونة والبهيمية . ترى أناسا من أفظع ما ترى من جنس الحيوانات الضارية فى الغابات التى فيما وراء خط الاستواء من افريقيا ذوي هيآت مخيفة ووجوه مغبرة وأصوات مريعة تصدر عنها عبارات شنيعة وأخلاق زنيمة وأفعال ذميمة ولغات مختلفة وطباع غير مؤتلفة لا يوقرون كبيرا ولا يرحمون صغيرا فلا ترى منهم الا ضلالة فى جهالة يهرب منهم كل من وقع بصره عليهم من أهل البلاد أنفسهم وهم ليسوا فى أعينهم الا شرا يتقونه أووباء يفرون منه واذا عثر أحد هؤلاء المتمدنين

بواحدمنهم فكأنه قدوقع بين يدي وحش مفترس فى صورة انسان لا يرعى لولىّ نعمة ولا لقانون ذمة ولا يجد فى نفسه على ضعيف رحمة وقلّ ان يتخلص منه من غير ماصدمة أو لطمة والنعمة والنقمة والفضيلة والرذيلة عندهم على السواء وهؤلاء اسمهم الڤويّو « Voyou » المتوحشون .

فاذا فطنت وأعملت فكرك في النسبة بين الافراد عندنا وعندهم فانك ترى فينا ماتراه فيهم من الكمال الشخصى من حيث العقل والعلم والحكمة وتجد الطبقة السفلى منا أرقى منها عندهم بكثير . ولكن الذي جعل هذا الفرق الشاسع بيننا وبينهم في الماديات والادبيات هو شئ واحد تراه فيهم وهو معدوم فينا .

هذا هو ان جميع افرادهم تعمل لجملتهم حتى جعلوا لهم عصبية يتعصبون لها ويرفعون من قدرها فتكوّن منها شخص الامة العاملة الحية التى يسعون فى سبيل سعادتها ولا تأخذهم عن الاخذ بناصرها سنة ولا نوم . فالامة تحيا بهم وهم يحيون بها . كوّنوها بجامعتهم ورفعوها بسواعدهم وأحاطوها بأسوار من مهجهم وبذلوا في المحافظة عليها النفس والنفيس فبدت للعيان فى مظاهر القوة والمنعة فى شخص حكومتها التى يعيشون فى ظلالها ويرتعون فى بحبوحتها مادامو ا ناصريها ومحافظين عليها .

يقوم كل واحد بصاحبه مادام هو قائما به ولذا فانك تجد هذه الحكومة نفسها تشتغل لصالح الاهالى وتسهر على منافعهم بل تصل الليل بالنهار بل الساعات بالدقائق بالثوانى فيما يعود عليهم بالخير والرفاهية لانها ترى انها انما قامت بهم بل تعتقد ان وجودها بوجودهم وحياتها بحياتهم وسعادتها بسعادتهم وشقاءها بشقائهم فهى منهم وهم منها كالروح من هذا الجسم يقوم أحدهما بالآخر

ماداما ملتصقين ببعضهما . وقد نظر القوم الى اهتمام الحكومة بهم وسهرها عليهم فأمنوا على أنفسهم وناموا فى راحة بال وتسهلت امامهم طرق العيش فعملوا الثروتهم وحضارتهم ولترقية صناعتهم ومعارفهم ورفعوها الى الاوج الذى ارتفع بهم الى حيث ظهروا امامك بل من فوقك وأنت تراهم كالنجم بدا سناه وبعد مناله حتى كانهم فطنوا الى أن الله تعالى ماخلق لهم عينين الا لينظروا بواحدة منهما فيما يعود نفعه على جامعتهم وبالاخرى فيما يرجع خيره الى أشخاصهم وهذا الخير وتلك المنفعة متضامنان فى نظرهم على كل حال وفي كل آن . تراهم ينظرون الى الوجهتين بقوة واحدة لايقدمون احداهما على الاخرى ملاحظين انه اذا ضعفت إحدي العينين سرى ضعفها بحكم الطبيعة الى الثانية فيحافظون على كلتيهما حتى تكونا على الدوام فى قوتيهما .

هكذا شأن الامم الغربية التى وصلت بعصبيتها وحياتها الى أن أصبحت من القوة والمنعة والثروة والسعادة والسيادة بحيث لايضارعها فيها سواها .

أما عندنا نحن المصريين بل الشرقيين فكل فرد ان عرف بابا للعمل فهو يعمل لنفسه صغيرا كان أو كبيرا وكأنه خلق وحده لايرى للجامعة رسما ولا يعرف لها الا هذا الاسم الذي تراه على الدوام يلهج بحروفه ولايعرف له معنى ولا واجبا يقوم به نحوه .

ترانا على الدوام نقول أمتنا خامدة أمتنا نائمة أمتنا ميتة كأن الامة شخص آخر نراه بأعيننا ونحكم عليه بما نجده من صفاته وماهى اذا فكرنا الا تلك الصورة التى يراها من نفسه كل واحد منا فى مرآته وكأنى بحقيقة الامة معدومة فينا بالمرة لانه اذا كان لا جامعة لنا فلا صورة لهذه الجامعة واذاً فلا أمة .

وعلى ذلك فكلام كل واحد منا فى شخص الامة راجع الى شخصه

لانه ليس فى نظره غيره .

هذا هو شأننا معشر الشرقيين يحسد المرء أخاه على نعمته ويتمنى زوالها من يده ولو الى الشيطان . لانرى لعالم فضلا ولا لتقيّ فضيلة ولا لمخترع مزية ولا لواعظ تأثيرا ولا لمرشد الى طريق الخير سوى ماينبرى لسلقه من ألسنة حداد فنشأ من ذلك عدم اهتمام الفرد بعمل الغير لانه لا يروق فى عينه الا عمله صالحا كان أوفاسدا . نظر كل من أخيه ما يراه في نفسه منه فكانت نتيجة ذلك التقاعد والتحاسد والسعى وراء الشخصيات .

نشأ عن ذلك تقاطعنا وتدابرنا ونتج عنه ميلنا الى الغربى فبالغنا فى الاحتفاء به والاعجاب بعمله فان قال فهو الحق وان أرشد فهو الصواب وان طلب فهو المجاب وان كتب حرفا ولو سبابا فينا فمن معانى كلامه العجب العجاب .

بالغنا فى الاحتفاء بالغربيين حتى لاتجد منا الا من يؤم بيوت تجارتهم ليشتري منها ما يروقه ويشوقه وتسابقنا على صب ما فى جيوبنا من ذلك النفيس الذي قضينا فى تحصيله أيامنا على خزائنهم وسرت هذه البلوى الى بيوتنا حتى ان السيدات اذا أحضرت اليهن مايبتغينه من هذه البضائع نفسها من أحد التجار الوطنيين وقلت لهن انه مثلا من محل مصطفى صبرى أو الجمال نفرن منها وابتعدن عنها كأنما قد التصقت بها صورة هذه الوطنية الممقوتة فى أعيننا وقلن حاشا لله أن نلبس الا من بنك فرنسيس أو بسكال على أى حال من الاحوال .

سرى هذا الداء العضال فى النساء والرجال والشبان والاطفال من جميع الطبقات والعليا منها هى المرشدة الى هذا السبيل الذي يقودنا الى الدمار والوبال .

نتج من ذلك كله انحطاط الاعمال واهمال الصناعات وضياع الثروة بالقائها بين أيدي الاجانب فقويت بذلك شوكتهم وسمت كلمتهم وظهرت عصبيتهم وأصبحوا ولا غيرهم فى هذه البلاد التى أصبح أهلوها يستظلون بظلهم ويستدينون من مالهم وهم بين راض عنهم ومادح لهم ومعجب بنشاطهم واجتهادهم بقدر اعجابنا بصحة المثل الشائع على ألسنتنا « مصر خيرها للغريب » كأنه آية من القرآن أو حكمة من أمهات حكم ارسطاليس أو لقمان أو دستور نافذ المفعول وضعته يد الايام وأمضته يد الزمان .

ولقد سرى هـذا الضعف العمومى أمام الاجنبى الى هيئة الحكومة فوهبته من الامتيازات ما جعلها والأهالى تستكين أمام عظمته وتضطرب فرائصها خشية منه ورهبة .

ظهر من كل هذه المقدمات التى وضعناها بأيدينا وبمحض ارادتنا هذا الضعف العام الذي شمل جميع افراد الامة بل (استغفر الله) جميع الافراد الذين يحد بلادهم البحر الاحمر شرقا والابيض شمالا وصحراء المغرب والسودان غربا والاراضى المشتركة جنوبا حتى أصبح كل وهو الكل فى نفسه وقد انحنى ظهره تحت أثقال ديونه من جهة وضغط يد السلطة الاجنبية عليه من أخرى وهو يتخبط فى طريقه غير عالم بمصيره لا ترى منه الا وجها مقطبا ولسانا يلهج بين كل ثالثة وثانية بسب الزمن تارة والأهالى أحيانا والحكومة فى كل لحظة وهو لا يدرى بأن قوتها بقوته وضعفها من ضعفه .

فاذا علمنا أن بين يدينا بقية من الحياة أو بعبارة أخرى أنا بين يدى هذه البقية لزمنا أن نحافظ عليها بالعمل فى تقويتها تاركين وراء ظهورنا تلك الاقوال التى ليس من ورائها الا الفناء والاضمحلال ونشتغل بما يفيد ونجتهد فى تكوين

جامعتنا التي نرى فى معناها كل خير وسعادة .

من ذا الذى يمنعنا عن أداء واجباتنا الشخصية ؟ من ذا الذى يقف فى طريقنا الذى نسلكه الى خيرنا وسعادتنا ؟ من ذا الذي يحجر على المسلمين منا الرجوع الى أصول دينهم والاخذ بمدنيته وآدابه ؟ من ذا الذى يحرم عليهم الاشتغال بشؤنهم القومية والعمل فيما فيه مصلحتهم الذاتية ؟ أترى ان أحدا اعترض أقباطنا فى هذا السبيل ؟ هل سمعت بشخص أقام لهم الموانع فى طريقهم الذى اتخذوه الى ترقية أحوالهم ؟ كلا ثم كلا . أرجوك أن تنعم معى نظرك قليلا فى أحوال المسلمين فى الهند تراهم قد نهضوا من سباتهم وقاموا من وهدتهم ونظروا الى ماضيهم فوجدوا في افقه كل فضيلة وأبهة وعظمة وسعود ومجد وسؤدد وحياة ثم نظروا الى مستقبلهم فرأوا فى جوه كل رذيلة وحقارة وانحطاط وشؤم وسفالة وفناء فألقوا عن غاربهم أثقال ذلك الاهمال وبصقوا من أفواههم سخائف الاقوال دون الاعمال وقاموا وفى مقدمتهم هؤلاء الرجال الابطال وأخذوا يعقدون المجتمعات ويحشدون المحافل منهم باحثين عن سبب أدواء الاسلام والمسلمين وقد وجدوا أن أحسن شئ يوصل الى طريق الخير واليمن والسعادة إنما هو تأسيس المدارس وتربية البنين فيها على قواعد تضمن لهم الحياة الحقيقية الاسلامية فى مستقبل أيامهم فعملوا ما قالوه وأنجزوا ما قرروه وهم الآن سائرون فى هذا السبيل بجد واجتهاد عجيبين . وما هم الا مدركو غايتهم وأمنيتهم في القريب العاجل ان شاء الله . هل عارضتهم حكومة الهند الانكليزية فى ذلك ؟ كلا ثم كلا . فما يمنعنا اذاً نحن الآخرين من النهوض والبحث فى سبب سقوطنا وما به تكون رفعتنا وحياتنا وسعادتنا ؟ هنالك تنقشع عن رؤسنا سحائب هذه المصائب ونعيش بعدها كغيرنا من الامم الحية في

عيشة راضية وسعادة مستديمة والله هو الهادى الى سبيل الرشاد .

## التربية فينا وفيهم

ان التربية الاولى عند الغربيين لاطفالهم من أوليات اهتمامهم وأحسن مبادئهم فتراهم يهتمون بتقويم جثمان الطفل منذ ولادته فيجعلون كل اهتمامهم بنظافته وملاحظته في كمال صحته من حيث تدبير غذائه وملابسه ونومه وهو مع ذلك كله لاتسمع أذنه اللطيفة من أمه الاّ كل مايأنس له ويرتاح اليه . فاذا فطم فهو وحيدها فى اهتمامها بتربية جسمه وعقله معاً فترتب له وقته من أكل وشرب وفسحة ونوم وتسكته اذا بكى باستمالته الى شئ غريب عنده مؤنس في نفسه يرتاح اليه ويهش به ويبش مما يزيد فى علمه وكان غريبا عنه فهى تشغله على الدوام بما يفيده من تعليمه كلمة يعرفها أوصورة شئ يقف عليها فلا يمضى عليه زمن يسير الا وهو يفهم ويتكلم هنالك تتجاذب معه من أنواع الحديث الحديث ما يتصوره خياله ويدركه عقله الضعيف من عبارات رقيقة يحث مغزاها على فضيلة أوينهى عن رذيلة أو حكايات من تاريخ صحيح عن عالم فاضل أوقائد مناضل أوحاكم عادل كانت غاية أعماله خيرا لنفسه ولبلاده على السواء . وهى مع ذلك تكثر له من ضرب الامثال المقبولة لذهنه فى بغض الكسل وحب العمل والبعد عن البطنة والشراهة اللتين تلقيان بصاحبهما الى قبضة المرض العضال وهكذا من تلك الكمالات التى تقوّم نفسه وجسمه معا فى آن واحد . وعدا ذلك فانها تلحظ سيره وسيرته فتحمده على الصالح وتزجره على الطالح وتتقلب معه فى الحسن والقبيح مستعملة حكمة الحكيم . فى ارشاده الى الطريق المستقيم . فلا يجد منها فى أوليات أيامه غير معلم عليم ومرشد حكيم يدرس فى

مدرستها مبادئ الفضيلة وحب العمل والادب وبغض البطالة والكسل والرذيلة . فتتربى فيه هذه الفضائل وهو فى نعومة أظفاره وهو اذا تكلم فان فاه لا يفترّ الا عن درر تتساقط من لسانه تغنى سامعيها عن أغانيها . فاذا ترعرع وبلغ الخامسة من عمره وجلس فى مجلس فانه يعرف آدابه ويلحظ والده وأصحابه ويفطن الى كلامه وكلامهم حتى اذا سئل عن شئ مما دار الحديث عليه أجاب برأى الناقد البصير مع حسن التعبير فاذا بلغ السابعة لم يكن امام عينية الا الذهاب الى المدرسة ليجتهد في دروسه بها حتى اذا حان وقت تتميمه لها وهو ماينتظره بفروغ صبر واشتغل بما يبلغه شأو أولئك الابطال أو هؤلاء الرجال الذين سعدوا بجدهم واجتهادهم وسعدت بهم أمتهم وبلادهم وضربت بهم الامثال التى كان يسمع عبارتها الرقيقة من أمه وقد أعاد خبرهم عليه معلموه بطريقة أجلى وأحلى . هنالك يجد له سبيلا الى غايته وسعادته يضمن له خيره وخير أمته ولم يلبث ان يصل اليه بحزمه وعزمه وقوة ارادته غير مكترث بما يصادفه من تلك الصعوبات التى تقوم فى سبيله لانه تعود من صغره على الهمة فى كل مهمة .

أما عندنا فالتربية الاولى معدومة ويالیتها معدومة فقط بل ترى الطفل كما لايخفى على علمك اذا ولد وكان ذكرا دعوه بالانثى غالبا ووضعته أمه من قاعتها فى ركن أمين وحصن حصين لاتقع عليه عين سواها ولا تمسه يد غيرها أو مرضعه فيكبر ويكاد لاترى جسمه شمس ولايصل الى هيكله هواء خوفا عليه من عين حاسد يكون من ورائها هلاكه على زعمها وهى لاتدري أن الذى هو فيه انما هو الهلاك المقيم . فاذا قضى مدة الرضاع وهو يتقلب على سرير الامراض والاوجاع وقد تمددت معدته وارتخت أمعاؤه من كثرة مايلقى اليها

من الغذاء المختلف ولا قدرة له على هضمه واستولى على بنيته الضعف والخمول ودب فيها المرض العضال الذى يلازمه في الغالب من مهده الى لحده كثرت آلامه وعلا صياحه . وزاد عويله وصراخه . فعوضا عن ان تستدعى له بطبيب يداويه . ويتدارك ماوقع هذا المسكين فيه . فانها تفتكر انه يبكى لاشئ وهنالك تثير عليه زوابع الزبابع . وتحيطه بسور من البعابع . بحال يضطرب لهـا لبه . ويجمد قلبه . فيذهل عما هو فيه ويتخيل بصره مادهم سمعه من عبارات تلك العفاريت أو عفاريت تلك العبارات التى يتصور أنه يشاهدها عيانا وقـد انهالت عليه بخيلها ورجلها فيرى كأن هذا قد امتدت يداه لالتهامه . وذلك قدفتح فاه لالتقامه . وغيرهما قد ظهر امامه بسحنة ممسوخة . وجرّ دعليه رجله المسلوخة . مهددا له بأن يقطع صريخه . فيسكت الولد المسكين مرة واحدة وقد جمد دمه وبرد جسمه من الهلع والخوف . وأمه أو مرضعه فرحة طربة لانها وصلت بخلها وسوء تبصرها الى غايتها التى تريد فيسكن جأشها ويهدأ روعها بسكوته الذى يحسن سكوتها عليه . وهى لو علمت مااعتراه من سـوء تصرفها في أمره لاستعاضت عويله بعويلها وصراخه بصراخها ولكنما هو الجهل الذى هو من أكبر آفات المرأة الشرقية (وحسبنا الله ونعم الوكيل) .

فاذا ترعرع وابتدأ يتلفظ بعض كلمات في سن الرابعة أو الخامسة فانما يبدأ بسب أبويه مما يعلمانه من الشتائم أو يسمعه على الدوام منهما لبعضهما فما هو الا أن يصل صوته بسمعهما حتى يفرحا به فرحا شديدا كأنه أتى اليهما بما يسر الخاطر ويفرح السامع والناظر . فينشأ على قـول كل قبيح وليس امامه من وازع أو رادع . وان جمح به جواد عناده يوما هدداه بكراهتهما له وميلهما الى أخيه الاصغر ويتوعدانه بأنهما سيشتريان لهذا وحده من اللعب ماينشرح

به صدره وتقر له عينه وحقيقة فانهما يتحفان على الدوام أحد بنيهم بما يحرمان منه الآخرين ولا يزالان يستعملان هذه الطريقة العوجاء فى تقويم صغارهما تارة يتظاهران بالميل الى هـذا مع كراهة الثانى وأخري بالعكس غير عالمين بما يقع في قلوب ابنائهما لبعضهم من الحسد والكراهة والبغضاء التى تنمو فيهم مع نمو أجسامهم ويكون من ورائها النفرة والشحناء والعداوة فيما بينهم على الدوام وان أردت البرهان فعليك بجلسات المحاكم الاهلية تجد فيها من عقوق الآباء وقطيعة الاخاء . ماتنفطر له قلوب العقلاء .

فاذا شب وسلم زمامه الى هؤلاء الخدمة الذين هم أسوأ حالا وأضل سبيلا أبرزوا منه ضمير تلك القبائح وهاتيك الرذائل الى حيز العمل وهنالك الطامة الكبرى حيث لا دواء ينجع ولا نصيحة تنفع . فاذا جاء سن المدرسة وهو فى الغالب سن العاشرة ذهب اليها بتكلف ومضى زمنه فيها بين تذمر وتأفف . فيقضى زمنه على ماتراه الآن بين توجه اليها وجيئة منها مع ماتعلمه من حرية التعليم فيها الآن الى أن يتم بها زمنه المضروب . ووقته المحسوب . فان ساعده حظه وحصل على الشهادة الدراسية كبر عناده وكمل فساده وانتفخت أوداجه وزاد لجاجه وادعى دعوته بأنه أتم العلم ووصل الى الحد الكمالى من الحكمة والحزم . وطلب الى أبيه الاستخدام والانخراط في سلك الحكام . وماهو الا ملبيه فى فكرته وساع وراء انفاذ ارادته . فان نجح فى مسعاه . كان فى ذلك منتهى سعادته . على ما يراه . وان خاب وهو الاكثر حصولا كان ابنه طول حياته عالة على قفاه .

هذه هى الطريقة الغالبة في تربية الابناء فى بلادنا وما تراه بخلاف ذلك منها فهو من الشاذ النادر .

أما تربية البنات فى أوروبا فانهم يعلمونهن بعد مدرسة أمهاتهن المنزلية العلوم الابتدائية على الاقل فيأخذن بذلك من كل علم طرفا ثم يعلمونهن على الخصوص التدبير الاهلى والاقتصاد المنزلي ومعرفة تربية البنين والبنات وما يمكن أن تحتاج اليه المرأة من تفصيل أو تطريز أو طبخ وبالجملة مالابد منه فى دائرة منزلها . حتى اذا تزوجت وكان بعلها فى مزاولة ما يقوم بحياتهما وأولادهما خارج المنزل كانت هى داخله تؤدي وظيفتها بما يكفل راحة الرجل اذا قصده بعد عمله مع مراعاة أطفالها على مايضمن لهم حسن الحال وسعادة المستقبل . وناهيك بهذه الوظيفة فانها ان لم تكن أكثر أهمية من وظيفة الرجل في الخارج فهى لاتقل عنها .

أما عندنا فتربية البنات أسوأ حالا واتعس مآلا من تربية البنين وهى على ثلاثة أقسام : الاولى التربية السفلى وهى حيوانية صرفة بل هذه قد تكون أرقي منها بكثير لانك ترى انثى الحيوان تنظف صغيرها أبدا . أما الام من تلك الطبقة فانها توسخ ولدها عمدا خوفا عليه من شر حاسد . حتى أنها لو وجدت قذى فى عينيه فانها لاتزيله لهذه الغاية وهو لايزول من نفسه الا بزوالهما معه . ولذلك فان العميان في مصر أكثر منهم فى أوروبا بأكملها ان لم أقل فى الدنيا بأسرها . ( أكثرهنا على نسبة أفضل من قول القائل « السيف أفضل من العصا » لانى لم أر أعمى قط مدة سياحتى بأوروبا ) .

الثانية التربية الوسطي أو القديمة وهى التى يتغالى أربابها فى الحجر على حرية البنات وحجبهن عن كل عين تراهن فينشأن بين زوايا بيوتهن اسوة الخادمات حتى يأتى زمن زواجهن فيخرجن من بيوتهن فى صورة أمهاتهن تماما معرفةً وأخلاقا الى بيوت أزواجهن كالآلة انتقلت من مكان الى آخر

فتصبح سيدة بيت لايمكنها أن تقوم بادارته لأنها معدومة الادارة والارادة غير عالمة بشئ مما ينبغى أن يعمل نحو واجبات منزلها الجديد ولكنها على كل حال تكون فى طاعة زوجها تأتمر بأوامره وتنتهي بنواهيه فان كانت على شئ من الذكاء والتؤدة والتبصر تعلمت على ممر الايام مايوافق مشرب بعلها صحيحا كان أو معتلا لامايجب أن تكون عليه هى بصفتها ربة منزل عليها واجبات نحوه .

القسم الثالث وهى التربية الحديثة أو العالية التى يسمونها بالتربية الافرنكية (فى ظاهرها لا فى حقيقتها) لولا أنها تمتاز عنها بهذا الحجاب الشفاف الذى ترى من خلاله فساد الاخلاق التى تسفر عن كل ضلالة وجهالة : وذلك ان البنت تتربى على مبادىء فاسدة بالمرة فانها من يوم ولادتها يلقى بها الى ما بين أيدى المراضع والخادمات اللواتى يشحن أفكارها بالخرافات والترهات والاباطيل والخزعبلات والطامة الكبرى هو مايتخلل أحاديثهن من الكلام البذىء الذى ينطبع فى مرآة عقلها وتسرى صورته الى لسانها . فاذا نشأت وأخذت مجلسها الذى لايخلو ساعة ما من دلالة أو بلاّنة أو خيّاطة أو من تلكم النسوة اللاتى يدخلن البيوت لممازجة ربتها وممازحتهن ولاشاغل لهن ولاشغلة الا الكلام الذى يحمرّ له وجه الادب وتبرأ منه الانسانية عرفت كيف يعلمنها النفاق . وسوء الاخلاق . والسرف والكذب والهذيان .

ومن هذا القسم من يتعلم مبادئ الكتابة والقراءة وغالبا ماترى بين أيديهن شيأ من تلك الكتب التى يضحكن وقت تلاوتها وتبكى لها عين الكمال . فاذا وافت ساعة زفافهن ودخان مساكن بعولتهن لاترى فى صورهن الا الكبرياء والعظمة والاسراف وسوء التدبير والوقاحة والامر والنهى بما لايستلزم معروفا أو يزحزح منكرا أو يقوم بصالح أو يصلح من فاسد مما يرتبك معه حال زوجها

وتكون معه حال بنيها أسوأ وأضل سبيلا .

نعم قد يوجد من القسمين الاخيرين من تربى على طريقة تضمن بعض الراحة والسعادة ولكن ذلك من النوادر التى لاتصلح معها حال الامة بتمامها وخصوصا هؤلاء البنين الذين عليهم كل المستقبل .

فالبنات عندنا فى نظر كل بصير أسوأ حالا منهن فى أيام الجاهلية ونحن أكبر جرما من آبائهن الذين كانوا يئدونهن من غير ماذنب سوى ماربما ينالهم منهن من عار موهوم حتى باكتهم الله تعالى فى كتابه العزيز بقوله (واذا الموؤدة سئلت بأى ذنب قتلت ) وكيف وقد كانوا يقتلونهن أجساما . ونحن نقتلهن أحلاما . ولا يعزب عن فكرك ان الانسان انما هو هذا العقل وتلك الفضيلة اللذان أمتناهما فيهن وأمتنا معهما خلقا كثيرا من بنيهن ظلما وعدوانا ولا حول ولاقوة الا بالله .

فاذا كان المصريون يفطنون الى واجب التربية فى البنين وخصوصا في البنات لم يلبثوا أن يروا من بعدهم أمة تعرف مايجب لها وعليها يكون لها من المجد والعزة والرفعة والسعادة مافاتنا منها والله هو الهادى الى الصراط المستقيم .

أما تربية البنين فلابد أن لا نقتصر فيها على التربية العلمية التى اذا قلنا انها تربي الفطنة والذكاء وتحصل من العلوم والفنون شيأ يساعدهم على تحرير جواب أو قراءة جرنال أو حل رموز بسيطة من المسائل الحسابية أو الهندسية أو تفاهم ضعيف باحدى اللغات الاجنبية مما قد يكون لنا منه الكفاية فى تعاليمهم المدرسية ولكنا مع ذلك يلزمنا أن لا نهمل نفوسهم تنمو على الرذائل وعدم التحلى بالفضائل بل يجب على الآباء أنفسهم أن يباشروا هذا الدرس المهمّ الذى ليس له في التربية المدرسية الحالية نصيب يدعو الى تهذيب النفوس وتكميل الاخلاق

والا كانت التربية العلمية فى أيديهم آلة للشر يكون من ورائها الفساد والعار والهلاك والدمار ونكون بها بمثابة المستغيث من الرمضاء بالنار .

أما تربيـة البنات فقـد بحث فيها القوم أخيراً بحثاً كثيرا . وامضوا فى هذا السبيل زمنا كبيراً . بين ابراز فكر محجوب . وابداء رأى مكتوب . ودعوة للامة برفـع حجاب مضروب . يكون من ورائه الخـير المطلوب . وأول من اقترح تربية المرأة المصرية فى جميع شؤنها واستلزم معها رفع الحجاب . هو ذلك الفاضل الكامل أحد رجال الشبيبة المصرية حضرة قاسم بك أمين فما هو الا أن وضع أولا كتابه ( تحرير المرأة ) ثم ( المرأة الجديدة ) حتى قامت عليـه ثورة الكتاب بين قادح ومادح وناقم ومستسلم ومفند ومنتقد وكان كل بحثهم من كتابيه فيما يختص بأمر الحجاب الذى لم يوافقه عليه سوى نفر قليل . وذهبت بذلك مسئلة تربية المرأة ادراج الرياح .

وحيث اناقد اختلفنا فى هذا الامر البيّن ( كعادتنا فى كل شئ ) فانى بقطع النظر عما أعتقده من ضرورة الحجاب أطلب اليكم تربية الانثى بأى حال ترغبون . مع العلم بان التربية شئ ورفع الحجاب شى آخر لا يتوقف احدهما على الثانى .

على انا اذا نظرنا الى ان الحجاب كاد يكون غريزة فى المرأة المسلمة وطبعاً فى المرأة القبطية أو بعبارة أخرى انه منهما بمثابة عضو من أعضاء جسميهما لشـدة اعتقاد الاولى بضرورته الشرعيـة وتعوّد الثانيـة عليه نرى أن رفعـه ( بفرض انه من الممكن حصوله ) يكون ضرره اكثر من نفعه . ان لم أقل انه ضرر محض . لانا اذا اعتبرنا أن الغاية منه انما هى اجتماع الانثى بالرجل حتى تتعلم منه مالم تكن تعلم وتعرف مالم تكن تعرف وسلمنا ذلك من غير منازع ولا جدال فما علينا الا أن نبحث فى ذلك الرجل الذي سيكون اختلاطها به وجامعتها عليه

نجده هو بعينه هذا الذى نطلب على الدوام وننادي في كل ساعة بل وفى كل ثانية بوجوب حسن تربيته الناقصة بل الساقطة . ولاشك أنها لو اجتمعت به تعلمت منه رذائل ما كانت تعرفها من قبل . وبذلك نكون انما وضعنا فيها هذه النقائص مكان تلك الكمالات التى ندعو بها اليها . وعدا هذا فانها تفقد أيضا ماهو ثابت فيها من الفضيلة الوحيدة التى لاتحمد الآن الا عليها ألا وهى فضيلة الحياء . ونكون نحن بدعوتنا الى رفع الحجاب على هذا الحال ألقينا بها الى أيدي أدواء عضالة من حيث نريد لها الصحة والعافية .

نعم قد يوجد منا بعض من تحلى بحلية الآداب ومنهم من القائلين برفع الحجاب. ولكنهم قليلون فى جانب ذلك الكثير الذين يكادون أن لايعرفوا من الحروف الهجائية مايتركب الأدب منها. فاذا قلنا بقصر المرأة فى رفع حجابها على الطرف الاول ( وأنى لجميع أفرادها ذلك ) وحصرها فى تلك الدائرة الصغيرة الضيقة التى انما نفر بمسئلتنا منها الى ماهو أكبر وأوسع يكون معها كمال حريتها . ظهر لنا أن المسئلة قاصرة على بعض الافراد لايكون معها خير كل الامة التى انما نبحث فى ترقية شؤنها بين جميع افرادها على السواء .

على أنا لو بحثنا فى مسئلة الحجاب وجدناه يتعلق بشخص المرأة وحدها. والتكلم فيه ليس من خصوصياتنا وانما هو من حقوقها الذاتية التى لايصح بنا الاعتداء عليها فيها . واذاً فما علينا الا أن نهتم بكمال تعليمها وحسن تربيتها على القواعد الدينية الصحيحة حتى اذا وصلت الى الدرجة التى تمكنها من معرفة حقيقة مايجب لها وعليها رفعته عنها ان شاءت أو أبقته ووضعت عليه غيره ان أرادت وهذه هى نفس الحرية التى ننشدها لها ونرجوها اليها .

فمن يري ان الحجاب في شئ من الدين فليرب ابنته معه على مايكفل

سعادتها وسعادة بعلها وسعادة أولادها منهما .

ومن يرى انه لم يكن من الدين في شئ فليربها على مايشاء منه ويختار . ومن يذهب الى وجوب تعليمها الكتابة والقراءة فعنده من كتب الآداب الشرعية والعلوم الضرورية مايكون معها خيرها وكمالها وسعادتها . ومن يذهب الى وجوب عدم معرفتها ذلك فليربها تربية الاعمي بالتلقين الشفاهى . ويجعلها على الدوام منه في مكان المتعظ جاعلا نفسه منها فى مكان الواعظ الذى يقوّم النفوس بمؤثر عباراته ويعمل كلامه بالالباب مالا تعمله الاقلام والكتّاب . وعلى كل حال فانه لو جمع تلك الآداب التى من الضرورى معرفتها اياها من واجباتها نحو دينها ونفسها وبعلها وبنيها ومنزلها وواجباتها نحو أهلها وأهله وواجباتها نحو الهيئة العمومية فانها لا تكاد تكون بقدر جزء أو جزءين من هذا الكتاب العزيز الذى يحفظه كله أغلب عمياننا عن ظهر قلب فى سنة أو سنتين على الاكثر .

فاذا قام كل فرد من أفراد الامة بتربية بناته تربية حسنة على ما يراه موافقا لمصلحتها لم تلبث الامة ان ترى فى هذا الميدان تلك التربية الفاضلة الفاصلة التى أحرزت فيه قصب السبق فتتبعها من نفسها ويكون من وراء ذلك كله خير العباد والبلاد .

أما اذا أضعنا زمننا بين أخذورد وارشاد وانتقاد لم يكن لنا غرض منه الا مجرد السمعة والشهرة فذاك شئ لا ينتهى مادامت الاقلام والمحابر . ونكون أضعنا معه الفائدة المطلوبة الآن كما أضعناها في الغابر . والله تعالى يرشدنا الى طريق الخير والسعادة والكمال .

# فهرست

صحيفة

١ اهداء الكتاب

٢ المقدمة

٥ على ظهر البحر من الاسكندرية الى تريستا : وصف البحر . واقعة ناڤارين . محادثة خيالية مع رئيس الدونمة العثمانية التى غرقت بمياه ناڤارين . وصف ناڤارين . جزيرة زنتا . جزيرة كفالونيا . جزيرة أثاكا . جزيرة كورفو . بحر الادرياتيك . سراب البحر . وصف محل الكورنتينا بتريستا

١٧ تريستا

١٩ الطريق من تريستا الى فينا

٢٠ السمرنج

٢٢ نبذة تاريخية عن محاصرة الاتراك لفينا

٢٣ الوصول الى محطة فينا . احتفال النمساويين بمقدم الجناب العالى الخديوي . مرور فرق العساكر المتقاعدين بفينا

٢٥ وصف مدينة فينا . تعصب النمساويين للغتهم . المعامل التى تديرها قوة تيار الماء

٢٩ رياضة في احدى منتزهات فينا

٣٠ فينسيا في فينا

صحيفة

٣٢ الموسيق والتياترات والتمثيل بفينا . تياترو الاوبرا بها
٣٥ استبداد فى أوروبا
٣٧ متحف الصنائع والفنون الجميلة . انتكخانة التاريخ الطبيعى . الانتكخانة التجارية بفينا . الغرض من وضع الانتكخانات
٤٨ المعرض المصرى فى فينا
٥٠ سراى شونبرون
٥٢ الاخلاق فى فينا
٥٣ الفلاح النمساوى فى فينا
٥٤ من فينا الى كولونيا . ترويج الحكومات الاوربية لبضائعهم
٥٥ مدينة كولونيا . وصف الالمانيين بها
٥٨ محل النزهة بكولونيا
٦١ وصف مدينة انتورس وشئ من تاريخها
٦٥ مدينة بروكسيل وشئ من تاريخها
٦٧ انتكخانة الصنائع والفنون الجميلة فى بروكسيل
٧٠ بستان النباتات فى بروكسيل
٧١ قصر العدالة أو نظارة الحقانية فى بروكسيل
٧٢ ميدان واقعة واترلو
٧٥ سياحة تحت الارض ( ووصف معادن الفحم الحجرى )
٧٩ مغارة هان
٨٦ نبذة تاريخية عن حكومة البلجيك

صحيفة

٨٩ من بروكسيل الى باريس
٩١ معرض باريس العام لسنة ١٩٠٠
٩٢ القسم الاول . القصر الكبير . القصر الصغير . معرض التركستان الروسية . محل مستعمرة كندا . محل اليابان . محل جزيرة سيلان . آلة بلجيكية لتنقية الذهب . منازل البوير
١٠٤ قصر الصناعات الاجنبية . قصر الصناعات الفرنساوية
١٠٥ قلب المعرض . ومعارض الدول . برج ايفل
١٠٧ محل السفر حول الارض
١٠٩ قصر النظّارات
١١١ قصر النور
١١٢ معرض الآلات
١١٥ معرض الآلات البخارية
١١٩ معرض آلات الغزل
١٢١ معرض الآلات الحربية
١٢٢ أعياد المعرض
١٢٤ كلمة على المعرض
١٢٦ كلمة على باريس . وصف المدينة ومبلغ عمرانها وعلمها . وصف غابة بولونيا . آداب القوم وأخلاقهم . متحف اللوفر . فرساي وسرايها الملوكيه
١٣٤ شئ من تاريخ سويسرا . ديفون وحماماتها الصحية . بحيرة جنيف . بلاد

صحيفة

سويسرا ووصف السويسريين

١٤٠ مدينة جنيف ووصفها . العربجية فى جنيف والمعارف بمصر . نظام المدارس وأعياد التلامذة

١٤٥ نزهة فى بحيرة جنيف

١٤٨ من جنيف الى زرمات . وصف الطريق اليها . نهر فييج . جبل جرنارجرات . بريج . الطريق منها الى جلاسييه دى رون . وصف الجلاسييه

١٥٦ من جلاسييه الرون الى هاندك . نهر الآر ومقابلته بنهر ايرلنباخ ووصف منظر شلال النهرين ومنظره العجيب .

١٦١ من جلاسييه الرون الى اندرمات .

١٦٣ من اندرمات الى جوشنن

١٦٤ نفق سان جوتار

١٦٧ من اندرمات الى ايلنس

١٧٢ منظر تكوين السحاب

١٧٥ مدينة كوار ومنها الى فينا

١٧٧ من فينا الى بودابست

١٧٨ مدينة بودابست

١٨٠ مدينة بودا

١٨٣ مدينة بست . مبلغ عمرانها . وصف المجريين . تعلق المجريين بالعثمانيين . آمال المجريين وشئ من تاريخهم .

١٩٠ حديث فى بودامع رجل من أهالى البوسنه

صحيفة

١٩٤ من بودابست الى بوخارست
١٩٨ مدينة بوخارست .مبلغ عمرانها . وصف أهلها . شئ من تاريخها .
٢٠٤ الاسكوبتس
٢١٥ من بخارست الى چاسى
٢١٨ مدينة چاسى
٢١٩ من چاسى الى أودسا . محطة أوچين. الروسيون وهيآتهم .
٢٢٠ مدينة چوشنوف . استقبال حكومة الروسيا للجناب العالى الخديوي بها .
٢٢١ مدينة أودسا . البحر الاسود . وصف الروسيين والروسيات . البوليس في الروسيا . الاغراب فيها . حكومة الروسيا . مستخدمو السكة الحديدية بها . جندية الروسيا . مدينة غالتس . قطارات السكة الحديد فى رومانيا وغيرها .
٢٣٠ برندزى . مينا سرندوس . شهامة الالبانيين والقره ضاغ .
٢٣٥ مدينة كورفو . مدينة بتراس . مدينة بيرا .اليونانيون وحالتهم فى بلادهم وبلادنا . العودة الى الاسكندرية .
٢٣٨ التبغ والمشروبات الروحية بأوروبا ومصر .
٢٤١ الحكومة والاهالى بأوروبا ومصر
٢٤٦ الاهالى والمدنية عندهم وعندنا
٢٥٣ التربية فينا وفيهم

- 9 FEB 2009